رقية الروح

نور الدين أبو لحية

دار الكتاب الحديث

موقع المؤلف: http://noursalam.free.fr/
بريد المؤلف: nouresalam@hotmail.com

الطبعة الأولى

دار الكتـاب الحديـث – القاهرة –
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرع	العنوان	الهاتف	الفاكس	البريد الالكتروني
القاهرة	ص.ب ٧٥٧٩ البريدي ١١٧٦٢ مدينة نصر – ٩٤شارع عباس العقاد	٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٩٩٠	٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٩٩٢	dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	١٣٠٨٨ شارع الهلالي برج الصديق ص.ب ٢٢٧٥٤	٠٠٩٦٥٢٤٦٠٦٣٤	٠٠٩٦٥٢٤٦٠٦٢٨	ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	ص ب ٠٦١ درارية الجزائر عمارة ٣٤	٢١٣٥٤١٠٥	٢١٣٥٣٠٥٥	dkhadith@hotmail.com

من القرآن الكريم

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (المائدة:١٦)

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ (الأنعام: من الآية٥٤)

لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام:١٢٧)

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (يونس:٢٥)

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً (الفرقان:٦٣)

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً (الفرقان:٧٥)

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (القصص:٥٥)

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (الأحزاب:٤٤)

سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (يّــس:٥٨)

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (الزخرف:٨٩)

تنبيه

نحب أن ينتبه قارئ (رسائل السلام) لما يلي:

١ ــ بما أن الغرض من هذه الرسائل هو أن تكون مدرسة تعلم فنون الحوار الإيماني، فقد اهتممنا في أصلها بما يحقق هذا الغرض، ولم ننشغل عنه بأي شاغل.. ولكن الكثير من المعلومات التفصيلية أو التوثيقية قد يحتاج إليها لتحقيق هذا الغرض، وهي مما لا يمكن إدراجه في الأصل.. فلذلك اكتفينا بإيرادها في الهوامش..

فلذلك يحتاج من يتعلم من هذه الرسائل مراجعة ما ورد في الهوامش والاهتمام بها باعتبارها معلومات أساسية تيسر عليه فهم وتحصيل ما يرد في أصل الرسائل من معلومات.

٢ ــ أننا لم نهتم كثيرا بتوثيق كل ما نرجع إليه من مصادر ما عدا ما يتعلق بالنصوص المقدسة من القرآن الكريم والحديث الشريف.. أما سائر النصوص، فتوثيقها يستهلك صفحات كثيرة، وقد يشغل القارئ عن المهمة التي تهدف إليها هذه الرواية.. ولهذا نكتفي بذكر المراجع العامة التي لجأنا إليها دون التدقيق في التوثيق في كل محل.

٣ ــ قد يعترض بعض أدباء الأدب الواقعي على كثير مما يرد في هذه الرسائل مما لا يمكن انسجامه مع الجانب الفني الواقعي.. كحفظ أبطال الرسائل للنصوص الطويلة مع كون بعضهم من العامة البسطاء.

ونحن نقدر هذا النقد..

ولكنا ننبه إلى أن الغرض من هذه الرسائل ليس الأحداث التي نسوقها، وإنما الجانب العلمي منها.. وإنما ذكرنا هذه الأحداث لنمزج المعلومة التي قد تكون جافة بما ييسر تحصيلها من التشويق والمتعة.

ولذلك إذا تعارض التشويق مع المعلومة قدمنا المعلومة عليه بناء على اعتبارها الأصل.

٤ ــ نحب أن ينتبه قراء هذه السلسلة خصوصا [سلسلة ابتسامة الأنين] إلى أن الوصفات الكثيرة، والتي تتعلق بالجانب الطبي المحض ــ مع كونها قد نقلت من مصادر مختصة وموثوقة ــ لا تغني عن الأطباء، ولم نوردها نحن لهذا الغرض، وإنما غرضنا منها توفير قناعة للمرضى بما أنزل الله من أنواع الشفاء، والتي قد تساهم وحدها في ملء نفوسهم بالأمل، وأجسادهم بالصحة.

المقدمة

قال لي أول ما التقيته: كلهم يدعي السلام، وكلهم يحارب السلام.

قلت: من؟

قال: أولئك الذين ملأوا الأرض لهيبا، والنفوس أحقادا، والقلوب ظلمات.. أولئك الذين يبحثون عن السلام في أتون الحرب.

قلت: الصغار أم الكبار؟

قال: الصغار والكبار.

قلت: ولكنهم كلهم يبحثون عن السلام.

قال: وكلهم يمارسون كل أنواع الحروب، ويعمقون كل أشكال الصراع، ويوقدون كل نيران الفتن، ويصنعون في سبيل ذلك كل أنواع الأسلحة.

قلت: ومن وكل إليه صناعة السلام؟

قال: من وكل إليه صناعة السلام يعاني من جميع الصراعات النفسية، فهو في حرب داخلية بين نزواته ونزغاته ووساوسه.. ويستحيل على من يعيش الحروب في الداخل أن يصنع السلام في الخارج، فالخارج صدى الداخل، وكتاب الباطن يقرؤه لسان الظاهر، وكل إناء بما فيه يرشح.

***

لست أدري، هل كنت مستيقظا أم نائما حين ربت على كتفي أول مرة التقيته فيها، وقال لي بقوة ممزوجة بلين، وشدة مكسوة برحمة:(قم لتتعلم السلام)

نظرت إليه، فوجدته شاخصا إلي بصورة لا أستطيع ــ مهما حاولت ــ أن أشبهها، فقد جمعت صورا شتى وملامح مختلفة، ولكنها ليست متناقضة، فالتناسق بينها جميعا في منتهى كماله.

لعلي لو كنت هنديا لشبهته ببوذا، أو كنت صينيا لشبهته بكنفوشيوس، أو كنت فارسيا لشبهته بزرادشت، أو كنت بابليا لشبهته بالخليل، أو كنت نصرانيا لشبهته بالمسيح، وبما أني أدين بالإسلام، فقد كانت أقرب صورة إلى نفسي صورة الذي اجتمعت فيه الكمالات، فصار فهرسا لمفرداتها، وشمسا لأشعتها.

وجهه كصفحة الماء التي لم تعبث بصفائها التيارات، ولكنه في قوته كالبحر الذي يزمجر بألحان السلام الجميل.. لعله صورة السلام الذي دعاني إلى تعلمه.

قلت له: من أنت؟

قال لي: أنا النقطة التي تحت الباء[1].

قلت: ولكني أراك النقطة التي فوق النون.

قال: ذلك عندما أكون معه.

قلت: ومتى تكون معه؟

قال: عندما لا أكون مع نفسي.

قلت: وهل يمكن للإنسان أن لا يكون مع نفسه؟

قال: نعم، إن عاش معها دون أن يراها.

قلت: وما الذي تحجبه رؤيته لها؟

قال: تحجبه عن رؤية السلام.. لأنه إذا رآها أحبها، وإذا أحبها صارع من أجلها؟

قلت: من يصارع؟

قال: الكل.

قلت: ومن الكل؟

قال: الله.. والكون.. والدنيا والآخرة.. والمجتمع والعالم.. والملائكة والجن.. ونفسه التي يصارع من أجلها.

قلت: وكيف يتخلص من الصراع؟

قال: بتعلم السلام.

قلت: وكيف نتعلم السلام؟

قال: اصحبني لتتعلم السلام؟

قلت: ومن أنت؟

قال: أنا معلم السلام؟

قلت: وما اسمك؟

قال:لي تسعة وتسعون اسما، ولكن يمكنك أن تناديني ــ ما دمت معك ــ بــ (عبد السلام)

قلت: وأين تسكن؟

قال: في دار السلام.

قلت: وما وظيفتك؟

(١) تتردد هذه العبارة كثيرا في رسائل السلام، والقصد منها العبودية لله، وهو تعبير اشتهر عن بعض الصالحين.

قال: تعليم السلام.

قلت: لمن؟

قال: لك، ولكل الناس.

قلت: ولكني لا أرى الناس يتحدثون عنك.

قال: لأنهم يضعون الغشاوة على أعينهم حتى لا يروني، ويدخلون أصابعهم في آذانهم لكيلا يسمعوني، ويضعون الحجب بيني وبينهم لكيلا يفكروا في البحث عني.

قلت: فهلا طرقت أبوابهم؟

قال: أنا لا أخاطبهم إلا من وراء أبوابهم.

قلت: لم تزدني بك إلا جهلا، فهلا انتقلت من التلميح إلى التصريح، ومن الـــ..

قاطعني، وقال: قلت لك: أنا النقطة التي تحت الباء.

قلت: ولكن النقطة حبر على ورق، وأنت إنسان لا بد لك من محل تقيم فيه، وسبب ترتزق منه، ولا أرى السلام في هذا الزمان صناعة رابحة، فمن أين تأكل؟

قال: من عيون الحكمة التي تفيض من بحار السلام.

أدركت أن الحديث معه عن حقيقته لا يجديني شيئا، فما يزيدني تصريحه إلا غموضا، فقلت: وكيف أصحبك لأتعلم السلام؟

قال: كن معي بسمعك وقلبك، ولا تجادلني.

قلت: طبعي يأبى الانقياد، فكيف لا أجادلك، وهل تريد مني طاعة عمياء، أوتريدني صفحة بيضاء، وقد نقشت في السنون ما نقشت؟

فقال: ناقشني كما تشاء، ولكن لا تجادل، فإن الجدال صراع، وأنا لا أحب الصراع.

قلت: على أي مذهب أنت؟ وإلى أي طائفة تنتمي؟ فإني أخشى أن تخرجني من بني قومي؟

فقال: أنا عبد الله، وليس لي مذهب إلا عبادة الله، ولا لي طائفة إلا طائفة عباد الله، فإن أردت أن تكون عبدا لله، فأنا معك، ويمكنك أن تتعلم مني، أما إن كنت عبدا لقومك، فأوصد الباب بيني وبينك، فلا يمكن لمن استعبدته الأعراف، واحتواه التعصب للمذاهب والطوائف أن يتعلم شيئا.

قلت: أأنت من أهل الرأي، أم من أهل الأثر؟

قال: أنا من أهل الرأي الصالح، ومن أهل الأثر الصحيح.

قلت: أأنت من السلف، أم من الخلف؟

قال: إذا كان في السلف والخلف عباد لله، فأنا منهم جميعا، ومن غيرهم من عباد الله جميعا.

قلت: أأنت من السنة أم من الشيعة؟

قال: أنا من السنة الذين يحيون وراثة النبوة .. وأنا من الشيعة الذين يشايعون ورثة النبوة، وينتصرون لهم، ويقفون في صفهم.

قلت: أأنت من هذه الأمة؟

قال: منها، ومن كل أمة تعبد الله وتوحده وتنصره وتسلم وجهها إليه.. أنا النقطة التي تحت الباء، والنقطة لا تختار إلا ما يختار لها.

قلت: أخبرتني أن وظيفتك التعليم.. فما برنامج تعليمك؟ وما مصادره؟

فقال: لي برنامج واحد هو تعليمك السلام، ولي مصدر واحد هو الحكمة من أي لسان برزت، وفي أي كتاب وجدت، فإن شئت أن تتعلم فأحضر قلمك، واجلس بين يدي وأصخ سمعك، وعش عالم الحروف والكلمات لتبصر الحقائق بين ثناياك، وتفجر أنهار العلوم من صدرك.

قلت له: وما الحاجة إلى القلم، هو أنا ذا بين يديك.

قال: ألم تسمع إلى الحق تعالى وهو يقول:﴿ الذي عَلَّمَ بالقلم ﴾(العلق:٤)، وإلى قوله تعالى:﴿ نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾(القلم:١)

***

لست أدري، هل تركته في ذلك المساء أم تركني؟ ولكني أحسست عندما رجعت، أو عندما أفقت أنني بحاجة حقا إلى السلام، فالصراع بين جوانحي يتأجج، ونيران الصراع من حولي تحرق الأخضر واليابس، ومن وكل إليهم السلام في الأرض لا يأبهون للصراع الذي تمتلئ به شوارعهم ومستشفياتهم وجامعاتهم وثكناتهم ودورهم.. بل يحاولون أن ينشروا الصراع في الكون الجميل، فيغزوا الفضاء، ويستولوا على أملاك المجرات.

ولأجل ذلك يمتصون بسمات الصبيان البريئة، ويقتلون البراءة في أعين الثكالى الذين قتلوا أولادهم، ليؤسسوا على أنقاضها وأنقاض الجماجم طوابق جديدة للصراع الذي يدمر السلام.

***

قلت له، لما التقيته ثانية: نعم أنا بحاجة إلى السلام، وقد أحضرت قلمي، وسمعي وبصري، وهذي قراطيسي، فأملي علي الخطة التي نصنع بها السلام في العالم الذي يأكله الصراع.

فقال: العالم يبدأ بك أنت.. فأنت العالم، والعالم أنت.

قلت: أنا فرد من العالم، والعالم أعداد ضخمة، تنتشر في القارات والبحار والمحيطات.

قال لي: وكل فرد منهم عالم وحده، بقاراته ومحيطاته وأفلاكه.

قلت: فأي ميزانية ضخمة توصل حقائق السلام لكل تلك القارات والبحار والمحيطات، وكم مدرسة ينبغي أن نؤسس لهذه العوالم الكثيرة التي يموج بها العالم.

فقال لي: السلام لا يحتاج أموالا ضخمة، ولا عقولا جبارة، ولا مدارس متحضرة، بل يكفي لصناعته قلب واع، وعقل متبصر، وأذن مستمعة منصتة، فأصخ سمعك لي، ولا تهتم بالعالم.. فإن سلامك هو سلام العالم، وحربك هو حرب العالم.

***

بعد انصرافه أو إفاقتي تفكرت فيما قال، فعلمت أن السلام في العالم، والذي ظل يؤرقني، لن يبدأ إلا بأفراد العالم، وأفراد العالم هي نفوسهم التي تمتلئ أحقادا وضغائن، وعقولهم المتفننة في صناعة الإجرام، وقلوبهم التي تقلب الحقائق لتتلاءم مع ما تتطلبه النفس من شهوات.

وحين أدركت هذا، علمت أن السلام لن ينشأ إلا من داخلي، ومن أعماق وجداني.

وحين تأملت أعماق وجداني هزني ما أجد فيها من صراع، فأحدث الأسلحة ما صنع وما لم يصنع تمتلئ بها ذخيرتي، والصراع بين لطائفي وجوانحي على أشده.

ثم تأملت علاقتي بالوجود، فإذا بي لا أختلف عن أي جندي كنت أنظر إليه حاقدا وهو يقتل الصبيان والأرامل.

وتأملت علاقتي بالكون، فإذا بي لا أختلف عن المجرمين الذين ألقوا القنابل النووية على هيروشيما وناكازاكي.

وتأملت علاقتي بالله، فإذا بي أصبح مع فرعون في كل لحظة:﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾(النازعـــات: من الآية٢٤)

وتأملت علاقتي بالقدر، وبنظام الله في كونه، فإذا بي أحمل راية المعارضة، وأقول لله بكل جرأة:(افعل، ولا تفعل، وهذا ما جرتنا إليه أفعالك)

لا أكتم أني بكيت من كل ذلك الخراب الذي يسكنني، بكيت مثلما أبكي دائما عندما أرى الصبيان يذبحون، والقنابل تتساقط على البيوت لتهز ما فيها من السلام.

لقد بكيت لأني لم أكن أرى العالم، وإنما كنت أرى نفسي، فالعالم صدى نفسي، ونفسي صدى العالم.

***

عندما التقيت به المرة الثالثة، كانت أول كلمة قلتها له: لقد فهمت.. أريد السلام في نفسي، فلا يمكن للعالم أن يعيش السلام، ونفوس من في العالم تعيش الصراع، فالخارج صدى الداخل، وكتاب الباطن يقرؤه لسان الظاهر.

قال لي: لقد خطوت الخطوة الأولى نحو السلام، ولكن ذلك لا يكفي.

قلت: وماذا علي أن أصنع، لقد أحضرت قراطيسي وأقلامي، وهاهو سمعي؟

فقال لي: وأين نفسك ووجدانك، وذلك الخراب الذي بكيت لما عاينته، وتلك الأسلحة التي قد تنفجر في أي لحظة؟

قلت: ما جئت إليك إلا لتنقذني منها؟ أما خرابي وقفري، فها أنا بين يديك فابن على أنقاضي مدائن السلام.

قال: أنا لا أبني ولا أدمر، ألا تعلم أنه لا سلطة لي على أحد من الناس، فكيف تكون لي سلطة عليك؟

قلت: فما الذي ينقصني؟

قال: إرادة تدكدك الجبال، وصبر يقطع الفيافي، وعزيمة تفل الحديد، وهمة تناطح الجوزاء؟

قلت: تريد العمل؟

قال: لا يكفي العلم، ألم تسمع الحق تعالى وهو يقول مادحا عباده الصالحين:﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(الزمر:١٨)

قلت: وهل العمل إلا بالعلم؟

قال: هكذا الأصل، ولكن قومك حولوا العلم صناعة، ألستم في عصر العلم؟

قلت: وهل يجادل في ذلك أحد؟

قال: وأين آثار العلم، وأين سيما العلماء، وأين السلام الذي يصنعه العلم؟

ثم أخذ نفسا عميقا كأنفاس الصديقين، وقال: الحق أقول لك.. لن تعلم حقيقة العلم حتى تعمل حقيقة العمل، فإن العلم ثمرة العمل.

قلت: وما تطلب مني؟ أالعمل بالعلم؟.. سأعمل بكل ما تأمرني به.

قال: لا يكفي أن تعمل بالعلم، فقد يكون العمل بالعلم رياء.

قلت: وما أصنع؟

قال: أن تعيش ما تعلمه من حقائق العلم، وأن تحياه.

قلت: وكيف ذلك؟ وما الفرق بينه وبين العمل بالعلم؟

قال: العمل بالعلم شغل وتكلف ومهنة، والمشتغل والمحترف يركن إلى الراحة بعد عمله، فينسى حقيقة ما تعلمه.

قلت: وكيف أعيش العلم؟

قال: أن تنصبغ به، ألم تسمع إلى الحق تعالى، وهو يقول:﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾(البقرة: من الآية١٣٨)

قلت: وكيف أنصبغ بصبغة العلم؟

قال: أن تتحول حروفه وكلماته لطائف تتذوق معانيها، وتشهد جمالها، فتتحرك بمقتضاها بمحبة وشوق لا بتكلف ومشقة.

قلت: فها أنا ذا بين يديك، فاصبغني بصبغة العلم؟

قال: لقد أخبرتك أنه لا طاقة لي بالبناء ولا بالهدم؟

قلت: فمن يبنيني؟

قال: يداك تبنيانك.

قلت: وكيف ذلك؟

قال: بالإرادة.. فإن أردت أن تتعلم السلام، فأحضر قلمك وسمعك وإرادتك، فلا يمكن أن يتعلم السلام خائر الإرادة، منهار العزيمة، محطم القوى.

***

عندما انصرفت عنه أو انصرف عني عدت، فتأملت باطني المملوء بالخراب، وفتشت أسلحتي الكثيرة التي أشهرها في وجه كل الكون، فانتشر حزن شديد مصحوب بيأس شديد، وارتعدت فرائصي من الخوف، وأنا أرى جميع القنابل النووية والجرثومية وقنابل أخرى لم تمتد إليها يد الصناعة كلها مشهرة مدافعها في وجهي وقلبي وكياني.

ونظرت إلى المستقبل بعين سوداوية، فانتشرت الكآبة في وجهي وجميع جوارحي.

استلقيت مريضا متألما، لا أدري ما أصنع، فليس لدي أي قوة، فصحت: كيف لي أن أريد، ولا أريد إلا بإرادة؟

فأجابني، وكأنه سمع صوتي النابع من أعماقي: تعال أعلمك الإرادة، فيكفي في الإرادة أن تصيح أعماقك.

***

منذ ذلك الحين، وأنا معه أتعلم السلام، وأكتب ما يمليه علي من رسائل السلام، وهي

الرسائل التي لم أفعل فيها من جهد غير روايتها، و لم أحملها للنشر إلا بعد إذنه لي بنشرها.

وقد قال لي في لقاءاته الأولى: ما هي المراحل التي وضعها قومك للتدريس؟

قلت: هي أربعة في العادة، وعند أكثر الشعوب.

قال: ما هي؟

قلت: الابتدائي، والإعدادي، والثانوي، والجامعي.

قال: فنحن في دراستنا للسلام سنمر بهذه المراحل الأربع.. ولا تكتمل دراستنا إلا بها جميعا.

قلت: فماذا ندرس في الابتدائي؟

قال: الأمل؟

ضحكت، وقلت: ما الأمل؟

قال: هو عدم الاستسلام لمسوغات الصراع التي ينشرها اليأس والحزن والألم، فلا يمكن أن يسالم الحزين والخائف والمتألم.

قلت: أكل برنامجنا في المرحلة الابتدائية هو الأمل؟

قال: أجل، وهو برنامج كغيره من البرامج يحتوي على عشر مراحل، كل مرحلة نقطع فيها يأسا، ونحيي فيها أملا.

قلت: و لم خصت الدراسة الابتدائية بالأمل؟

قال: لأن الحزين والخائف واليائس مشغول بنفسه، فلا يفكر في السلوك للبحث عن حقائق السلام.

قلت: فماذا ندرس في الإعدادي؟

قال: الترفع..

قلت: وما الترفع؟

قال: هو مواجهة النفس ما يتربص بها من أصناف الأعداء، أو هو تدمير الأسلحة التي تتوجه بها النفس إلى نفسها.

قلت: وما علاقة ذلك بالسلام؟

قال: وهل يمكن للسلام أن يقوم في ظل ترسانة نووية ضخمة تموج بأشعتها النفس.

قلت: فلم خصت الدراسة الإعدادية الترفع؟

قال: في الإعدادي يبدأ الطلبة مواجهة الحياة باضطراباتها وفتنها.. فلذلك يحتاجون إلى معرفة كيفية مواجهتها.

قلت: فماذا ندرس في المرحلة الثانوية؟

قال: السلوك.

قلت: وما السلوك؟

قال: هو سعي النفس التي تخلصت من براثن اليأس والحزن والألم والصراع للتحقق بما تقتضيه الحقيقة من صفات الكمال.

قلت: وما علاقة ذلك بالسلام؟

فقال: لا يمكن للسلام أن يساكن الخراب.

قلت: فلم خص بهذه المرحلة؟

قال: من عرف كيف يشذب الأشواك التي تقف في وجه حقيقته تطلع للأزهار التي يمتلئ بها الوجود.

قلت: فماذا ندرس في المرحلة الجامعية؟

قال: الحقيقة.

فقلت: وما الحقيقة؟

فقال: هي نهاية الرحلة ألم يقل الله تعالى:﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾(لنجم:٤٢)

قلت: فما هي؟

قال: هي القراءة الصحيحة للوجود بكل معانيه وأصنافه، لأن مبدأ الصراع ليس الخطيئة وإنما الخطأ، ومبدأ الخطأ هو الجهل سواء كان مركبا أو بسيطا.

قلت: فلم أخرتم الحقيقة إلى نهاية الرحلة؟ ألم يكن الأجدى البدء بها؟

قال: لا.. الحقيقة إن لامست النفوس المملوءة بالقذارة امتلأت قذارة.

قلت: ولكن نور الحقيقة لا تبقى معه أي قذارة.. كما أن ضياء الشمس لا تبقى معه أي ظلمة.

قال: ولكن الجاهل قد يضع يديه على عينيه، فلا يبصر الشمس.. فلذلك نحتاج لرفع يديه عن عينيه حتى يبصرها.

قلت: فكيف نرفع يديه عن عينيه؟

قال: بالأمل والترفع والسلوك.

قلت: أهدف كل هذه المراحل إذن هو الوصول إلى الحقيقة؟

قال: أجل.. فلا يمكن أن نصل إلى السلام إلا بعد الوصول إليها.

***

هذه هي المراحل الأربعة التي تقوم عليها رسائل السلام، ولكل مرحلة منها مجموعة خاصة بها، كل جزء منها باب من أبواب السلام، ومدخل من مداخله، وبحر من بحاره.

فإليك أيها القارئ هذه الرسائل، فاقرأها بشروطها، لنتعلم معا السلام، ونطير في أجواء السلام، لندخل بعد ذلك دار السلام، فقد دعانا السلام في كلامه المقدس إلى دار السلام، فقال تعالى:﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ ﴾ (يونس: من الآية٢٥)

بوارق الأمل

في هذه المجموعة من رسائل السلام أحاديث عذبة جميلة تنطلق من فيض الحقائق الأزلية لتنشر سلام الأمل في القلوب والأرواح.

وقد كان أول لقاء لي مع معلم السلام بعد موافقته على جلوسي بين يديه طالبا ومتعلما مملوءا بكدر عظيم حصل لي، فقد اختلطت في نفسي كل الكدورات من الألم والحزن والأسف والندم وغيرها، فأصبحت وكأنني مزبلة للكآبة.

قال لي: أول مراحل تعلم السلام هو الأمل.

قلت: إذن هو الدراسة الابتدائية في مدرسة السلام.

قال: سم ذلك ما شئت.. ولكنك لن تصل إلى حقائق السلام إلا بعد أن تقطع هذه المرحلة.

قلت: لم؟

قال: لأن الأمل والبشارة هي الأرض الطيبة التي تنبت كل أنواع الثمار، أما القنوط واليأس والأسف والحزن، فإنه لا يولد إلا الهلاك، ألم تسمع إلى ابن مسعود ﷺ وهو يقول:(الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب)

قلت: ألهذا بعث الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ بالبشارة، كما قال تعالى:﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾(ابراهيم:١٠)

وأمر تعالى نبيه ﷺ بالتبشير فقال:﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾(الزمر:١٧)

قال: أجل.. فهم مبشرون قبل أن يكونوا منذرين، بل إن الإنذار نفسه يحمل معاني البشارة ومقتضياتها، وليس ذلك فقط، بل كان سلوك الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ نموذجا رفيعا عن الأمل في أعلى درجاته.

قلت: وكيف لي أن أتعلم سلام الأمل؟

فقال: ثلاث سور من القرآن الكريم تحمل جميع مفاتيح الأمل؟

قلت فرحا: ثلاث سور فقط.. ما هي؟ سأحفظها عن ظهر قلب.

قال: بأي شيء تحفظها؟

قلت: الحفظ لا يكون إلا في الصدور، كما أن الكتابة في السطور.

قال: لا.. الحفظ الذي يكون في الصدور ولا يتغلغل في الوجدان يأكله التراب، ويجرح صفاءه النسيم.

قلت: فبماذا أحفظها إذن؟

قال: ليس الشأن أن تحفظها.. ولكن الشأن أن تنصبغ بها.

قلت: فما هذه السور الثلاث؟

قال: الضحى، والشرح، والكوثر.

قلت: أهذه السور فقط؟

قال: إن كل حرف من حروف هذه السور مدرسة من مدارس الأمل.

قلت: كيف ذلك؟

سورة الضحى:

قال: إن الله تعالى يخاطب رسوله ﷺ، وهو يواجه الفتن بجميع أنواعها، بالبشارة والأمل، فلا يمكن أن يواجه كل تلك التحديات بصدر منقبض، ونفس يائسة، وقلب ضيق.

فلهذا كان من أوائل ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى:﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى:١ ــ ١١)

فهذه السورة الكريمة أصل في الدعوة للأمل، بل أصل في تبيين طريقة تحقيقه، ولذلك ستكون نبراسا نهتدي به في استنباط ما يحتاجه تعليم الأمل وتحقيقه من معاني.

وقبل ذلك أجبني: ما المناسبة التي نزلت فيها، فهي مناسبة لها دلالتها الخاصة على ما نحن فيه؟

قلت: روي أن جبريل عليه السلام أبطأ عن النبي ﷺ، فقال المشركون:(قد ودع محمد)، فنزلت[1].

قال: ومثل هذا كل مكروب أو متألم أو متأسف أو حزين أو قانط، فإن أول ما ينفخ فيه شياطين اليأس والألم والحزن هو ترك الله له وتخليه عنه.. فلذلك أول علاج نبدأ به مسيرتنا في حل كل معضلة، أو تفريج كل كربة هو التذكير بالله، والتعريف به.

قلت: علمت أن هناك علاقة وطيدة بين القسم والمقسم عليه، فما سر العلاقة هنا؟

---

(١) الفريابي، وعبد بن حميد، وسعيد بن منصور، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه عن جندب.

قال: تبدأ السورة بإطلالة جميلة على كون الله، وهي إطلالة تخرج الإنسان من قوقعة ذاته الضيقة لترمي به في فضاء الكون الفسيح.

بل نرى في السورة الكريمة تقديم الضحى على الليل على عكس السورة السابقة، وكأنها تقول للغارق في ظلمات آلامه:(انسخ بأنوار الضحى ما نسج الليل فيك من أحزان وآلام)

بل إنها تشير إلى نواح جميلة في الليل قد لا يلتفت لها اليائسون، فهي تذكر الليل بكون (سجا) أي سكن[1]، وبسكونه تسكن النفس وتطمئن وتسعد.

قلت: فما نستفيد من هذا القسم من منهج تعليم السلام؟

قال: الربط بين حقائق الكون والنفس، فكلاهما من صنع الله.

قلت: كيف؟

قال: ننسخ ظلمات النفس بأنوار ضحى الكون.

قلت: فسنتعلم إذن علوم الكون أثناء تعلمنا للسلام.

قال: ألا ترى إلى القرآن الكريم كيف يمتلئ بذكر الكون؟

قلت: بلى.

قال: فالله يدلنا على المنهج.. وما كان لنا أن نخالف منهج ربنا.

قلت: بعد القسم قال تعالى:﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾(الضحى:٣)، فما السر.. وماذا نستفيد من المنهج؟

قال: الآية تخبر عن معية الله وحضوره الدائم مع عباده، فهو لم يتركهم، ولم يهجرهم، ولم يودعهم ولم يقلهم، بل هو معهم يكلؤهم ويرعاهم ويداوي جراحهم.

وهذا هو العلاج الأول لكل كرب وألم وحزن، ولذلك فإن جميع ما سنراه من أدوية يتلمس كل الوسائل لغرس هذا المعنى في النفوس.

قلت: فقوله تعالى:﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾(الضحى:٤)؟

قال: هذا حديث عن المستقبل الجميل الذي ينتظر كل إنسان استظل بظل الله، فالآخرة خير في جمالها وسعادتها ودوامها، فلا يحزن على المستقبل، كما لا يندم على الماضي، من راح في صحبة الله يبني الدار الآخرة ويشيد قصورها.

---

(١) قاله قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة، يقال: ليلة ساجية أي ساكنة. ويقال للعين إذا سكن طرفها: ساجية. يقال: سجا الليل يسجو سجوا: إذا سكن. والبحر إذا سجا: سكن. قال الأعشى:

فما ذنبنا أن جاش بحر ابن عمكم وبحرك ساج ما يواري الدعامصا

قلت: فما نستفيد من المنهج في هذا؟

قال: كل الهموم والآلام سنعالجها بهذا الترياق، وسترى كيف يقضي على كل داء، وكيف يحل كل عافية.

قلت: فقوله تعالى:﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾(الضحى:٥)؟

قال: علاج العلل لا يقتصر على ذكر الآخرة، فالله رب الدنيا والآخرة، وعطاؤه عاجل وآجل، نقد ونسيئة، فلذلك يقول الله تعالى للمتألم، وهو يغرس فيه زهور الأمل:(سيعطيك ربك عطاء يرضيك، ويزرع البسمة في وجدانك، ويمحو كل الآلام التي غرسها اليأس والحزن في جوانحك.. فالله تعالى بجوده الذي لا يتناهى يجعل أمدا للعطاء هو الرضى الكامل، فالله لا يعطيك فقط، بل يعطيك ليرضيك، وفرق كبير بين من يعطي، ومن يرضي)

قلت: ألهذا أخبر تعالى عن الرضى التام الذي يجده من اختار سبيله، فقال: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (الحاقة:٢١)، وقال:﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾(الغاشية:٩)، وقال: ﴿ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾(الفجر:٢٨)

قال: أجل، فالرضوان هو غاية الأماني.. وهو منتهى السعادة، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾(التوبة: من الآية٧٢، فقد ذكره بعد ذكر ما أعد لأهل الجنة في الجنة[1].

قلت: بلى، ويدل لذلك قال ﷺ:(إن اللّه عزَّ وجلَّ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل لكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً)[2]

فما نستفيده من هذا في منهج تعليم السلام؟

قال: لا يكفي أن نعرف الحقائق.. بل نسعى للرضى عنها.. فالرضى هو الذي يولد الأنس، ولأنس هو الذي يولد الحب.. والحب هو الذي يجعلك تنصبغ بالحقيقة.

قلت: فما نستفيد من تعداده تعالى لأفضال نعمه على عبده، كما قال تعالى:﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ (الضحى:٦ ــ ٨)

قال: هذا بلسم عظيم للشفاء، فهو يغرس السكينة في النفس، والطمأنينة في الوجدان، وهو

---

(١) وهو قوله ﷻ:﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:٧٢)

(٢) البخاري ومسلم.

يبشر المتألم بأن الذي رعاك سابقا لن يضيعك لاحقا، والذي لم يعرف منه إلا الجود يستحيل عليه البخل.

ولذلك كان الحديث عن النعم وتعدادها ترياقا للآلام ودواء للأحزان، وفرق كبير بين من يقول للفقير:(أنت فقير)، وبين من يقول له:(أنت غني) بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان.

وفرق كبير بين من يجعل المرض نوعا من أنواع الصحة، وبين من يجعله مرتعا من مراتع الأسف، وقد قال ﷺ وهو يعاملنا كيف نتعامل مع المرضى:(إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل فإن ذلك لا يرد شيئا وهو يطيب بنفس المريض)[1]

وفرق كبير بين من يصور الموت بصورة الشبح المخيف، وبين من يصوره بصورة الحياة الجميلة السعيدة، بل يصور الموت بصورة الوهم الذي لا وجود له.

قلت: فما السر في قوله تعالى:﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى:٩ ــ ١١)؟، وما المنهج الذي نستفيده في تعليم الأمل؟

قال: هذه الآيات تضع أمام الأذهان المتشربة بمعاني السورة أسواقا للتجارة الرابحة، تشغلها عن آلامها، وترسم السعادة على شفاهها، فلا يرسم السعادة مثل التبشير بالسعادة.

سورة الشرح:

قلت: فما تحوي سورة الشرح من منهج تعليم السلام؟

قال: هذه السورة مثل السورة السابقة، جاء الخطاب فيها بصيغة المخاطب المفرد، لتناجي المتألم بمعانيها.

قلت: إن البعض يعتقد أنها خاصة برسول الله ﷺ.

قال: أصاب بعض الحق من قال ذلك.. وأخطأ كثيرا من الحق.

قلت: كيف.. أصاب أم أخطأ؟

قال: القرآن الكريم كلام الله لكل البشر، فلا يصح أن نقصره على بعض البشر.

قلت: ولكن الخطاب فيها بصيغة المفرد المخاطب، وهو لا يصدق إلا على رسول الله ﷺ، فعليه نزل جبريل عليه السلام.

قال: هي متوجهة في البدء ــ ككل القرآن الكريم لرسول الله ﷺ فهو منبع النور ومستقبله ــ ولكنها تنتشر منه لتتوجه لكل ضمير انشغل بما انشغل به رسول الله ﷺ، وعاش لما عاش له.

قلت: فبم تبشر؟

---

(١) الترمذي كتاب الطب باب رقم (٣٥) رقم الحديث (٢٠٨٧) وقال: غريب.

قال: تبشره بمعانيها.. وبحقائق الأمل.. وبرفع الإصر.. وباليسر بعد العسر.. ولذلك كانت ملجأ العارفين عند كل ضيق.

قلت: لقد ذكرتني ـــ يا معلم ـــ بما يروى عن بعض الصالحين، أنه ألح عليه الغم، وضيق الصدر، وتعذر الأمور، حتى كاد يقنط، فكان يوماً يمشي، وهو يقول:

أرى الموت لمن أمسى   على الذلّ له أصلح

فهتف به هاتف، يسمع صوته، ولا يرى شخصه، أو أري في النوم كأن قائلاً يقول:

ألا يا أيّها المرء   الذي الهمّ به برّح
إذا ضاق بك الأمر   ففكّر في أَلَمْ نَشْرَح
فإنّ العسر مقرون   بيسرين فلا تبرح

قال: فواصلت قراءتها في صلاتي، فشرح الله صدري، وأزال همي وكربي، وسهل أمري.

قال المعلم: ليس الشأن في أن تكرر قراءتها، وإنما الشأن في أن تعيش في حقائقها.

قلت: حقائقها تتجسد في حروفها.. ولا أعيها إلا بتكرارها.

قال: فإن كررتها بلسانك، فلا تغفل عن تكرارها بقلبك.

سورة الكوثر:

قلت: السورة الثالثة، هي سورة الكوثر، فما نستفيد منها من منهج تعليم الأمل؟

قال: هي تخاطب الوجدان بنعم الله الكثيرة.. ببحار النعم التي لا تتناهى.. وهي تصل بين المنعم والمنعم عليه.. فلا يصل بينهما مثل النعمة.

قلت: أتقصد منهج تعداد النعم.

قال: أجل.. فهو منهج يداوي الجراح ويرفع الهمم ويحقق الأمل.

***

من بحار هذه السور الثلاث وعلى هديها جاءت هذه المجموعة والتي اختار معلم السلام تسميتها بـــ (بوارق الأمل) لتمسح آهات القلب اليائس الحزين المتألم الذي عبر عنه الشاعر بقوله:

وشمت بوارق الآمال دهرا   فلم أظفر على ظمأ بمزن

فهي بوارق تنير الدروب، وتمسح الظلمات عن القلوب، وتمطر غيثا نافعا أراضي النفوس المطمئنة لتنبت من ريا غيثها كل ثمرة طيبة نامية زكية.

وهي تتكون من عشرة أجزاء، يخاطب كل جزء منها ألما من الآلام، ويمسح دمعة من

الدموع، وينشئ جبلا من جبال الهمة، وهذه الأجزاء هي:

١ ـــ **ابتسامة الأنين**: وهي هذه الرسالة، وهي رسالة تبث الأمل في القلوب المتألمة الحزينة، فتعالج كدورة الألم وما يبثه من صراع.

٢ ـــ **كنوز الفقراء**: وهي رسالة تحطم وهم الفقر، وتمسح الآلام عن الفقراء، وترفع عنهم الحواجز التي يضعونها لأنفسهم، أو يضعها لهم الواقع المنحرف.

٣ ـــ **مفاتيح المدائن**: وهي رسالة تعالج علل التخلف، أو الفقر الاجتماعي لتبين سنن الحضارة الربانية الممتلئة بالسلام.

٤ ـــ **حصون المستضعفين**: وهي رسالة تبشر المستضعفين الممتهنين ـــ الذين طغا عليهم الاستبداد، فواجهوه بصدورهم ـــ بالعزة والنصر والسلام، وتضع لهم من الوسائل الشرعية ما يقاومون به ضعفهم والاستبداد المسلط عليهم.

٥ ـــ **عيون الطهارة**: وهي رسالة تتوجه للمتألمين من أوزار المعاصي المتلطخين بأدناسها، ترشدهم للعيون التي يتطهرون بها من أوزار المعصية والإحباط.

٦ ـــ **كنوز في بطن الحوت**: وهي رسالة تتوجه للمكروبين الغارقين في بحار حوت الهموم والآلام لترسم لهم طريق النجاة الذي سلكه ذو النون، فنجاه الله من الغم.

٧ ـــ **سهام في كبد الخوف**: وهي رسالة تزرع الأمن في القلوب الخائفة، فلا سلام مع الخوف.

٨ ـــ **أسطورة الموت**: وهي رسالة تحول من الموت الذي يحزن له، ويتألم لمجيئه، لحظة من لحظات السعادة لا تختلف عن لحظة الولادة نفسها.

٩ ـــ **بحار النعم**: وهي رسالة تنطلق من قوله تعالى:﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ (ابراهيم: من الآية٣٤) ومن قوله تعالى:﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(الضحى:١١) لتبحث عن نعم الله، فتذكر القلوب بها، وهي تمسح بذلك آهات الحزانى الذين عشيت عيونهم عن رؤية أفضال الله، أو امتلأت صدورهم بالكآبة والسوداوية القاتلة.

١٠ ـــ **القوى العظمى**: وهي رسالة تتوجه للنفس الخاملة الكسولة المتألمة المنشغلة عن قواها بقوى غيرها، لترشدها إلى مراكز القوة فيها.

وهي الرسالة الفاصلة بين هذه المجموعة والمجموعة التالية المعلمة لدروس الترفع.

وبذلك تعالج هذه الرسائل العشر جميع ما يستعمر النفس من صنوف الآلام والهموم، فيقعد بها عن كل فضيلة، ويزج بها في كل رذيلة.

وكل رسالة منها رحلة في عالم من العوالم تبدأ من الظلام الذي يغمر النفس، لتبحث عبر بصيص النور عن مصدره، لتصل في الأخير إلى العالم الأفضل..

وهي تعتمد الرمز أسلوبا في الدلالة على ذلك.. ولكنها تخفف غموض الرمز بالشرح المفصل الذي يفهمه الكل، ويستفيد منه الكل.

وهي تستنير بالنصوص المقدسة من الكتاب والسنة، وتحاول فهمها واستنباط أنواع العلاج منها.

وهي قد تنتقد الواقع نقدا مريرا.. ولكنه نقد بناء.. فهي لا تدعو لهدم واقع ترى عدم صحته إلا بوضع واقع بديل ينوب عنه ويخلفه.

وهي في الأخير طروحات قد تلقى القبول، وقد تلقى الرفض، والسلام يستدعي تقبل الآراء المختلفة.. فلذلك نفرح بكل تصويب، ونتتصح لكل نصيحة، ونعتذر لمن نخالفه بأنا لا نخالفه لأنا نخالفه.. ولكن لأن ما معنا من النور دلنا على تلك المخالفة.. وقد يكون معه من النور ما دله على صحة مخالفته لنا.

ونحن لا ندعوه لترك الحق المتيقن الذي يعرفه للحق المتوهم الذي يعتقده عندنا.. وندعوه ــ كذلك ــ لأن يعاملنا كما نعامله، فلا يلزمنا بما ألزم به نفسه، فالحقيقة قد يتسع صدرها للجميع.

مستشفى السلام

جاءني معلم السلام، وقد رآني أشكو من بعض الآلام، فقال: هلم بنا إلى مستشفى السلام، لتعالج أدواءك، وتبتسم لأنينك.

قلت: وهل للسلام مستشفى.. وبماذا يعالج؟

قال: لا مستشفى بلا سلام.. وكل مستشفى يخلو من السلام هو بيت للداء لا بيت للدواء..

قلت: المستشفيات ــ يا معلم ــ خاضعة لقوانين معينة لا تعدوها، فهي تعالج العلل بما توصلت إليه الكيمياء الحديثة من تركيبات.

قال: هناك كيمياؤكم، وهي قد تداوي داء، وتعجز عن أدواء، وتنشر أدواء.. وهناك كيمياء السلام.. وهي دواء لكل علة، تنشر العافية المضمخة بعطر السكينة.

قلت: فأين مستشفى السلام؟ ومن أطباؤه؟ وكيف يعالج؟

قال: هذه رحلتنا في هذه الرسالة.

قلت: هل سنرحل من هنا؟ وفي أي طائرة؟ وليس لي جواز سفر.

قال: لا تحتاج إلى طائرة.. أما جواز سفرك فهو الإرادة، ألم تعلم أن الإرادة هي مفتاح لكل باب.. ونافذة لكل مغلق؟

قلت: عرفت الإرادة.. ولكني لم أر في حياتي شخصا يمتطي طائرة تسمى (الإرادة) ليرحل بها.

قال: من لم يرحل بطائرة الإرادة، فهو لم يفارق مكانه.

قلت: لا ــ يا معلم ــ هم يطيرون في الأجواء، فيقطعون البحار السبعة.

قال: ولكنهم لم يغادروا الأرض.

قلت: لا ــ يا معلم ــ لقد غادروها.. ورحلوا إلى القمر، ويوشك أن يرحلوا إلى المريخ..

قال: وما القمر؟.. وما المريخ؟.. كلها حجارة كحجارة جبالكم وقلوبكم.

قلت: فكيف نرحل؟

قال: قبل أن ترحل انظر إلى أعماقك التي تمتلئ بهذا الأنين الذي ينشره الألم، وقل لي: ماذا ترى؟

قلت: أنزل إلى أعماقي ؟!

قال: نعم.. لن ترحل إلا بعد أن تنزل.. ولن تنبت إلا بعد أن تدفن.. ولن تنتج إلا بعد أن

تغرس.. ولن يقوم بنيانك إلا إذا حفرت أساسك.

قلت: فعن أي لؤلؤة أبحث في أعماقي؟

قال: لا تحتاج إلى اللآلئ، فهي حجارة كالحجارة، بل ابحث عن الظلام لتطفئه بالنور، وابحث عن الحراب التي توجهها إلى ربك لتكسرها باليقين.

نزلت إلى أعماقي، فرأيت أناتي حرابا متوجهة إلى السماء، تقول كل أنة بلسان فصيح:(لم يا رب تتفنن في إيلامي؟.. لم تملؤني بالحزن؟.. لم تملأ مشاعري بالأسى؟.. لم تغمرني بالإحباط؟)

صحت خائفا في وجهها: كفي يا أناتي.. أتدري من تخاطبين.. إنه الذي ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(الانبياء:٢٣)

كانت الأنات تردد توشيحاتها.. ولا تبالي بي، صحت: يا معلم.. أنقذني من هذه الأنات الكافرة.. فهي تريد أن تزج بي في هاوية جهنم.. إنها لا تستحي من الله.. إنها لا تخجل من ضعفها.

قال المعلم: أناتك هي أنت.. فأنت تختفي في ظل أناتك.

قلت: ولكني أقاومها.

قال: تقاومها بلسانك، وهو مجرد جارحة من جوارحك تتقن النفاق.. أما حقيقتك، فتصيح بما صاحت به أناتك..

قلت: فكيف أنقذ حقيقتي من هذا الانحدار الذي توقعني فيه أناتي؟

قال: هيا نرحل إلى مستشفى السلام لتنقذ روحك، وتنقذ معها حقيقتك، وعسى الله أن يهبك ما تقي به جسدك، فالله شكور حليم.

قلت: هيا نرحل..

قال: امتط إرادتك.. وسر معي.

امتطيت الإرادة التي بثها في الألم، فإذا بي، وفي أقل من طرفة عين أرى بنيانا عجيبا.. لست أدري هل نبت كما تنبت الأزهار، أم شيد كما تشيد القصور.. كان يشبه زهرة من الأزهار الجميلة.. لا تفوح منه إلا عطور الشفاء.

قلت للمعلم: أهذا مستشفى، أم فندق؟

قال: بل مستشفى.

قلت: ولكني لا أشم فيه رائحة المرض.

قال: هو مستشفى، فكيف تشم فيه روائح المرض؟

قلت: المستشفيات عندنا لها روائح مميزة.. تتقزز منها أنوف الأصحاء.

قال: تلك مستشفياتكم التي تتعامل معكم كما تتعامل مع الآلات.. لا الإنسان.

قلت: فما سر هذه العطور الزكية؟

قال: هي عطور الحقائق، فمستشفى السلام لا يعطيك وصفات لتشتري بها أدوية تعالج بها الخلل الذي أصاب جسدك، وإنما يعطيك الوصفات التي تعالج بها روحك التي تسببت في الخلل الذي حصل لجسدك.

قلت: أهي تعالج المنبع؟

قال: هي لا تتقن فنون الطلاء التي تتقنونها.

قلت: فكم قسما في هذا المستشفى؟

قال: أربعة أقسام.. سنتجول فيها قسما قسما لننهل منها حقائق السلام.

قلت: فما هي؟

قال: حصون الروح، وحصون الجسد، والأدوية التي من السماء، والأدوية التي من الأرض.

قلت: فما حصون الروح؟

قال: هي الحصون التي تحتمي بها الروح من ألم الداء.. فتسالم الله في بلائه.. وهي أربعة.. وهي التي يكون منها المنطلق.

قلت: فما هي؟

قال: حصن الغيبة، وحصن الأمل، وحصن الاستعانة، وحصن الفرار.

قلت: فما الغيبة؟

قال: هي الغفلة عن الآلام بالحضور مع الله، أو بالرضى عن الله، أو بالسكون لمقادير الله، أو بالنظر في نعم الله.

قلت: فما الأمل؟

قال: انتظار الفرج من الله، والتعرف عليه ليمتلئ قلبك بالأمل الصادق.

قلت: فما الاستعانة؟

قال: هي الاستعانة بالله في رفع البلاء، أو في تلطيفه.

قلت: فما الفرار؟

قال: الفرار من شياطين الروح الذين ينفخون آلام اليأس والحزن.

قلت: فما حصون الجسد؟

قال: هي الحصون التي يحتمي بها الجسد من آلام الأدواء.

قلت: فما هي؟

قال: هي أربع: حصن الاستقامة، وحصن الوقاية، وحصن القوة، وحصن التواصل.

قلت: فما الأدوية التي من السماء؟

قال: هي الأدوية المباركة التي ورد في النصوص بيان فضلها والحث على التداوي بها.. وأهل هذا المستشفى يبدأون بها قبل غيرها.

قلت: فهي أربعة كذلك؟

قال: أجل.. مراصد البركة، ومنازلها، ومخازنها، ومشافيها.

قلت: فما الأدوية التي من الأرض؟

قال: هي الأدوية التي عمر الله بها الأرض.. وهدى لها الخلق.

قلت: فما هي؟

قال: هي مطاعم الشفاء، ومزارعه، ومصانعه، ومناسجه.

قلت: هذه أسماء غريبة غامضة.. فهلا أنبأتني من أسرارها؟

قال: سترحل إليها.. وتتعلم من أهلها.

قلت: فلم كانت هذه الأقسام أربعة؟

قال: هذه هي الأسس الأربع في التعامل مع البلاء، هي الأسس الصحيحة التي دلت عليها النصوص، وهي التي عاشها أهل الله في صحبتهم لما يترل عليهم من أمطار البلاء.

لكن سوء الفهم تطرق لبعض هذه القواعد، فانخرم عقد نظامها:

فخرج الغافلون من الثورة على البلاء إلى الثورة على المبتلي، فحاربوا الله وخاصموه.

وانشغل آخرون بالبلاء عن المبتلي، فحجبوا بحياة البلاء التي أصابت بعض جوارحهم عن العافية التي تنعم بها كل لطائفهم.

واختار آخرون أن يغفلوا بالمبتلي عن البلاء، لكن سوء الفهم طرق لهم أيضا، فاعتبروا الثورة على البلاء ثورة على المبتلي، ومنازعة الأقدار بالأقدار محاربة لأقدار الله، فحجب سوء فهمهم عن مقاصد أهل الله، وأساء المعرفة بالله.

قلت: فما علامة الشفاء التي تسمح للمريض بالخروج من المستشفى؟

قال: الابتسامة.. ابتسامة الأنين.

قلت: ألا تجرون له أي تحاليل للتأكد من سلامته؟

قال: أما تحاليلكم.. فلا نجريها.. ولكن لنا تحاليلنا الخاصة.

قلت: من أطباؤكم؟

قال: لكل قسم أطباؤه، وسنمر عليهم، ونتعرف بهم، ونستفيد منهم.

قلت: فما أنواع الأمراض التي يستقبلها هذا المستشفى؟

قال: كل الأمراض أمراض.. وكل الأنات أنات.

قلت: لم تفهمني.. نحن لدينا مستشفيات تخصصية.

قال: أنتم تتعاملون مع الجسد المركب.. ونحن نتعامل مع الحقيقة الواحدة، فلذلك لم نحتج لما احتجتم إليه.

قلت: فما نسبة الشفاء في هذا المستشفى؟

قال: سمعتكم تعبرون عن الكمال بالمائة.

ضحكت، وقلت: تقصد مائة بالمائة.

قال: إن أردت الشفاء التام لكل من يدخل، فهو تعبير صحيح.

قلت: فكم من المال يدفع من يدخل المستشفى؟

قال: ما نصحك من طلب منك مالك، ألا تعلم أن العفاف شرط من شروط السلام.

قلت: فمن أين يعيش أطباء هذا المستشفى؟

قال: من عيون الحكمة النابعة من بحار السلام.

قلت: اعذرني.. لقد نسيت.. تصورت نفسي أجري حوارا مع مستشفى من مستشفياتنا.

***

رأيت أقواما مختلفين يدخلون هذا المستشفى، والكدورات تملأ نفوسهم، والظلمة تغمر وجوههم، قلت: من هؤلاء؟

قال: أنت.

قلت: كيف.. فأنا هو أنا.

قال: كلهم رأى في أعماقه ما رأيت في أعماقك، فجاء يبحث عن شفاء.

***

رأيت آخرين يخرجون مبتسمين تشرق أسارير وجوههم بالنور، وتسري في أوصالهم العافية، قلت: من هؤلاء؟

قال: هؤلاء الذين أذن لهم بالخروج من المستشفى، بعد أن امتلأت أرواحهم بحقائق السلام.
قلت: أطال مكوثهم؟
قال: منهم من يمكث ثانية.. ومنهم من يظل عشر سنين.. ومنهم من يموت في المستشفى.
قلت: فلماذا تفاوتوا.. ألا يقدم لهم علاج واحد؟
قال: تفاوتوا بتفاوت الهمم.. فمنهم من أنس وسكن، ولم يرحل.. ومنهم من ارتفعت همته.. فراح يبحث عن دور السلام الأخرى ليصعد من خلالها إلى الله.
قلت: فما تنصحني حتى لا أقع فيما وقعوا فيه؟
قال: بالرحلة الدائمة والعبور المستمر.. ضع بين عينيك دائما:﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾(لنجم:٤٢)

***

هذه الرسالة من رسائل السلام تتوجه إلى الأنات المتصاعدة من الحناجر المتألمة، والتي قد تحمل في طي موجاتها بعض الصراع الذي تتوجه به النفس المكفنة في كفن الأنا إلى من لا تفيض الرحمة إلا منه.

وفيها نتنسم عطر أنين الأولياء، المضمخ بروائح الابتسامة العذبة التي تنشر السلام في النفس، ومع الله، ومع أقدار الله.

وهي تلخيص لما دار في تلك الرحلة العجيبة والجميلة والمفيدة التي قادني فيها معلم السلام، لأتعلم ابتسامة الأنين.

وقد كتبت أحداثها كما حدثت بدقيقها وجليلها، وأقرني معلم السلام على ذلك، وفي إقراره ما يكفي لطمأنيتي.

أولا ــ حصن الغيبة

دخلنا الحصن الأول من حصون الروح.. كان النور يشع فيه من كل النواحي.. وهو نور هادئ مريح تكاد النفس تغيب في جماله.. وكان النور يكتب بإشعاعاته عبارات حاولت قراءتها بعيني، فلم أفلح، قلت لمعلم السلام: ماذا تكتب هذه الأنوار؟

قال: اسمعها ببصيرتك.. ولا تقرأها بعينك.

أصغيت بأذني بصيرتي، فسمعت صوتا حانيا يتوجه إلي قائلا: لا تحزن إن ألمت بك الأدواء، وطافت بجسمك السموم، وانتهض جيش الشيطان ليملأ قلبك هما وحزنا.

لا تحزن.. واجعل من أدواء جسمك أدوية لقلبك، وحول من تثاقل ذاتك الطينية سموا لذاتك الروحية.

قلت: يا معلم.. ما هذا الصوت؟

قال: هذا هو صوت أطباء البصيرة.. فهم يخاطبون أعماقك لا جوارحك.

قلت: أكل أطباء هذ المستشفى بهذه الصفة؟

قال: لا.. لكل قسم طبيعته الخاصة.. أما في هذا القسم، فلن تسمع إلا بالبصيرة.. ولن ترى إلا بالبصيرة.. أليس هم قسم (الغيبة)

قلت: فإن هذا الصوت يكلفني ما لا يطيق بشر فعله، فكيف أترفع عن ذاتي الطينية، وأنا حبيسها، وكيف أجعل من الأدواء دواء.. علمني، فإني لا أكاد أفهم شيئا؟

قال: سر معي، ولا تسأل.

نهضت لأسير، فقال: إلى أين؟

قلت: ألم تطلب مني أن نسير؟

قال: ألا سير إلا بالأرجل؟

قلت: هذا ما نعرفه.

قال: ما وصل من سار برجله، ولا تحقق من أتعب قدميه؟

قلت: فبم أسير؟

قال: بك.

قلت: وهل رجلاي إلا أنا؟

قال: رجلاك منك لا أنت.

قلت: فها أنذا بين يديك سر بي حيث شئت.

قال: لا يمكن لأحد أن يسير بأحد، كل واحد يسير بنفسه.
قلت: إلى أين؟
قال: إلى رياض الأولياء.
قلت: لماذا؟
قال: ليجيبوا عن سؤالك.
قلت: أي سؤال، فقد نسيت؟
قال: أنت تبحث عن الترفع عن البلاء، والترفع سيما الصالحين، ولذلك سنبحث في سيرهم لنرى ترفعهم وابتسامتهم لأنينهم.
قلت: أنا أسمعك، فارو لي أخبارهم مع الأنين.
قال: تسمعها بصيرتك من أفواه أولياء هذا القسم، فأصخ سمعها.
أصخت سمع بصيرتي، فسمعت صوتا جميلا يخاطبني قائلا: كن ـــ أيها المتألم الغارق في أوحال الأنين ـــ كامرأة فتح الموصلي، حين عثرت، وانقطع ظفرها، فضحكت، فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبـــي مرارة وجعه.
قال معلم السلام: هذه ابتسامة الثواب.. وهي سلوى الفقراء إلى فضل الله.
سمعت صوتا آخر يقول: كن كعروة بن الزبـــير، قطعت رجله من ركبته من أكلة خرجت بها، ثم قال: الحمد لله الذي أخذ مني واحدة، ولئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت، ثم لم يدع ورده تلك الليلة.
قلت: ما أجمل هذا ! صوت من هذا؟
قال: هذا صوت التسليم والرضى الممزوج بالشكر.
صاح صوت آخر: كن كعمران بن الحصين، استسقى بطنه، فبقي ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد حتى نقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته، فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء فجعل يبكي لما يراه من حاله، فقال: لمٍ تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحالة العظيمة قال: لا تبك فإنّ أحبه إلى الله تعالى أحبه إليَّ، ثم قال له لما رأى جزعه: أحدّثك شيئاً لعل الله أن ينفعك به، واكتم عليَّ حتى أموت، إنّ الملائكة تزورني فآنس بها وتسلم علي فأسمع تسليمها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة.
قلت: الله ! ما أعظم رحمة الله بأوليائه !
قال: هذا صوت السلوى بأهل الله.

صاح صوت آخر: كن كسويد بن متعبة، فقد دخل إليه بعض الصالحين يعوده، قال: فرأينا ثوباً ملقى فما ظننا أن تحته شيئاً حتى كشف، فقالت له امرأته: أهلي فداؤك ما نطعمك. ما نسقيك؟ فقال: طالت الضجعة ودبرت الحراقيف وأصبحت نضواً لا أطعم طعاماً ولا أسيغ شراباً منذ كذا، فذكر أياماً، وما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر.

قلت: هذا التسليم بعينه.. هذا الرضى المحفوف بالسعادة.

صاح صوت آخر: كن كمحمد بن واسع، فقد نظر رجل إلى قرحة في رجله، فقال: إني لأرحمك من هذه القرحة، فقال: إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج في عيني.

قلت: هذا الشكر..

قال: وهو سر من أسرار الابتسامة.

صاح صوت آخر: كن كذلك الذي جمع أصناف البلاء، قال بشر: قصدت عبادان في بدايتي، فإذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه، فرفعت رأسه فوضعته في حجري وأنا أردد الكلام، فلما أفاق قال: من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي، لو قطعني إرباً إرباً ما ازددت له إلا حباً؟ قال بشر: فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين ربه فأنكرتها.

قلت: هذا الحب..

قال: وهو منبع من منابع السكينة، ومخدر من مخدرات الألم.

صاح صوت آخر: كن كالذي عبد الله بابتسامة الأنين، فجعله الله أعبد أهل زمانه، يروى أنّ يونس عليه السلام قال لجبريل: دلني على أعبد أهل الأرض. فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره، فسمعه وهو يقول: إلهي متعتني بهما ما شئت أنت، وسلبتني ما شئت أنت، وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول.

قلت: هذا صوت الأمل.

قال: وهو صوت العارفين بالله المحسنين الظن به.. وهو صوت السعادة الطامحة إلى المعالي.

صاح صوت آخر، كأنه يجمع الأصوات جميعا: كن مثلهم، فابتسموا في الوقت الذي أن فيه غيرهم، وفرحوا في الوقت الذي حزن فيه غيرهم، وحمدوا الله في الوقت الذي ضجر فيه غيرهم، فنالوا الرضى، وفازوا بالجنتين جميعا، جنة الدنيا وجنة الآخرة.

***

قلت لمعلم السلام: فما كان حاديهم في ذلك.. من فتر ثغورهم بالابتسامة العذبة، وخدر آلامهم من غير ترياق؟

قال: بلسمان شافيان.

قلت: فما هما؟

قال: أما الأول فقد غابوا بالله عما سواه، حبا له، ورضى به، وسكونا لمقاديره.

قلت: والثاني؟

قال: نعم الله التي ينطوي عليها البلاء، فالمبتلى عامل عند الله، وللعامل حظ من اسم الله (الشكور) يناله لا محالة، فيغيب بنواله عن كل ألم.

قلت: فأين نجد هذين البلسمين؟

قال: لكل منهما قاعة علاجه الخاصة.. فهلم إليهما.

١ ــ الغيبة بالله

دخلت القاعة الأولى، وهي أنوار محضة لا يمكن وصفها، وإذا لافتة مكتوب عليه قوله:﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾(يوسف: من الآية٣١)

وسمعت صوتا حانيا قويا يقول ــ وكأنه يخاطب جميع مرضى العالم ــ:(أول ما يكسر سورة الأنين الذي قد يتخذه الشيطان رمحا تحارب به ربك هو أن تغيب عن الأنين برب الأنين.

فتتخذ من هذا الذي أراد الشيطان أن يجعله نصبا ليستل عقلك وقلبك وروحك، ويضمك إلى حزبه، معراجا تعرجا به إلى ربك، وسلما ترتقي به إلى سموات لم تحلم بها في حال طمأنينة جسدك ورخائه)

قلت لمعلم السلام: ما هذه القاعة؟

قال: هذه القاعة الغيبة بالله، وهي القاعة التي يموت فيها الألم انشغالا بالله.

قلت: فما تلك الآية، وما علاقتها بهذه القاعة؟

قال: ما تقول الآية؟

قلت: هؤلاء نسوة همن في جمال يوسف، فقطعن أيديهن لفرط ذهولهن، ومع ذلك لم يشعرن بما حصل في أيديهن من الألم[١].

---

(١) وقد أثبت العلم الحديث هذا، ففي دراسة موثقة للدكتورة لما أبو كريشة تحت عنوان « إشارة قرآنية إلى ظاهرة شد الانتباه في تقليل الشعور بالألم » انطلقت فيها من الآية التي ذكرناها، ذكرت فيها أنه تم إجراء تجربة استخدام العلاج بشد الانتباه برؤية مناظر خلابة من الطبيعة وسماع شريط يحتوي على أصوات رائعة من الطبيعة في التخفيف من الآلام أثناء عملية منظار الشعب الهوائية وذلك بالإضافة للعلاج المعتاد. وقورنت هذه المجموعة من المرضى بمجموعة أخرى ضابطة لم تتلق العلاج الإضافي بجذب الانتباه (تغيير التركيز الإدراكي).

وخلص هذا البحث الذي تم عمله في المستشفى التعليمي (جون هوبكينز) في بالتيمور أن العلاج بشد الانتباه مع العلاج التقليدي أدى إلى تقليص الشعور بالألم بصورة ذات دلالة إحصائية، وأوصى البحث بأن يقوم الأطباء باستخدام الإجراءات الطبيعية بالإضافة إلى المسكنات المعتادة.

كما نشر موقع [BBC] على شبكة الإنترنت هذا البحث تحت عنوان [العودة إلى الطبيعة لتخفيف الألم]وقد ذيل هذا بقول الطبيب جيل هانكوك:« نحن نقوم بتعليم مرضانا الاسترخاء باستخدام المشاهد المناظر الخلابة والموسيقى الرائعة و هذا جزء أساسي في عملنا حيث أنه ثبت أن المناظر الخلابة تؤدي إلى إزالة التوتر النفسي و البدني اللذين يسببان الألم »

وحول تساؤل عن كيفية عمل شد الانتباه على التخفيف من الإحساس بالألم؟

قال: فكيف لو رأين جمال رب يوسف، وكيف لو غرقن في بحار حبه المقدسة؟
ثم التفت إلي، وقال: أتدري ما قيمة غيبتك عن الأنين؟

قلت: أجل لقد قال بديع الزمان: (كلــما استعظمت الــمصائب الــمادية عظُمت، وكلــما استصغرتَها صغرت)[1]، وأعظم احتقار واستصغار هو عدم الالتفات إليها، أو الاهتمام بها، كما لا يهتم بكل صغير حقير.

ويضرب الإمام بديع الزمان مثلا على ذلك بقوله:(كلما اهتم الانسان بــما يتراءى له من وهم ليلاً يضخــم ذلك في نظره، بينــما إذا أهملــه يتلاشى، وكلــما تعرض الانسان لوكر الزنابير ازداد هجومها وإذا أهملــها تفرقت)[2]

ويطبق هذا المثل على البلاء، فيقول:(فالمصائب المادية كذلك كلما تعاظمها الانسان واهتــم بها وقلق عليها تسربت من الجسد نافذة في القلب ومستقرة فيه، وعندها تتنامى مصيبة معنوية في القلب وتكون ركيزة للمادية منها فتستمر الاخيرة وتطول. ولكن متى ما أزال الإنسان القلق والوهم من جذوره بالرضا بقضاء الله، وبالتوكل على رحــمته تضمحل المصيبة المادية تدريجياً وتذهب، كالشجرة التي تــموت وتــجف أوراقها بانقطاع جذورها)

قال: صدقت، وقد سمعته، وهو يصرح بالدعوة إلى ما دعا إليه الأولياء من إحلال الابتسامة محل الأنين، فيقول:(نعم..! إن الإنسان مثلــما يخفف حدَّة خصمه باستقبالــه بالبشر والابتسامة، فتتضاءل سَورة العداوة وتنطفىء نار الــخصومة، بل قد تنقلب صداقةً ومصالحة، كذلك الأمر في استقبال البلاء بالتوكل على القدير يذهبُ أثره)[3]

قلت: هل سمعته بأذنك؟

قال: دعك من هذا.. وقل لي: ما تشعر؟

قلت: لا أكتمك ــ يا معلم ــ أني لا تزال في روائح الاعتراض المنتنة.

قال: فما تقول لك؟

قلت: تقول لي:(مرضي خطير، ودائي مستعص، والآلام تفتك بي:

أجابت أنه باستخدام الإشعاعات الوظيفية للمخ تلك التي تظهر الارتواء الدماغي والتمثيل الغذائي للخلايا العصبية ثبت أنه أثناء استخدام جذب الانتباه يحدث انخفاض في مستوى نشاط أماكن معينة في المخ، تلك الأماكن التي يتم فيها استقبال الإحساس بالألم مثل منطقة المهاد،القشرة الحسية والتلفيف الحزامي.

(١) اللمعة الثانية: ١٧.

(٢) اللمعة الثانية: ١٧.

(٣) اللمعة الثانية – ص: ١٧.

صبت علي مصائب لوأنها صبت على الأيام صرن لياليا

فأني لي أن أنشغل، وكل عرق في نبض، وكل خلية مني تتألم.. وهل ينشغل عن النار من اشتمل عليه لهيبها، فلم يدع له متنفسا؟)

قال: فاسمع لما يصيح به الربانيون العازفون على أوتار الحقيقة مخبرين عن الترياق الفعال لهذا الألم المكنون.

سمعت صوتا يقول: لقد أخبر السري السقطي عن القدرة العجيبة التي يتحملها المنشغل بالله، لما سأله الجنيد: هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال: لا، قال: وإن ضرب بالسيف قال:(نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة، ضربة على ضربة)

وسمعت صوتا آخر يقول: وبين يحيى بن معاذ الرازي الحال الذي دعا إلى هذا الفناء عن الذات، والانشغال بالله، فقال ـ مستعملا أقيسة الفقهاء ـ: (إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم، فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله؟ إذا لاحظت جلاله هابت وإذا لاحظت جماله تاهت)

قال لي معلم السلام: أتدري ما سبب بطلان إحساس المحبين بالآلام؟

قلت: مثل الغزالي ذلك بالرجل المحارب، فإنه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه الجراح، وهو لا يحس بألم ذلك لشغل قلبه، (بل الذي يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كآلة يتألم به، فإن كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به)[1]

ثم بين علة هذه الحالة وقانونها الذي لا يختص بالمحبين لله، فقال:(وكل ذلك لأنّ القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه، فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتمّ له لولا عشقه، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه. هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه؟)

وقد ذكر الغزالي الأمثلة الواقعية الكثيرة على هذا، فذكر أن هناك من يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمرّ على ابنه مثلاً فلا يكلمه.

وذكر عن بعضهم يجري عليه ذلك أنه قال لمن عاتبه: إذا مررت بي فحركني.

وذكر عن عبد الواحد بن زيد أنه قيل له: هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق؟ فقال: ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريعاً حتى دخل عتبة

---

(١) الإحياء: ٣٤٧/٤.

الغلام، فقال له عبد الواحد بن زيد: من أين جئت يا عتبة؟ فقال من موضع كذا ـــ وكان طريقه علىالسوق ـــ فقال: من لقيت في الطريق؟ فقال: ما رأيت أحداً.

وحكى عن بعضهم أنه قال: مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيداً منهم، فتقدّمت إليه فأردت أن أكلمه فقال: ذكر الله تعالى أشهى فقلت: أنت وحدك؟ فقال: معي ربـــي وملكاي فقلت: من سبق من هؤلاء؟ فقال: من غفر الله له، فقلت: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى وقال: أكثر خلقك شاغل عنك.

ودخل الشبلي على أبـــي الحسين النووي وهو معتكف فوجده ساكناً حسن الاجتماع لا يتحرّك من ظاهره شيء فقال له: من أين أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من سنور كانت لنا، فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الحجر لا تتحرّك لها شعرة.

وقال أبو عبد الله بن خفيف، خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبـــي علي الروذباري فقال لي عيسى بن يونس المصري: إن في صور شاباً وكهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة، فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما؟ فدخلت صوراً وأنا جائع عطشان وفي وسطي خرقة وليس على كتفي شيء، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني، فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب، فقلت: نشدتكما بالله إلا رددتما عليّ السلام فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلي وقال: يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقي من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير، يا ابن خفيف، ما أقل شغلك حتى تتفرّغ إلى لقائنا؛ قال: فأخذ بكليتي ثم طأطأ رأسه في المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعي وعطشي وعنائي، فلما كان وقت العصر قلت: عظني فرفع رأسه إليَّ وقال: يا ابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة، فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئاً ولا شربا، فلما كان اليوم الثالث قلت في سري: أحلفهما أن يعظاني لعلي أن أنتفع بعظتهما، فرفع الشاب رأسه وقال لي: يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك، يعظك بلسان قلبه، ولا يعظك بلسان قوله، والسلام؛ قم عنا فهذه درجة المراقبـــين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك.

قال معلم السلام: فإذا كان الحب والعشق من أعظم الشواغل، وكان ذلك في ألم يسير بسبب حب خفيف، فكيف يكون الأمر لو تصوّر في الألم العظيم بالحب العظيم.

قلت: لقد بين بشر بن الحارث في موعظة بليغة صادفت محلا فارغا فتمكنت، كيف يتمكن المحب من قهر كل ألوان البلاء، فقال يحكي عن نفسه: مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في

شرقية بغداد و لم يتكلم ثم حمل إلى الحبس، فتبعته فقلت له: لم ضربت؟ فقال: لأني عاشق، فقلت له: و لم سكت؟ قال:(لأنّ معشوقي كان بحذائي ينظر إليّ، فقلت: فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر قال: فزعق زعقة خرّ ميتاً.

قال: أتدري كيف يرى الربانيون المنشغل بذاته عن ربه، أو الذين يعبدون الله على حرف، فلم يعبروا من عبادته إلى معرفته، و لم يخرجوا من أنفسهم إليه.

قلت: كيف يرونه؟

قال: يروهم قاصرين محاطين بأنواع الشوائب، وقد قيل لعبد الواحد بن زيد: هاهنا رجل قد تعبد خمسين سنة، فقصده فقال له: يا حبـــيب أخبرني عنك هل قنعت به؟ قال: لا، قال: أنست به؟ قال: لا، قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا، قال: فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة؟ قال: نعم، قال: لولا أني أستحي منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة.

قلت: ما مراده؟

قال: مراده أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب، وإنما أنت في طبقات أصحاب اليمين، لأن مزيدك منه في أعمال الجوارح[1].

قلت: هذا كلام الغزالي في الإحياء.

قال: وهو كلام كل عارف، وكل سامع ببصيرته.

التفت لأسأله عن سر ذلك، فانصرف عني، أو انصرفت عنه.

***

تأملت ما قاله بعد انصرافه، فإذا بي أجد هذا العلاج لا يختص بهذا الجانب فقط، بل إن له علاقة شديدة بكل ما يرتبط بالسلوك من جوانب.

فالمنشغل عن نفسه ــ مثلا ــ بنظر الناس، أو أعرافهم، أو رؤاهم مستعبد للناس، مملوك للمجتمع، ينصرف عن الحق علما وفهما وسلوكا وحياة بقدر انصراف المجتمع.

ولهذا اعتبر الغزالي من (شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه وتحسين اعتقادهم فيه) مغرورا، لأنه (لو عرف الله حق المعرفة علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيئاً؛ وأن ضرره ونفعه بـــيد الله ولا نافع ولا ضار سواه، وأن من طلب رضا الناس ومحبتهم بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، بل رضا الناس غاية لا تنال، فرضا الله أولى بالطلب)[2]

---

(١) الإحياء: ٤/٣٥٠.

(٢) الإحياء: ٤/٣٥٠.

قال لي صائحا من أعماقي: ولهذا كان من سنن الصالحين الانشغال بالله عن الناس، كانشغالهم به عن النفس، قال الشافعي ليونس بن عبد الأعلى: والله ما أقول لك إلا نصحاً إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبـــيل، فانظر ماذا يصلحك فافعله؟

ونظر سهل إلى رجل من أصحابه فقال له: اعمل كذا وكذا ـــ لشيء أمره به ـــ فقال: يا أستاذ لا أقدر عليه لأجل الناس، فالتفت إلى أصحابه وقال: لا ينال عبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين؛ عبد تسقط الناس من عينه فلا يرى في الدنيا إلا خالقه، وأن أحداً لا يقدر على أن يضره ولا ينفعه. وعبد سقطت نفسه عن قلبه فلا يبالي بأي حال يرونه.

وقبل ذلك قيل للحسن: يا أبا سعيد إن قوماً يحضرون مجلسك ليس بغيتهم إلا تتبع سقطات كلامك وتعنيتك بالسؤال؛ فتبسم ﷺ وقال للقائل:(هوّن على نفسك، فإني حدثت نفسي بسكنى الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت، وما حدثت نفسي بالسلامة من الناس لأني قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحيـــيهم ومميتهم لم يسلم منهم)

وكيف لا يكون هذا منطق المؤمنين إرضاء لله وقناعة به وانشغالا بطلب رضاه ومدحه عن كل رضا، وغيرهم من الرعاع يقول:

مَنْ رَاقبَ النَّاس ماتَ غمًّا وفاز باللذة الجسورُ

***

قلت له، وقد خشيت أن يساء فهم كلام الأولياء: لكن ـــ يا معلم ـــ قد يتصور قومي أن مراد الأولياء بالانشغال عن البلاء عدم مواجهته والثورة عليه.

قال: لا.. أخطأوا في زعمهم، فإن مرادهم عدم الاستغراق في البلاء، والغفلة عن المصالح الكثيرة التي قد يفوتها ذلك الانشغال، وأهمها ترك الرسالة التي كلف بها الإنسان لأجل ما حصل لمطيته من عطب.

قلت: فهل تضرب لي عن ذلك مثالا أشرح لهم به مقاصد الأولياء؟

قال: مثل ذلك مثل من كلف بمهمة خطيرة يتوقف عليها مصير حياته جميعا، فحصل لسيارته في الطريق ما منعها من السير السليم، فماذا يفعل؟

قلت: هو بين أمرين لا ثالث لهما:

إما أن يتوقف مشتغلا بإصلاحها، منشغلا عن المهمة الخطيرة التي كلف بها، ولو أدى ذلك إلى فناء عمره في إصلاحها.

وإما أن ينظر إلى مدى استعدادها للإصلاح، فإن أطاق إصلاحها أصلحها، لأنها ستختصر له الكثير من مشاق الطريق، فإن أبت الإصلاح تركها، واعتمد على وسائل أخرى يصل بها إلى تحقيق مهمته.

قال: وهكذا حال المنشغل عن بلائه والمنشغل به، فالمنشغل به ضيع مصلحتين: سيارته التي قد لا يفيده إصلاحها، ومهمته التي لا تساوي معها سيارته شيئا.

أما المنشغل عنها، فإنه وإن ضيع سيارته، فقد حفظ مهمته، بل قد يرزق بالسعي ما يعوضه عما فاته.

قلت: ولعل هناك ثمارا أخرى جليلة لما ذكروه، فالأطباء ـــ اليوم، كما كانوا قبل اليوم ـــ ينصحون بالانشغال عن الداء، ويعتبرونه أسلوبا حكيما من أساليب الشفاء.

فخطر أكثر الأمراض هو ما تسببه لصاحبها من أنواع الإزعاج، وهو ما يؤثر بعد ذلك على الصحة، فإذا ما انشغل المريض عن مرضه بأي شاغل كان ذلك علاجه أو مقدمة لعلاجه.

قال لي: لقد ذكرتني بالشافعي رحمه الله.

ثم سكت مشدوها لحظة، كمن يتذكر قريبا طال غيابه عنه، فقلت: ما فعل الشافعي؟

قال: لقد آخى محمد بن عبد الحكم وكان يقربه ويقبل عليه، فاعتل محمد فعاده الشافعي ـــ رضي الله عنه ـــ فقال:

مَرِضَ الحبـــيبُ فَعُدتُهُ   فمَرَضْتُ مِنْ حَذري عليهِ
وأَتى الحبـــيبُ يعودني   فَبَرِئْتُ مِنْ نَظَري إليهِ

فالنظر إلى الحبيب والانشغال به كاف في إعادة القوة الحافظة للصحة، وفيه انشغال عن الأوهام التي يسببها فراغ القلب.

قلت: الإحصائيات المعاصرة تثبت أن الكثير ممن يتردد على العيادات مصابون بوسواس المرض، الذي هيجه فيهم فراغ قلوبهم، وانشغالهم بعالم الطين.

قال: ولهذا، فإن كثيرا من نزلاء هذا المستشفى يكتفون بهذه القاعة، فيرجعون إلى أهليهم بوافر الصحة من غير أن يترلوا على الأقسام الأخرى.

قلت: لقد قال علي ـــ رضي الله عنه ـــ يعبر عن هذا المعنى:

لقد هاجَ الفراغُ عليكَ شغلاً   وأسبابُ البلاءِ من الفراغِ

وقال الشريف المرتضى بعده، وهو يبين قدرة الروح على ترميم أدواء الجسد:

دَوَاؤكَ فيكَ وما تَشْعُرُ   ودواؤكَ منكَ وما تبصرُ

وتحسبُ أنكَ جرمٌ صغيرٌ   وفيك انطوى العالَمُ الأكبرُ

***

بعد أن انصرف أو انصرفت عنه قلت في نفسي: إن علاج الانشغال بالله، وإحلال الابتسامة بدل الأنين هو العلاج الذي لن تجد البشرية في مستقبل أيامها، بعد أن تتخلص من زهوها، وتتخلى عن عبودية ما سمته إله العلم، إلا ذلك العلاج[1]، وقد قال ابن القيم، وهو يقارن بين العلاج الذي سنه النبي ﷺ، والعلاج الذي يقتصر عليه الأطباء، فقال:(وأين يقع هذا وأمثاله من الوحي الذي يوحيه الله إلى رسوله بما ينفعه ويضره، فنسبة ما عندهم من الطب إلى هذا الوحي كنسبة ما عندهم من العلوم إلى ما جاء به الأنبـــياء)[2]

قال لي: صحيح ما قلت، فهذه الأدوية التي سنها النبي ﷺ كلها ترجع إلى تغليب الانشغال بالله عن الاستماع لوساوس الشياطين، فالانشغال بالله يجعل في الإنسان قوة جبارة تقهر كل الأمراض.

قلت: لقد قال ابن القيم:(بل هاهنا من الأدوية التي تَشفي من الأمراض ما لم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم، وأقيستهم من الأدوية القلبـــية، والروحانية، وقوة القلب، واعتماده على الله، والتوكل عليه والالتجاء إليه، والانطراح والانكسار بـــين يديه، والتذلّل له، والصدقة، والدعاء، والتوبة، والاستغفار، والإحسان إلى الخلق، وإغاثة الملهوف، والتفريج عن المكروب، فإن هذه الأدوية قد جَربتها الأمم على اختلاف

---

(١) والعلم اليوم يقر بهذا بدرجة ما، ومن أمثلة ذلك الإقرار أن دراسة تجريبية كشفت في مراحلها الأولى أن مرضى القلب الذين يملكون إيمانا دينياً قوياً، لديهم قدرة أكبر على التماثل للشفاء و إكمال الفترة التأهيلية التي تعقب الإصابة.

و يحاول الباحثون في مركز غيسرنغ الطبي و جامعة باكنيل توسيع الدراسة لتحديد علاقة الإيمان الديني و مدى تأثيرها الإيجابي على المدى البعيد على صحة القلب والأوعية الدموية.

و يأمل تيموتي ماكونيل رئيس وحدة إعادة تأهيل مرضى القلب في مركز غيسرنغر، و هو مستشفى مركز ضخم لأمراض القلب يضم ٤٣٧ مريضاً في تأمين موافقة مائة من مرضى القلب لإجراء دراسة موسعة في إطار زمني مدته خمسة أعوام.و في الدراسة التجريبية استعان ماكونيل ب٢١ مريضا بينهم من أصيب مؤخراً بأول نوبة قلبية أو أجريت لهم عملية لتوسيع الشرايين.

وتم إجراء بحث لتحديد مدى إيمان و معتقدات المشاركين، قبل البدء في البرنامج التأهيلي الذي استغرق ١٢ أسبوعاً.

وقال بروفسور كريس بوياتزيس، الأخصائي النفسي من جامعة " باكنيل "عن الدراسة التجريبية لقد اكتشفنا رابطاً مثيراً بين الإيمان الديني و فرص التعافي فكلما زاد إيمان المريض بالدين زادت ثقته في مقدرته الشخصية على إكمال المهام و العمل و علق مايك ماكولاف أستاذ مساعد لعلم النفس بجامعة ميامي، بالقول " إن الكشف ليس بالمفاجأة فالدراسات التي أجراها للكشف عن مدى صحة البشر أثبتت العديد منها نفس النتائج »

(٢) الطب النبوي: ٦.

أديانها ومللها، فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لا يصل إليه علم أعلم الأطباء، ولا تجربته، ولا قياسه)

قال: أجل، وقد عاش رحمه الله لكل كلمة قالها، وقد سمعته مرة، وهو يقول:(وقد جربنا نحن وغيرنا من هذا أموراً كثيرةً، ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية، بل تصير الأدوية الحسية عندها بمنزلة أدوية الطرقية عند الأطباء)[1]

قلت: هل سمعته؟

قال: دعك من هذا، وكل البقل، ولا تسأل عن البقال.. ولقد سمعته يقول، وهو يبين علة هذا التأثير بالأسلوب الذي يفهمه قومك من الوضعيين الغارقين في بحار المادة:(وهذا جارٍ على قانون الحكمة الإلهية ليس خارجاً عنها، ولكن الأسباب متنوعة، فإن القلبَ متى اتصل برب العالمين، وخالق الداء والدواء، ومدبر الطبـــيعة ومصرفها على ما يشاء كانت له أدويةٌ أخرى غير الأدوية التي يعانيها القلب البعيد منه المعرض عنه، وقد علم أن الأرواحَ متى قويت، وقويت النفس والطبـــيعة تعاونا على دفع الداء وقهره، فكيف ينكر لمن قويت طبـــيعته ونفسه، وفرحت بقربها من بارئها، وأنسها به، وحبها له، وتنعّمها بذكره، وانصراف قواها كلها إليه، وجمعها عليه، واستعانتها به، وتوكلها عليه، أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية، وأن توجب لها هذه القوة دفعَ الألم بالكلية، ولا ينكر هذا إلا أجهل الناس، وأغلظهم حجاباً، وأكثفهم نفساً، وأبعدهم عن الله وعن حقيقة الإنسانية)[2]

ثارت في نفسي نزعة الإسناد، فالإسناد من الدين، فقلت: وهل لذلك من إسناد؟

قال: ولو تأملنا الأدعية التي كان يدعو بها ﷺ ويعلمها أصحابه، لوجدنا فيها الكثير من هذه المعاني.

ولهذا كان القرآن الكريم علاجا ربانيا لكل الأدواء، لاشتماله من المعارف الإلهية ما ينفي جميع أنواع العلل، قال تعالى:﴿ ونُنَزلُ منَ القُرآن مَا هُوَ شفَاءٌ وَرَحمَةٌ للمُؤمنينَ﴾ و(من) هنا لبـــيان الجنس لا للتبعيض، فالقرآن الكريم كله شفاء لمن استطب به.

قلت: نعم إن قومي يستشفون بالقرآن، والرقاة ــ بحمد الله ــ ينتشرون في كل مكان، لا يسمعون بعليل إلا زاروه، ولا بمسكون بمسكون إلا أحرقوا من يسكنه؟

---

(١) الطب النبوي:٦.

(٢) الطب النبوي:١٣٠.

قال: لا.. ليس العلاج القرآني ما يتوهمه هؤلاء المشعوذون، وإنما هو ماتفرزه معاني القرآن الكريم من روحانية في قلب متلقيها، قال ابن القيم في بيان سر كون سورة الفاتحة رقية:(وبالجملة فما تضمنته الفاتحةُ من إخلاص العبودية والثناء على الله، وتفويض الأمر كُله إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النعم كلها، وهي الهداية التي تجلبُ النعم، وتدفَعُ النقم، من أعظم الأدوية الشافية الكافية)[1]

***

بعد انصرافه أو انصرافي عنه، قلت في نفسي: ولكن من الذي ينشغل عن النار، وهي تتقد في جسده؟.. ومن الذي لا تحركه الأعاصير، وهي تكاد تجتث من حوله؟.. وكيف لا يلسع بالزنابير من يعيش في قرية الزنابير؟

قال لي صائحا من أعماقي بصوت لا أكاد أسمعه: إن النصوص الهادية تدلنا على حصون كثيرة يمكن اللجوء إليها لتخفيف حدة البلاء، بل لرفعه، وهي في جمالها وقوتها ومتانتها أعظم من كل لباس يقي من حر النار أو من لسع الزنابير أو من احتثاث العواصف.

قلت له: فداوني بها.

قال: سأذكر ثلاثة أدوية تجعل القلب منشغلا بالله مجتمعا به جالسا معه، ومن جلس مع الله فني عن غيره.

وهي ثلاث مراتب، كل ينال منها بحسب درجته من الدين، ومحله من القرب، وقد تتعاقب عليه اللحظات، فينال حظه منها جميعا:﴿ كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ (الاسراء:٢٠)

قلت: فما الأولى؟

قال: محبة الله، وهي أعلى المراتب، من ينالها يغيب عن بلائه، كما يغيب عن نفسه، وعن الكون جميعا.

قلت: والثانية؟

قال: الرضى عن الله، فرحا بما قدر، وسرورا بما أنزل، وهي نتيجة للمعرفة، وثمرة للمحبة، ولكن فيها مع ذلك التفاتا للبلاء، فلذلك كانت أنزل من المرتبة السابقة.

قلت: والثالثة؟

---

(١) زاد المعاد: ١٧٨/٤.

قال: السكون لمقادير الله، وعدم الاعتراض عليه، وهي دون ما قبلها، لأن في الرضى تسليما وفرحا وسرورا، أما هذه فمجرد تسليم، وفرق بين من يرضى، وبين من لا يعارض.

قلت: فهل لهذه الأدوية قاعات خاصة بها.

قال: أجل.. فلكل منزلته لا يعدوها، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾(الصافات:١٦٤)، فكل ما في هذه العوالم لا يجاوز مقامه ولا يحيد عنه، فلذلك لا ترى إلا السلام.

حب الله

دخلت قاعة تكاد تميد بالأشواق.. وقد علقت عليها لافتة كتب عليها بحروف من نور قوله تعالى:﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (المائدة: من الآية٥٤)، فأحسست بقلبي يمتلئ بشوق عظيم ومحبة متدفقة، وكأن أعضائي جميعا قلوبا تخفق.. سمعت صوتا في أرجاء القاعة يقول:(هنا إكسير الهموم، من ذاقه لم تحل بواديه المصائب، و لم تنزل بساحته الأحزان)

قلت للمعلم: ما هذا الإكسير؟ وما هذه القاعة؟

قال: هذا إكسير الانشغال بحب الله والشوق إليه، وهو إكسير يغيبك عن البرودة والحرارة، ويفنيك عن الصحة والسقم.. وهذا إكسير الأولياء، فلذلك استغنوا عن الراقي والطبيب.

سمعت أصواتا تتزاحم على بصيرتي، فقلت للمعلم: ما هذه الأصوات؟

قال: أصخ سمعك، فهي أصوات أطباء هذا الباب.

قال الأول: أوحى الله إلى داود عليه السلام:(ما لأوليائي والهم بالدنيا، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم، يا داود إن محبتي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغتمون)

وقال الثاني يترنم بلحن جميل:

وإنْ خَطَرَتْ يَوماً على خاطِرِ امرِىءٍ	أقامَتْ بِهِ الأفْراحُ، وارتحلَ الهَمُّ
ولو نَضَحوا مِنها ثَرى قَبْرِ مَيتٍ،	لعادَتْ إليهِ الرُّوحُ، وانْتَعَشَ الجسْم
ولو طَرَحوا، في فِيءِ حائِطِ كَرْمِها،	عليلاً، وقد أشْفى، لفارَقَهُ السّقَمُ
ولو قَرَّبوا، من حانِها، مُقْعَداً مَشى	

وتَنْطِـــــقُ مِــــن ذِكــــرِى مَــــذاقَتِها الـــــبُكْمُ	ولـــــو عَبِقَــــت في الشَّـــرْقِ أنْفـــاسُ طيبــــها،
وفي الغَــــرْبِ مَزْكـــومٌ، لَعـــادَ لــــهُ الشـــم	ولـــو خُضِـــبتْ، مِـــنْ كأسِــها، كـــفّ لامِــسٍ
لَمـــا ضَـــلّ في ليـــلٍ، وفي يَـــدِهِ الـــنَّجمِ	ولـــو جُلِيَـــتْ، سِـــرّاً، علـــى أكمَـــهٍ غَـــدا بَصــيراً،
ومِــــن رَاوَوقِهــــا تَســـمعُ الصّـــــمّ	ولــــو أنّ ركْبـــاً يَمّمَــــوا تُـــرْبَ أرْضِـــها،
وفي الرَّكـــبِ مَلْســـوعٌ، لمـــا ضَــــرّهُ السّـــمُ	ولــــو رَسَـــمَ الرّاقـــي حُـــرُوفَ اسمِهـــا،
علـــى جَـــبينِ مُصـــابٍ جُـــنَّ، أبْـــرَأَهُ الرَّســـمُ	

قلت: عرفتك.. أنت..

قال: دعك من اسمي، واسمع الحقائق من الله، لا من خلقه.

قال الثالث: إن الحب يحول المر حلواً، والتراب تبراً، والكدر صفاءً، والألم شفاءً، والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة، وهو الذي يلين الحديد، ويذيب الحجر، ويبعث الميت، وينفخ فيه الحياة..

إن هذا الحب هو الجناح الذي يطير به الإنسان المادي الثقيل في الأجواء، ويصل من السمك إلى السماك، ومن الثرى إلى الثريا.

.. بارك الله لعبيد المادة وعباد الجسم في ملكهم وأموالهم!! لا ننازعهم في شيء. أما نحن فأسارى دولة الحب التي لا تزول ولا تحول.. !

حياك الله أيها الحب المضني! يا طبيب علتي وسقمي! يا دواء تخوفي وكبري! يا طبيبي النطاسي! يا مداوي الآسي![1]

قلت: عرفتك.. أنت جلال الدين الرومي.

قال: دع عنك هذا.. فلم أعد جلال الدين، ولا جمال الدين؟

قلت: فما صرت؟

قال: أنا عبد الله.. أنا النقطة التي تحت الباء.. وحسبي بذلك شرفا.

***

قلت للمعلم: حدثني كيف عاش الأولياء هذه المعاني.

قال: كان أبو بكر ــ رضي الله عنه ــ يستشعر هذه المشاعر عندما مرض، فعاده الناس فقالوا:(ألا ندعو لك الطبيب؟)، فقال:(قد رآني) قالوا:(فأي شيء قال لك؟) قال:(إني فعال لما أريد)

وكان عمر ــ رضي الله عنه ــ ينظر بهذا المنظار حين قال:(ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدّة أو رخاء)

وكان عروة بن الزبير ﷺ يشعر بهذا الشعور لما وقعت الأكلة في رجله، وأرادوا قطعها، وقال له الأطباء:(نسقيك دواءا حتى يغيب عقلك ولا تحس بألم القطع، فأبي، وقال:(ما ظننت أن خلقا يشرب شرابا يزول منه عقله حتى لا يعرف ربه).. وروى عنه أنه قال:(لا أشرب شيئا يحول بيني وبين ذكر ربي ﷻ)[2]

وكان بلال ــ رضي الله عنه ــ وهو في رمضاء مكة يشعر بهذا الشعور، حين كان المشركون يتفانون معه بأصناف البلاء، فيفنى عنه بــ (أحد أحد)

ولما مرض عبد اللّه عاده عثمان بن عفان فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة اللّه. قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال:

---

(١) نقلا عن: رجال الفكر والدعوة في الإسلام، للندوي: ١/ ٢٨٨.

(٢) جامع العلوم والحكم: ٤٢٤.

لا حاجة لي فيه قال: يكون لبناتك. قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، إني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول:(من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً)[1]

وكان لسهل علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه، فقيل له في ذلك فقال: يا دوست ضرب الحبـــيب لا يوجع.

وكان سري السقطي يستشعر هذه المعاني، وهو ينظر إلى تصريف الله في جسده، قال الجنيد: كنت يوما عند السري بن مغلس وكنا خاليين وهو متزر بمئزر فنظرت إلى جسده كأنه جسد سقيم دنف مضنى كأجهد ما يكون فقال:(أنظر إلى جسدي هذا، لو شئت أن أقول إن ما بي من المحبة لله تعالى لكان كما أقول)، وكان وجهه أصفر، ثم أشرب حمرة حتى تورد، ثم اعتل فدخلت عليه أعوده، فقلت له كيف تجدك، فقال:

كيف أشكوا إلى طبيبي ما بي   والذي بي أصابني من طبيبي

فأخذت المروحة أروحه فقال لي:(كيف يجد روح المروحة من جوفه يحترق من داخل؟)، ثم أنشأ يقول:

القلـــــــــــب محتـــــــــــــرق والــــــــــــدمع مســــــــــــتبق
والكـــــــــــــرب مجتمـــــــــــــع والصـــــــــــبر مفتـــــــــــــرق

كيــــــــــف القــــــــــرار علــــــــــى مـــــــــن لا قــــــــــرار لــــــــــه
ممـــــــــــا جنــــــــــــاه الهـــــــــــوى والشـــــــــوق والقلــــــــــق

يـــــــــــا رب إن كــــــــــــان شــــــــــيء فيـــــــــــه لي فـــــــــرج
فـــــــــأمنن علــــــــي بــــــــــه بي مـــــــــــا دام بي رمـــــــــق

---

(١) قال المنذري:« ذكره رزين في جامعه، ولم أره في شيء من الأصول، وذكره أبو القاسم الأصبهاني في كتابه بغير إسناد » الترغيب والترهيب: ٢/٢٩٤.

وكان عابد المصيصة يستشعر هذه المعاني حين رأى نفسه ملكا يلتذ بها، قال علي بن الحسن: كان رجل بالمصيصة ذاهب نصفه الأسفل لم يبق منه إلا روحه في بعض جسده، ضرير على سرير مثقوب فدخل عليه داخل فقال له: كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال:(ملك الدنيا، منقطع إلى الله عز وجل، ما لي إليه من حاجة إلا أن يتوفاني على الإسلام)

***

قال لي المعلم: أتعلم سر استغراق هذه المشاعر للوجدان جميعا؟

قلت: ما سر ذلك؟

قال: الحب هو أعظم المشاعر الوجدانية التي تستغرق الكيان، فتمنعه من التفكير في غيره، بل لا شيء يساوي الحب في هذا الدور، فلذلك كان أعظم شاغل عن البلاء هو استعماله دواء لقهر وساوس الداء.

قلت: لكن قومي يعرفون الحب أكثر مما يعرفون غيره.

قال: هم يعرفون الحب المدنس.. لا المقدس.. فلذلك يغرقون في دنسه، وفي مستنقعاته.

قلت: فما الحب المقدس؟

قال: هو حب واحد..

قلت: فما هذا الحب الواحد؟

قال: حب الواحد.. فحب كل ما عداه داء وألم، ألم تسمع قول العارف الذي عبر عن اجتماع كل الآمال والأهواء واللذات في حبه لله.

قلت: تقصد قوله:

كانـــــــــــت لقلـــــــــــبي أهـــــــــــواء مفرقـــــــــــةٌ
فاســـــــتجمعت مـــــــذ رأتـــــــك العـــــــين أهـــــــوائي

فصـــــــار يحســـــــدني مـــــــن كنـــــــت أحســـــــده
وصـــــــرت مـــــــولى الـــــــورى مـــــــذ صـــــــرت مـــــــولائي

	تركـــــــــــت للنـــــــــــاس دنيـــــــــاهم ودينـــــــــــهم
شـــــــــغلاً بـــــــــذكرك يـــــــا ديـــــــــني ودنيـــــــــائي	

قال: فالغارقون في بحر هذا الحب لا يرون غير محبوبهم، وهو لا يغيب عنهم أبدا:

	ومـــــــــــن عجـــــــــب أني أحـــــــــــن إلـــــــــيهم
وأســــــــأل عنــــــــهم مـــــــــن أرى وهـــــــــم معــــــــي	
	وتطلبــــــــــــهم عــــــــــيني وهـــــــــــم في ســـــــــــوادها
ويشـــــــــتاقهم قلـــــــــبي وهـــــــــم بـــــــــين أضـــــــــلعي	

قال الشبلي: رأيت جارية حبشية فقلت: من أين؟ قالت: من عند الحبيب قلت: وإلى أين؟قالت: إلى الحبيب قلت: ما تريدين من الحبيب قالت: الحبيب.

وعندما تعجب بعض أصحاب معروف الكرخي من كثرة مجاهداته في الله سأله:(أخبرني يا أبا محفوظ أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت فقال: ذكر الموت، فقال: وأي شيء الموت؟ فقال: ذكر القبر والبرزخ، فقال: وأي شيء القبر؟ فقال: خوف النار ورجاء الجنة، فقال: وأي شيء هذا؟ إن ملكاً هذا كله بـــيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بـــينك وبـــينه معرفة كفاك جميع هذا.

قلت: لقد ذكرتني ـــ يا معلم ـــ بحديث امرأة صالحة[1] حكى خبرها سري السقطي ﷺ ففيها نبصر مدى القوة التي يمنحها حب الله في النفس فتواجه كل صعب وتتحدى كل ألم.

قال: تقصد (بدعة).. ستزورها في (بحار الحب)، فحدثنا عن بعض شأنها هنا.

---

(١) أما كامل حديثها فقد ذكرناه في رسالة « بحار الحب »، وقد ذكرنا في بدايتها أنه لا يهمنا في هذه الحكايات التحقيق في سندها، فليست هي بالعلم الذي نبني عليه عقيدة، أو ننهج من خلاله سلوكا.

أما ما قد يبديه البعض من الاستغراب وتوهم التلفيق فيها، فلا نراه كذلك، فلأولياء الله وأهله من الشؤون ما لا يمكن التعبير عنه.

قلت: قال الولي الصالح السري السقطي[1] ﷺ: ضاقت علي نفسي يوما فقلت في نفسي: أخرج إلى المارستان، وأنظر إلى المجانين فيه، وأعتبر بأحوالهم فخرجت إلى بعض المارستانات، وإذا بامرأة مغلولة يدها إلى عنقها، وعليها ثياب حسان وروائح عطرة، وهي تنشد:

أعيذك أن تغل يدي	بغير جريمة سبقت
تغل يدي إلى عنقي	وما خانت ولا سرقت
وبين جوانحي كبد	أحس بها قد احترقت
وحقك يا مدى أملي	يمينا برة صدقت
فلو قطعتها قطعا	وحقك عنك لا نطقت

فقلت لصاحب المارستان:(ما هذه)، فقال:(مملوكة خبل عقلها فحبست لتصلح)، فلما سمعت كلامه أنشدت:

معشر الناس ما جننت ولكن	أنا سكرانة وقلبي صاح
لم غللتم يدي و لم آت ذنبا	غير هتكي في حبه وافتضاحي
أنا مفتونة بحب حبيب	لست أبغي عن بابه من براح
فصلاحي الذي زعمتم فسادي	وفسادي الذي زعمتم صلاحي
ما على من أحب مولى الموالي	وارتضاه لنفسه من جناح

(١) ننقل الحكاية مع بعض التصرف.

قال سري فسمعت كلاما أبكاني فلما رأت دموعي قالت:(يا سري هذه دموعك على الصفة، فكيف لو عرفته حق المعرفة؟)

فقلت:(هذا أعجب.. من أين عرفتني؟)

قالت:(ما جهلت منذ عرفت أن أهل الدرجات يعرف بعضهم بعضا)

فقلت:(يا جارية أراك تذكرين المحبة فمن تحبين؟)

قالت:(لمن تعرف إلينا بآلائه، وتحبب إلينا بنعمائه، وجاد علينا بجزيل عطائه، فهو قريب إلى القلوب مجيب تسمى بأسمائه الحسنى، وأمرنا أن ندعوه بها فهو حكيم كريم قريب مجيب)

قال معلم السلام: سق هذا الحديث لقومك ليستعملوا هذا العلاج في مداواة الأمراض النفسية والعصبية التي تعج بها مستشفياتكم.. فذلك خير لكم من تلك السموم التي تسممونهم بها.

الرضى عن الله

خرجت من قاعة الحب بإلحاح شديد من المعلم، فقد أنست لأنوارها وأصوات أوليائها، وما استشعره كياني من مواجيد وأشواق تنسي كل ألم، وتثمر كل راحة.

قال لي المعلم: ألم أقل لك: لا تسكن لشيء.. ارحل دائما، فلا يتعلم من لا يرحل؟

قلت: أجل.. ولكني رأيت نفسي في ذلك المحل، فلم أرد الخروج منه.

قال: ستجد نفسك في كل محل.. ولن تعرفها إلا بعد أن تدخل كل المحلات.

قلت: فأين نسير الآن؟

قال: إلى قاعة (الرضى)، فهو العلاج الثاني الذي تغيب به النفس عن نفسها، فتنشغل عن بلائها.

دخلنا قاعة ممتلئة سكينة وجمالا، وقد علقت عليها لافتة من نور كتب عليها قوله تعالى:﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾(المائدة: من الآية١١٩)، وسمعنا أصواتا عذبة عند مدخل الباب تقول:(إذا رأيت قلبك ممتلئا بالأغيار، واستحال عليك الاجتماع مع الله، والفناء عن ذاتك، فانظر إلى صفات كرمه، ورتل أسماء لطفه وإحسانه، وتأمل مراده من ذلك البلاء، فإنك إن لم تبلغ درجة أن ترضى به، فلا تنزل عن درجة أن ترضى عنه)

قلت: يا معلم، لقد ذكرني هذا الصوت الجميل بقول الثوري يوماً عند رابعة: اللهم ارض عني، فقالت: أما تستحي من الله أن تسأله الرضا، وأنت عنه غير راض؟ فقال: أستغفر الله، فقال جعفر بن سليمان الضبعي: فمتى يكون العبد راضياً عن الله تعالى؟ قالت:(إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة)

قال المعلم: لقد أشارت ــ رضي الله عنها ــ إلى أن للمصيبة سرورا عند العارف كما أن للنعمة سرورا، لأن ما يلحظه العارف في ثنايا المصيبة يبدد الظلمات التي ينفخها الحزن واليأس.

لذة الرضا:

قلت: وهل للرضى من لذة؟

قال: هي لذة لا تقل عن لذة الحب، بل إنه لا يمكن أن يرضى من لا يحب، كما لا يحب من لا يرضى، ألم تعلم بأن الرضوان أعلى الدرجات؟

قلت: لقد بين الله تعالى أن هذا هو مقام الصادقين مع ربهم، لا يزال رضاهم بالله ورضاهم عنه رائد علاقتهم بربهم إلى يوم يلقونه، قال تعالى:﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ

لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(المائدة:١١٩)

قال: بل نجد في القرآن الكريم أن كل الآيات التي تتحدث عن الرضوان المتبادل بين الله ﷻ وعباده الصالحين مرتبطة بالجنة، وكأنها تشير إلى أن الرضوان جنة أخرى من جنان الله، وهي جنة لا تختص بالآخرة، بل تعجل للمؤمنين في الدنيا.

قلت: لقد ذكر الفخر الرازي ــ تعليقا على ارتباط الرضوان بالجنة في قوله ﷻ:﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾(البينة:٨) فقال:(ثبت عند أرباب الألباب أن جملة الجنة بما فيها بالنسبة إلى رضوان الله كالعدم بالنسبة إلى الوجود، وكيف والجنة مرغوب الشهوة، والرضوان صفة الحق وأي مناسبة بينهما)[1]

قال: ويدل على هذا قوله تعالى وهو يخاطب النفس المطمئنة التي لا تقبض انتزاعا ــ كما تقبض أرواح المتمردين على الله ــ وإنما تقبض بأمرها، بالرجوع إلى بارئها فتطير شوقا إليه، قال ﷻ:﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾(الفجر:٢٧،٢٨)

وقوله ــ وهو يخبر عن حزبه الذي اعتبر رضوانه فوق كل رضوان ــ:﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(المجادلة:٢٢)

فالرضى عن الله شامل لكل ما جاء عن الله تشريعا كان أم قضاء، فلا فرق بينهما، فكلاهما مقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

---

(١) التفسير الكبير، والفخر الرازي يخالف ــ بهذا ــ الأسلوب الجاف الذي يتعامل به المتكلمون عادة مع مثل هذه الأمور، وقد عقب على قوله هذا بقوله:« وهذا الكلام يشمئز منه طبع المتكلم الظاهري، ولكن كل ميسر لما خلق له »، وقال في موضع آخر:« وأما قوله ﷻ:﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)(المائدة: من الآية١١٩) فهو إشارة إلى التعظيم. هذا ظاهر قول المتكلمين، وأما عند أصحاب الأرواح المشرقة بأنوار جلال الله تعالى، فتحت قوله:﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ أسرار عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها جعلنا الله من أهلها »

وقد بين الغزالي علة إنكار بعض المتكلسين للرضى بقوله:« اعلم أنّ من قال: ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصوّر؟ فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة، فأما إذا ثبت تصوّر الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أنّ الحب يورث الرضا بأفعال الحبـــيب »، الإحياء: ٣٤٧/٤.

وقد قال ﷻ عن الأول:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾(الأحزاب:٣٦)

وقال عن الثاني:﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾(الأنعام: من الآية١٦٤)، وقال في أول السورة:﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(الأنعام:١٤) أي معبودا وناصرا ومعينا وملجأ وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة.

قلت: لقد ورد في السنة ما يدل على هذه اللذة التي يجدها الراضي، فقد قال ﷺ:(إن اللّه بحكمته وجلاله جعل الروح[1] والفرح في الرضا واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط)[2]

وقد علق المناوي على هذا الحديث مبينا علة هذا السرور بقوله:(فمن أوتي يقيناً استحضر به قوله تعالى:﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾(النساء: من الآية٧٨)، فشاهد الخير عياناً فقر وسكن و لم يضطرب فما سمع بأذنه من خبر ربه أبصره بعين قلبه وبصر القلب هو اليقين فمن تيقن أن الكل من اللّه وباللّه وللّه نال الثواب ورضي عن اللّه ورضي اللّه عنه و لم يلتفت لغيره)، وبخلافه من:(لم يصبر على ضيق و لم يرض بمكروه فما ترى إلا ساخطاً للقضاء جازعاً عند البلاء فيحبط عمله ولا يغني عنه ذلك شيئاً)[3]

فأول جزاء للراضي عن الله أن يرضى الله عنه ويرضيه، فإذا أرضاه رزقه من السعادة والسرور ما يهون أمامه كل ألم.. والرضا عن الله علاج يرسم الابتسامة بدل الأنين، فينشغل الراضي بفضل الله وأوصاف الله عما ألم به.

قال: وقد ورد في الأثر الإلهي:(أنا الله لا إله إلا أنا قدرت المقادير ودبرت التدابير وأحكمت الصنع فمن رضي فله الرضا مني حتى يلقاني، ومن سخط فله السخط حتى يلقاني)

قلت: فكيف كان حال الصالحين مع الرضا؟

قال: كل الصالحين متفقون على أن الرضا عن الله نعمة، ولكنه لا يجدها إلا من ذاقها، فلذلك ينقلون للخلق من باب التشويق أذواقهم في ذلك، فهذا عمر بن عبدالعزيز ــ رضي الله عنه ــ يقول:(أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القدر)

---

(١) بفتح الراء أي الراحة وطيب النفس.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي، وفيه محمد بن مروان السدي ضعيف، وفيه أيضاً عطية العوفي أورده الذهبي في الضعفاء والمتروكين وقال: ضعفوه وموسى بن بلال قال الأزدري: ساقط. انظر: فيض القدير: ٥٣٩/٢.

(٣) فيض القدير: ٥٣٩/٢.

وهذا أبو عثمان الحيري ﷺ يقول:(منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته)

وكتب عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ إلى أبي موسى ــ رضي الله عنه ــ:(أما بعد فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى، وإلا فاصبر)

وفي أخبار موسى ؛ إن بني إسرائيل قالوا له: سل لنا ربك أمراً إذا نحن فعلناه يرضى به عنا، فقال موسى :(إلهي قد سمعت ما قالوا)، فقال:(يا موسى قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم)

ويروى عن بعض العباد أنه قال: إني أذنبت ذنباً عظيماً، فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة ــ وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من الذنب ــ فقيل له: وما هو؟ قال:(قلت مرة لشيء كان، ليته لم يكن)

ويروى عن عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أنه اشتكى له ابن فاشتدّ وجده عليه حتى قال بعض القوم: لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث، فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشدّ سروراً أبداً منه، فقيل له في ذلك فقال ابن عمر: إنما كان حزني رحمة له، فلما وقع أمر الله رضينا به.

وقال ابن مسعود ﷺ:(الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبت إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان الغنى فإن فيه البذل)

قلت: فكيف ذاق العارفون من هذه المشارب الطاهرة؟

قال: لا يهم العارف كل ما يصيبه ما دام له فيه حظ من العبودية، كما قال ﷺ:(عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر وكان خير له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[1]

وفي قوله ﷺ:(وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن) دليل على أن الخيرية والتي تعني الرضا والسرور لا ينالها إلا من تحقق بحقيقة الإيمان.

ولهذا، فإن الصالحين لا يهمهم شيء مما قد يصيب وجودهم في الدنيا بقدر ما تهمهم علاقتهم بربهم، وقد روي أن عمر بن الخطاب ﷺ قال يوما لامرأته عاتكة أخت سعيد بن زيد ﷺ، وقد غضب عليها:(والله لأسوأنك)، فقالت:(أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام بعد إذ هداني الله له؟) قال:(لا) فقالت:(فأي شيء تسوءني به إذا؟).. تريد أنها راضية بمواقع القدر لا يسوءها منه شيء إلا صرفها عن الإسلام ولا سبيل له إليه.

---

(١) أحمد ومسلم عن صهيب.

وقال مسمع: سمعت عابدا من أهل البحرين يقول في جوف الليل، ونحن على بعض السواحل:(قرة عيني، وسرور قلبي، ما الذي أسقطني من عينك يا مانح العصم قال: ثم صرخ وبكى ثم نادى: طوبى لقلوب ملأتها خشيتك واستولت عليها محبتك فمحبتك مانعة لها من كل لذة غير مناجاتك، والاجتهاد في خدمتك، وخشيتك قاطعة لها عن كل معصية خوفا لحلول سخطك)، ثم بكى، وقال:(يا إخوتاه ابكوا على خوف فوت الآخرة حيث لا رجعة ولا حيلة)

فهمة الصالحين منصرفة للبحث عن رضوان الله، والخوف من سخطه، ولا يهمها بعد ذلك ما يحل بها، فهي تبحث عن رضى الله عنها لا عن رضاها هي على الله، قال سهل:(حظ الخلق من اليقين على قدر حظهم من الرضى وحظهم من الرضى على قدر رغبتهم فى الله)، وقال عبد العزيز بن أبـــي رواد:(ليس الشأن في أكل خبز الشعير والخل ولا في لبس الصوف والشعر، ولكنّ الشأن في الرضا عن الله عز وجل)

ترياق الرضا:

قلت: يا معلم.. فكيف أتحقق بهذا الرضى الذي يمسح عن قلبي كل الآلام؟.. وكيف ألتحق بركب الأولياء الشاربين من هذه العين؟

قال: بترتيل أسماء لطفه، والنظر في جميل صنعه، والاستغراق في سابق إحسانه، والأمل في جميل أفضاله.

قلت: كيف أستعمل هذا العلاج؟

قال: أرأيت لو أحسنت إلى أحدهم دهرك جميعا بمعشار ما أحسن الله إليك، بل بمعشار المعشار، أترضى أن يسخط عليك.

قلت: كلا.. فهذا فعل الجحود.

قال: فكيف لا ترضى على من لا خير إلا منه، ولا فضل إلا في يديه الكريمتين؟

قلت: لقد ذكرتني بقول أبي سليمان الداراني ﷺ: إنَّ الله ﷻ من كرمه قد رضي من عبـــيده بما رضي العبـــيد من مواليهم فقيل له: وكيف ذاك؟ قال: أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه؟ قيل: نعم، قال: فإن محبة الله من عبـــيده أن يرضوا عنه.

قال: أجل.. فالرضى عن الله هو ما يوجبه حسن الخلق مع الله، ولو تأمل المعترض على ربه حقيقته لوجدها أهون من أن تعارض الحق، فكيف يجسر على ذلك، وهو لا يعدو أن يكون حفنة تراب.

قلت: لقد قال ابن عون ﷺ في هذا:(لن يصيب العبد حقيقة الرضا حتى يكون رضاه عند الفقر كرضاه عند الغنى، كيف تستقضي الله في أمرك ثم تسخط إن رأيت قضاءه مخالفا لهواك، ولعل ما هويت من ذلك لو وفق لك فيه هلكك، وترضى قضاءه إذا وافق هواك؟ ما أنصفت من نفسك ولا أصبت باب الرضا)

قال: بل، لقد اتفقت كلمة الصالحين على هذا المعنى، فهذا أبوعلي الدقاق ـــ رضي الله عنه ـــ يقول:(الإنسان خزف، وليس للخزف من الخطر ما يعارض فيه حكم الحق تعالى)

وعبروا عن أحوالهم في ذلك، فقال عبد الله بن مسعود ﷺ:(لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إليّ من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن أو لشيء لم يكن ليته كان)

وقال بعض الصالحين:(لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله تعالى سبحانه ليته لم يقضه)

ويذكر علي بن الحسن بن موسى قال: قال رجل: لأمتحنن أهل البلاء. قال: فدخلت على رجل بطرسوس وقد أكلت الآكلة أطرافه. فقلت له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت والله وكل عرق وكل عضو يألم على حدته من الوجع، وإن ذلك لبعين الله أحبه إلي أحبه إلى الله، وما قدر ما أخذ ربي مني؟ وددت أن ربي قطع مني الأعضاء التي اكتسبت بها الإثم، وأنه لم يبق مني إلا لساني يكون له ذاكرا. قال: فقال له رجل: متى بدأت بك هذه العلة؟ فقال: الخلق كلهم عبيد الله وعياله، فإذا نزلت بالعباد علة فالشكوى إلى الله ليس يشتكى إلى العبيد.

قلت: هذا سبيل صالح.. فما السبيل الثاني؟

قال: إذا اشتقت أن تلبس لباس الرضى، وتسكن مع الراضين في جنة الأمن والفرح والسرور، فردد مع النبي ﷺ هذا الدعاء الذي يسأل الله فيه أن يرزقه بالرضى بالقضاء فلا ينال ما عند الله إلا من يد الله، قال ﷺ:(اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين)[1]

---

(١) الترمذي والحاكم، والنسائي.

وردد معه:(اللهم إني أسألك الصحة والعفة والأمانة وحسن الخلق والرضى بالقدر)[1]

فإن صدقت في دعائك، وألححت فيه كما يلح الغريق طالبا النجدة، فسيرزقك الله فهم حقيقة الرضا، والشرب من شرابه.

قلت: فكيف يرزقني؟

قال: أول رزق يسوقه إليه هو تعريفك به، فإذا عرفته عرفت حقيقة العلم، قال الجنيد:(الرضى هو صحة العلم الواصل إلى القلب، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضى)، فقد اعتبر الرضى علامة على وصول العلم للقلب، لأن العلم المحجوز في زوايا العقل أضعف من أن يحقق لصاحبه هذا المقام الرفيع.

قلت: ولكنا نعرف حقيقة العلم من دون هذا؟

قال: لا.. حقيقة العلم أن تشربه لا أن تسمعه، وأن تعيشه لا أن تكتبه.. فالعلم الذي لم يوصل صاحبه إلى الحقيقة كالدواء الذي لم يستعمل، فإن صاحبه يظل مريضا، ولو ظل يردده أبد الدهر.

وقد شبه الغزالي من لم يعش علمه برجل في برية، وله عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى، وكان الرجل شجاعا وأهل حرب، فحمل عليه أسد عظيم مهيب، (فما ظنّك؟ هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها؟!)

وقياسا على هذا (لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها، و لم يعمل بها: لا تفيده إلا بالعمل)[2]

قلت: فما طريق وصول القلب لهذه المعاني؟

قال: بالمجاهدة، والمصابرة، وقد قيل ليحيى بن معاذ:(متى يبلغ العبد إلى مقام الرضى)، فقال:(إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه، فيقول: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت)

---

(١) البيهقي.

(٢) رسالة « أيها الولد » لأبي حامد الغزالي.

السكون لمقادير الله

خرجت مع المعلم إلى القاعة الثالثة من قاعات الغيبة بالله، وهي قاعة (السكون لمقادير الله)، وقد علق على بابها لوح من نور كتب عليه قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾(الأحزاب: من الآية٣٦)

سمعت في مدخلها أصواتا حانية قوية تقول:(إن لم تستطع أن تبلغ تلك الدرجات الرفيعة التي نزلها الأولياء، فنالوا بها الفرح والرضوان، فلا تنزل إلى دركات المعرضين المعارضين لله، فتخسر خسارتين عظيمتين:تخسر ربك الذي لا يرضى أن يعارض في ملكه أو يعقب عليه في تدبيره.. وتخسر صحتك وراحتك التي لن يعوضها اعتراضك)

قلت: يا معلم.. ماذا تقول هذه الأصوات؟.. وما هذه القاعة؟.. وما الفرق بينها وبين القاعة السابقة؟.. فإني لا أرى الرضى إلا سكونا لمقادير الله.

قال: هذه القاعة تجيب الشبهة التي ينفخها الشيطان في نفسك، وفي كل النفوس الضعيفة، ليقول لها:(كيف ترضي عنه، وهو يسومك بأنواع البلاء، أليس هو الطبيب الشافي)

قلت: فهي ترد إذن على أحزاب المعارضة لله.

قال: وهي أحزاب كثيرة، كل حزب يرفع راية من الرايات يدعو فيها إلى عزل الله عن التصريف في الكون.

قلت: وأين هي؟

قال: في نفسك.. وفي كل النفوس التي لم تذق لذة الرضا عن الله.

قلت: فكيف أقمع هذه الأحزاب المعارضة لله.. وليس لدي شرطة ولا جيش؟

قال: السلام لا يعرف الشرطة والجيش.

قلت: فكيف أقضي على هذه الأحزاب المعارضة لله؟

قال: بالمعرفة.. ألم يكن أول ما نزل على رسول الله ﷺ الأمر بالقراءة؟

قلت: فماذا أقرأ؟ وكيف أقرأ؟

قال: اقرأ المعارف التي تجعلك ساكنا لمقادير الله، لا معارضا لها.

قلت: فأين أجد هذه المعارف؟

قال: ستسمع من أطباء هذه القصر بسمع بصيرتك ما يضع في نفسك بذور ذلك، وليس عليك بعدها إلا أن تسقيها وتتعاهدها إلى أن تنبت شجرة الرضا في نفسك.

سمعت أصواتا كثيرة تزدحم على أذن بصيرتي، وهي من كثرتها شوشت علي، فلم أدر ما أسمع.

قال لي المعلم: هل تسمع ببصيرتك.

قلت: أسمع.. ولكني لا أسمع.

قال: لم؟

قلت: الأصوات تزدحم على بصيرتي، فلا تكاد تفهم ما تقول.

قال: اسكن.. ألست في قاعة السكون لمقادير الله.. فمن لم يسكن لم يسمع.. أو سمع و لم يفهم.. ألم تسمع قوله تعالى:﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾(القيامة:١٦)؟

قلت: بلى.

قال: فقد أمره بالسكون ليحصل له العلم.

استرخيت.. وسكنت سكونا هادئا أشبه بالنوم، فسمعت أصواتا مختلفة[١]، منها الحانية، ومنها الشديدة تتردد في جوانب القاعة تمتلئ بها بصيرتي.

قال الأول: ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

قلت: بلى.. هذا صحيح، فقد قال تعالى:﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(الحديد:٢٢)

ويعقب على ذلك بأثر هذه المعرفة في النفس الإنسانية بقوله ﷻ:﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(الحديد:٢٣)

ويقول ﷻ في آية أخرى:﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(التغابن:١١) فالعوض الإلهي في هذه الآية عن النقص الذي جلبته المصيبة هو الهداية المرتبطة بقلب الإنسان، وهي الهداية الحقيقية التي تجر إلى المعرفة التي لا يشوبها الجهل، وإلى العلم الذي لا يختلط مع الأهواء.

ويعلمنا في آية أخرى ما ينبغي أن نقوله، ثم النتيجة التي جعلها الله لمن يفعل ذلك، فقال ﷻ:﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(البقرة:١٥٦)

والفضل الإلهي النازل على هؤلاء هو ما عبر عنه ﷻ بقوله:﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(البقرة:١٥٧)

---

(١) اقتبسنا أكثر هذه المعاني من « مدارج السالكين »، وحكم ابن عطاء الله والإحياء وكليات رسائل النور، وغيرها من المراجع، وقد لخصناها بهذا الأسلوب لتسهل الاستفادة منها.

قال المعلم: فإذا استقر في النفس الإيمان بقضاء الله وقدره، وأن الذي أصابه لا بد أن يصيبه، وأنه أمر لا مفر منه، ولا مهرب منه لأن الله قد كتبه في الأزل؛ فإن نفسه تهدأ، وقلبه يسكن، ويكون هذا بداية ومقدمة للسكون لمقادير الله.

قال صوت آخر: لا تعترض.. فأنت تجمع الجهل بأشكاله وألوانه.. تجهل نفسك ومصيرك، وعواقب أمورك، أما سيدك الذي يدبر أمرك، فعلام الغيب:﴿ يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(الأنعام: من الآية٥٩)

وقال آخر: لا تعترض.. فإن ما تراه مما تكرهه رحمة من رحمات الله، ولطف من خفي ألطافه ساقه إليك في ثوب ما تكره ليمتحن عبوديتك، ويملأ قلبك بحسن الظن به:

رب أمر تتقيه جر أمرا ترتضيه

خفي المحبوب منه وبدا المكروه فيه

قلت: هذا صحيح، وقد قال ﷻ:﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة: من الآية٢١٦)، وقال:﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾(النساء: من الآية١٩)

وقال آخر: لا تعترض.. فإن كل مقادير الله خير لك إن استقبلتها ببصيرة الإيمان.

قلت: هذا صحيح، فقد قال ﷺ:(عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر وكان خير له إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[1]

وقال آخر: لا تعترض.. وكن كذلك العبد الصالح الذي لم تغره مباهج جنة صاحبه، وقال في ثقة المؤمن وإيمان الواثق:﴿ عَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾(الكهف: ٤٠)

وقال آخر: لا تعترض.. فإن من ظن انفكاك لطفه عن قدره، فذلك لقصور نظره، فإن العارفين يشهدون المنن في المحن، والعطايا في البلايا.

وقال آخر: لا تعترض.. فإن من تمام عبوديتك أن تجري عليك مقادير الله بأنواعها، وتهب عليك رياح البلاء لتمتحن عبوديتك.

وقال آخر: كيف تعترض، وأنت لن ترقى في مقامات العبودية إلا بهذا الذي تعترض عليه؟

---

(١) مسلم.

وقال آخر: كيف تعترض، وأنت لن تكون صابرا، ولا متوكلا ولا راضيا ولا متضرعا ولا مفتقرا ولا ذليلا ولا خاضعا إلا باستقبالك لمقادير الله ببصيرة الإيمان؟

وقال آخر: كيف تعترض، وأنت تعلم أن رضاك عن ربك زرع لرضى ربك عنه، بل رضاك عن ربك علامة على رضا ربك عنك، فلو لم يرض عنك لم ترض عنه.

وقال آخر: لا تعترض.. فإن جميع ما يحدث في الكون أثر من آثار أسماء الله وصفاته، وفيض من فيوضات مشيئة الله وحكمته، فإن لم ترض بمقادير الله خاصمت أسماء الله وصفاته، وخاصمت الله بمخاصمتها؟

وقال آخر: لا تعترض.. فإن حكمه تعالى فيك ماض، وقضاؤه فيك عدل، كما أخبرك الناصح الأمين ﷺ في قوله:(ماض في حكمك عدل في قضاؤك)[1]

وقال آخر: كيف لك أن تعترض، وأنت تعلم أنه لا تبديل لكلماته ولا راد لحكمه، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وقال آخر: كيف لك أن تعترض، وقد علمت كمال حكمته ورحمته ولطفه وحسن اختياره.

وقال آخر: لا تعترض.. وسلم لربك، فقد فوضت أمرك إليه، ومن ضرورات التفويض الرضى التام باختيارات المفوض.

وقال آخر: كيف لك أن تعترض، وأنت عبد محض، والعبد المحض لا يسخط جريان أحكام سيده المشفق البار الناصح المحسن، بل يتلقاها بالرضى به وعنه.

وقال آخر: كيف لك أن تعترض، وأنت تدعي محبته، والمحب الصادق من رضي بما يعامله به حبيبه.

وقال آخر: لا تعترض.. فإنك باعتراضك تعبد الله على حرف، فتتلون كما تتلون رياح المقادير، والعبد الكامل ثابت على عبودية سيده، لا تزعزعه الرياح، ولا تجتثه عن غايته الأعاصير؟

وقال آخر: لا تعترض.. فإن أول معصية عصي الله بها في هذا العالم حصاد نبات الاعتراض، (فإبليس لم يرض بحكم الله الذي حكم به كونا من تفضيل آدم وتكريمه ولا بحكمه الديني من أمره بالسجود لآدم، وآدم لم يرض بما أبيح له من الجنة حتى ضم إليه الأكل من شجرة الحمى.

---

(١) أحمد والطبراني والحاكم عن ابن مسعود.

وقال آخر: لا تعترض.. فإن اعتراضك عن اختيار الله لك ناشئ من جهلك بالله، وأنه كلما قويت معرفتك صرت كالريشة في مهب الرياح، تقلبها الرياح كما شاءت، فلا تعترض ولا تختار.

قلت: لقد ذكرني هذا الصوت بوهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط، فقد اجتمعوا مرة يتذاكرون، فقال الثوري:(قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم، وأما اليوم فوددت أني ميت)، فقال له يوسف بن أسباط:(ولم؟)، فقال:(لما أتخوف من الفتنة)، فقال يوسف:(لكني لا أكره طول البقاء) فقال الثوري:(ولم تكره الموت) قال:(لعلي أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا) فقيل لوهيب:(أي شيء تقول أنت؟ فقال:(أنا لا أختار شيئا أحب ذلك إلي أحبه إلى الله) فقبل الثوري بين عينيه وقال:(روحانية ورب الكعبة)

وقال آخر: لا تعترض.. فإن من عرف أن البلايا من مولاه وسيده[1] الذي هو أرحم به من والدته ووالده، كيف يبقى له بالألم إحساس؟ أم كيف لا يتلذذ به كما يتلذذ بالنعمة سائر الناس؟

---

(١) ربما ترد شبهة هنا، وهي انه قد يظن أن للشيطان سلطة على عباد الله، وأن له القدرة على إذيتهم وربما يستدل لهذا بقوله ﷻ على لسان أيوب عليه السلام:﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾(ص:٤١)، وبما روي أن إبليس سأل ربه، فقال هل في عبيدك من لو سلطتني عليه يمتنع مني؟ فقال الله: نعم عبدي أيوب، فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى إبليس عيانا ولا يلتفت إليه، فقال: يا رب إنه قد امتنع علي فسلطني على ماله، وكان يجيئه ويقول له: هلك من مالك كذا وكذا، فيقول الله أعطى والله أخذ، ثم يحمد الله، فقال: يا رب إني أيوب لا يبالي بماله فسلطني على ولده، فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية، فجاءه وأخبره به فلم يلتفت إليه، فقال يا رب لا يبالي بماله وولده فسلطني على جسده، فأذن فيه، فنفخ في جلد أيوب، وحدثت أسقام عظيمة وآلام شديدة فيه، فمكث في ذلك البلاء سنين، حتى صار بحيث استقذره أهل بلده، فخرج إلى الصحراء وما كان يقرب منه أحد، فجاء الشيطان إلى امرأته، وقال لو أن زوجك استعان بي لخلصته من هذا البلاء، فذكرت المرأة ذلك لزوجها، فحلف بالله لئن عافاه الله ليجلدها مائة جلدة، وعند هذه الواقعة قال:﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾

وهذا خطأ عظيم، فالشيطان لا قدرة له على إيقاع الناس في الأمراض والآلام، بل هو أضعف من ذلك، والله أرحم بعباده من أن يسلمهم للشيطان، وقد قال ﷻ في بيان قدرات الشيطان وعلى لسانه:﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾(ابراهيم: من الآية٢٢)، ومما استدل به الفخر الرازي على رد تلك الشبهة:

١. أنا لو جوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان، فلعل الواحد منا إنما وجد الحياة بفعل الشيطان، ولعل كل ما حصل عندنا من الخيرات والسعادات، فقد حصل بفعل الشيطان، وحينئذ لا يكون لنا سبيل إلى أن نعرف أن معطي الحياة والموت والصحة والسقم هو الله تعالى.

٢. أن الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى في قتل الأنبياء والأولياء، ولم لا يخرب دورهم، ولم لا يقتل أولادكم.

قلت: لقد ذكرني هذا بقول الشاعر الصالح:

وخفف عني ما ألاقي من العنا   بأنك أنت المبتلي والمقدر

وما لامرئ عما قضى الله معدل   وليس له منه الذي يتخير

وبقول ابن عطاء الله:(ليخفف ألم البلاء عنك علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك، فالذي واجهتك منه الأقدار، هو الذي عودك حسن الاختيار)

وقال آخر: كيف تعترض، والله يراك ويسمعك، وهو ما أنزل عليك البلاء إلا ليختبر موقفك، فهل ترضى أن تسقط في الاختبار.

وقال آخر، وهو بديع الزمان: لا تعترض.. فإن السكون والهدوء والرتابة والعطالة نوع من العدم والضرر، وبعكسه الحركة والتبدل وجودٌ وخير، فالحياة تتكامل بالحركة، وتترقى بالبلايا، وتنال حركات مختلفة بتجليات الاسماء، وتتصفى وتتقوى وتنمو وتتسع، حتى تكون قلماً متحركاً لكتابة مقدراتها، وتفي بوظائفها، وتستحق الأجر الأخروي[1].

وقال آخر، وهو كذلك بديع الزمان، ولكن بصوت مختلف: لا تعترض.. واعلم انه ليس لك حق في الشكوى، بل عليك الشكر، عليك الصبر؛ لأن وجودك واعضاءك وأجهزتك ليست بـــملكك أنت، فانت لـــم تصنعها بنفسك، وانت لـــم تبتعها من اية شركة او مصنع ابتياعاً، فهي ملكٌ لآخر. ومالك تلك الاشياء يتصرف في ملكه كيف يشاء.

وقد أجاب على الاعتراض القائل بأنه « لم لا يجوز أن يقال إن الفاعل لهذه الأحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان؟ » بقوله:« إذا كان لا بد من الاعتراف بأن خالق تلك الآلام والأسقام هو الله تعالى، فأي فائدة في جعل الشيطان واسطة في ذلك؟ »

أما المراد من الإخبار بمس الشيطان، فإن القول الصحيح في ذلك هو أن المراد منه هو إلقاء الوساوس الفاسدة والخواطر الباطنة، وكل ذلك كان يضعه في أنواع العذاب والعناء، وقد اختلف القائلون بهذا في تلك الوساوس كيف كانت وذكروا فيه وجوها، منها:

١. أن علته كانت شديدة الألم، ثم طالت مدة تلك العلة، والشيطان كان يذكره النعم التي كانت والآفات التي حصلت، وكان يحتال في دفع تلك الوساوس، فلما قويت تلك الوساوس في قلبه خاف وتضرع إلى الله، وقال: ﴿ أني مسني الشيطـــان بنصب وعذاب ﴾ لأنه كلما كانت تلك الخواطر أكثر كان ألم قلبه منها أشد.

٢. أنها لما طالت مدة المرض جاءه الشيطان وكان يقنطه من ربه ويزين له أن يجزع فخاف من تأكد خاطر القنوط في قلبه فتضرع إلى الله تعالى وقال: ﴿ أني مسني الشيطـــان ﴾

٣. أن الشيطان لما قال لامرأته لو أطاعني زوجك أزلت عنه هذه الآفات فذكرت المرأة له ذلك، فغلب على ظنه أن الشيطان طمع في دينه فشق ذلك عليه فتضرع إلى الله تعالى وقال ذلك.

وكل هذا يمكن قبوله، ووراء هذا أقوال أخرى يجب تتريه الأنبياء عنها، ولا تصح روايتها.

(١) المكتوب الثاني عشر: ٥٤.

قلت: عهدي بك ــ يا إمام ــ تمثل لما تقول، فاضرب لي على ذلك مثالا.

قال: هب أن صانعاً ثرياً ماهراً بكلـّف رجلاً فقيراً لقاء أجرة معينة ليقوم له لمدة ساعة بدور الـنموذج، لإظهار صنعته الجميلة وثروته القيمة، فيكلفه بلبس القميص المزركش الذي حاكه، والحلة القشيبة الـمرصعة التي نسجها، ويطلب منه أن يظهر أوضاعاً وأشكالاً شتى لبيان خوارق صنعته وبدائع مهارته، فيقصّ ويبدل، ويطوّل، ويقصر، وهكذا..

فهل يـحق لذلك الفقير الاجير ان يقول لذلك الصانع الـماهر:(إنك تتعبني وترهقني وتضيّق عليّ بطلبك مني الانحناء مرة والاعتدال أخرى.. وانك تشوّه الجمال المتألق على هذا القميص الذي يجمّل هندامي ويزيّن قامتي بقصّك وتقصيرك له.. إنك تظلمني ولا تنصفني؟)

قلت: فأنزل هذا المثل على ما نحن فيه.

قال: هكذا الأمر بالنسبة للصانع الجليل سبحانه وتعالى – ولله الـمثل الاعلى – الذي البسك أيها المريض قميص الجسد، وأودع فيه الحواس النورانية المرصعة كالعين والأذن والعقل، فلأجل اظهار نقوش اسـمائه الـحسنى، يبدّلك ضمن حالات متنوعة ويضعك في اوضاع مـختلفة. فكما انك تتعرف على اسـمه (الرزاق) بتجرعك مرارة الـجوع، تتعرف على اسـمه (الشافي) بـمرضك[1].

سمعت صوتا آخر يقول: لم يختر الله لك إلا ما يصلح.. فلا تطلب ما لا يصلح لك.

قلت: لقد ذكرني هذا بقوله ﷺ في الأثر الإلهي:(إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه)[2]

قال المعلم، وقد رأى استرواحي لسكوني: قم لنسر إلى قاعة أخرى من هذا المستشفى.

قلت: دعني ــ يا معلم ــ لأسمع لجميع هذه الأصوات، فقد ملأت نفسي سكينة.

قال: لو ظللت تسمعها دهرك جميعا ما خرجت، فكل الكون، وكل حقائق الوجود تدعوك إلى السكون إلى الله.. فارحل.. فلا ينبغي أن تسكن لغير الله.

---

(١) الكلمات: الكلمة السادسة والعشرون: ٥٥٤.

(٢) الخطيب في التاريخ وغيره.

٢ ــ الغيبة بنعم الله

دخلنا القسم الثاني من أقسام الغيبة، وهو قسم (الغيبة بنعم الله)، وقد كتب على بابه قوله تعالى:﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (النحل:١٨) ورأيت داخل القاعة جوائز شتى، كل جائزة تشير إلى فضل من فضل الله ونعمة من نعمه.

قلت للمعلم: ما هذه الجوائز؟

قال: هذه جوائز الفضل الإلهي المخزنة في خزائن البلاء.

قلت: ألهذه الجوائز كانت تنظر امرأة فتح الموصلي، حين عثرت، وانقطع ظفرها، فضحكت، فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه.

قال: تلك جائزة من هذه الجوائز.

قلت: فكم هذه الجوائز؟

قال: هي كثيرة.. ولكن أي مريض يمر على هذا المستشفى ينال عشر جوائز، كل جائزة منها بالدنيا وما فيها.

قلت: ألهذا أمر الله تعالى بتبشير الصابرين، فقال تعالى:﴿ وَلَنَبْلُوَنكُم بِشَيء منَ الخَوف وَالجُوعِ وَنَقص منَ الأمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثمَرَاتِ وَبَشرِ الصابرينَ الذِينَ إذَا أَصَابَتهُم مصِيبَةٌ قَالُوا إنا لِلهِ وَإِنا إلَيهِ راجعونَ أُولَئِكَ عَلَيهِم صَلَوَاتٌ من ربهِم وَرَحمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ المُهتَدُونَ ﴾(البقرة:١٥٥-١٥٧)

قال: أجل.. فالبشارة لا تكون إلا على نعمة وفضل.

قلت: ألهذا ذكر الله تعالى كثرة الخير المخزن في طيات ما نكره، فقال تعالى:﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾(النساء: من الآية١٩)

قال: أجل، وقد قال الحسن ﷺ تعليقا على الآية:(لا تكرهوا الملمات الواقعة، فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تحبه فيه عطبك)

قلت: ألهذا بشر ﷺ المبتلين بأنهم سيكونون موضع غبطة الخلق يوم القيامة عندما يعاينون ما أعد الله لهم من جزاء، فقال :(يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض)[1]

(١) الترمذي كتاب الزهد رقم (٢٤٠٣) عن جابر وقال: هذا حديث غريب.

قال: فلذلك كان من الحزم الانشغال بالمكاسب وتقليل الخسائر.. فانظر إلى مكاسب بلائك، لتنسيك المكاسب ما خسرته من جسدك وراحتك.

قلت: لقد ذكرتني بتعداد شريح للمعاني الجمالية المصبوبة في قوالب البلاء، فقال:(إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للإسترجاع لما أرجو فيه من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني)

قال: هي أربع مكاسب، كل مكسب منها كاف في شغلك عن البلاء، وفي رسم الابتسامة في شفتيك بدل الأنين.

قلت: قرأت عن بعض الصالحين أنه برئ من علة كان فيها، فجلس للناس، وهنؤوه بالعافية، فلما فرغ الناس من كلامهم، قال:(إن في العلل لنعماً لا ينبغي للعاقل أن يجهلها: تمحيص للذنب، وتعرض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وإذكار بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للمثوبة، وحض على الصدقة، وفي قضاء الله وقدره بعد، الخيار)

قال: فللنطلق من هذه المعاني لننال هذه الجوائز العشرة.

قلت: وما هي؟

قال: التمييز، والتمحيص، والتأديب، والتذكير، والافتقار، والمحدودية، والسكينة، والتطهير، والمعاينة، والثواب.

نعمة التمييز

قلت: فما نعمة التمييز؟

قال: هي ما أشار إليه قوله تعالى:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ[1]اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾(آل عمران:١٤٢)، وقوله تعالى:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(التوبة:١٦)

قلت: فما وجه الإشارة إلى هذه النعمة؟

قال: الله تعالى يبتلي خلقه بأصناف البلاء ليميز المحق من المبطل، والطيب من الخبيث.

قلت: فما سر ذلك؟

قال: الله تعالى بحكمته جعل هذه الدار محلا لاختبار عباده، ليترل كل واحد منهم ــ في النشأة الآخرة ــ المحل الذي ينسجم مع طبيعته، وتبرزه أهليته، فلذلك كانت هذه الدار هي دار التمييز التي يتميز فيها المحسن من المفسد، والراضي من الساخط[2].

قلت: ولكن الله يعلم بأحوال عباده محسنهم ومسيئهم، وراضيهم وساخطهم.

قال: ولكنه لعدله لا يكتفي بعلمه، بل يجعل من أعمال العباد حجة لهم أو عليهم.

قلت: فما وجه كون التمييز نعمة؟

قال: دخل جماعة على الشبلي، وهو في مارستان قد حبس فيه، وقد جمع بين يديه حجارة، فقال: من أنتم؟ فقالوا: محبوك، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال: ما بالكم ادعيتم محبتي إن صدقتم فاصبروا على بلائي.

قلت: لم أفهم هذا المثال.

قال: فاسمع للجنيد يقربه لك، فقد قال: كنت نائما عند سري رحمه الله، فانبهني فقال لي:(يا جنيد، رأيت كأني قد وقفت بين يدي الله تعالى فقال لي: يا سري خلقت الخلق فكلهم ادعى

---

(١) هذه التعبيرات وأشباهها في القرآن الكريم لا تعني عدم علم الله بالشيء قبل حصوله، وإنما تعني تحققه الواقعي، ويشبه هذا ــ كما يذكر الشيرازي ــ علم المهندس بكل تفاصيل البناء عند وضعه التصميم. ثم يتحول التصميم الى بناء عملي. والمهندس يقول حين ينفذ تصميمه على الارض: اريد ان ارى عمليا ما كان في علمي نظريا.

وقد فصلنا الحديث عن هذه الشبهة في رسالة:« أسرار الأقدار »

(٢) وهذا كما ينص عليه قوله ﷻ:﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(لأنفال:٣٧)

محبتي، وخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم، وبقي معي العشر، وخلقت الجنة فهرب مني تسعة اعشار العشر، وبقي معي عشر العشر، فسلطت عليهم ذرة من البلاء، فهرب مني تسعة اعشار عشر العشر، فقلت للباقين: معي، لا الدنيا اردتم، ولا الجنة اخذتم ولا من النار هربتم، فماذا تريدون، قالوا: انك تعلم ما نريد، فقلت لهم: فاني مسلط عليكم من البلاء بعدد انفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسي اتصبرون؟ قالوا: اذا كنت انت المبتلي لنا، فافعل ما شئت فهؤلاء عبادي حقا)

قلت: لا يزال عقلي كالا دون فهم وجه كون التمييز نعمة.

قال: فقد قال الفضيل بن عياض ﷺ :(الناس ما داموا في عافية مستورون، فإذا نزل بهم بلاء صاروا إلى حقائقهم؛ فصار المؤمن إلى إيمانه، وصار المنافق إلى نفاقه)

قلت: فما وجه النعمة في هذا، بل إن هذا بلاء.. محض بلاء؟

قال: أرأيت لو جاورك في بيتك الأدنى من لا تطيق عشرته.. أترضى بذلك؟

قلت: لا.. بل إني سأرحل عنه..

قال: ولو خسرت مالك.

قلت: ولو خسرت مالي..

قال: لم؟

قلت: طلبا للراحة منه.

قال: فهذا مترل محدود.. لأمد معدود.. فكيف بالمجاورة المستمرة الدائمة التي لا حدود لها.

قلت: الكامل لا يرضى صحبة الناقص، والطيب لا يطيق معاشرة الخبيث.

قال: ولذلك كان التمييز الذي يحصل في الآخرة بين الأجناس والأنواع نعمة من النعم العظمى التي يستشعرها المؤمنون، فلا يدخل الجنة إلا الطيبون، بل إنهم في نفس الجنة متميزون بحسب مراتبهم ودرجاتهم.

قلت: لقد ذكرتني بحكمة جليلة لابن القيم في هذا المعنى يقول فيها:(يا مخنث العزم أين أنت، والطريق طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورمى في النار الخليل، وأضجع للذبح اسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ وتزها أنت باللهو واللعب:

فيا دارها بالحزن إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال)[1]

قال: ولهذا يبين القرآن الكريم المواقف المختلفة من أنواع البلاء، ففي موقف الخوف مثلا يخبر تعالى عن صنفين من الناس:

أما الأول، وهو الناجح في الاختبار، فيذكر تعالى وقوفه كالطود الأشمّ أمام كل المخاوف، قال تعالى:﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(آل عمران:١٧٣)

وأما غيرهم من الجبناء الساقطين في الاختبار فقد قال تعالى في شأنهم:﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾(المائدة: من الآية٥٢)

وقد أخبر تعالى عن الناجحين في الاختبار بأنه من المنعم عليهم، قال تعالى:﴿ قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(المائدة:٢٣)، وهذا في مقابلة الساقطين الجبناء الذين قالوا:﴿ يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾(المائدة:٢٢)، وقالوا بكل تبجح:﴿ يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة: من الآية٢٤)

وهكذا في كل المواقف، نجد المؤمنين الصادقين الناجحين فيما أنعم به عليهم من البلاء، ونجد الراسبين الساقطين في الامتحان الذين قال تعالى في شأنهم:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾(الحج:١١)

فهذا الخاسر لا يعبد الله في الحقيقة وإنما يعبد أهواءه التي قد تتفق أحيانا مع ما يأمر به الله، فيتوهم الخلق أنه يعبد الله، فلذلك يبتلى بما يظهر حقيقته، ويكشف عن سريرته.

---

(١) الفوائد: ٤٥.

نعمة التمحيص

قلت: فما نعمة التمحيص؟

قال: هي التي أشار إليها قوله تعالى:﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤١)، فقد أخبر تعالى أن العلة في البلاء الذي حصل للمؤمنين هو تمحيصهم، كما أن علة البلاء الحال بغيرهم هو محقهم.

قلت: فما التمحيص[1]؟

قال: هو التنقية والتطهير والتمييز لتظهر أهلية كل واحد منهم ما يستحقه من جزاء.

قلت: فما يظهر تلك الأهلية؟

قال: لا تبرز الأهلية إلا بأسياف البلاء، ورياح الفتن، وأنواع التمحيص، فالدعاوى سهلة، ولكن الصعب إثباتها، ولذلك رد الله تعالى على من حسبوا الأمر سهلا، تكفي فيه مجرد الدعاوى، فقال تعالى:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(البقرة:٢١٤)

قلت: ولكن هذه الآية نزلت في محل خاص.

قال: ولكنها في حقيقتها تفسر سنة الله في تمحيص عباده ليبرز كل شخص ما في صدره من تسليم أو اعتراض، أو عبودية أو ربوبية، كما قال تعالى:﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(آل عمران: من الآية١٥٤)

فالقلب كالمجتمع كلاهما يحتاج إلى أنواع البلاء والمحن والفتن التي تميز الطيب عن الخبيث، والطاهر من النجس.

سمعت صوتا كأني أعرفه، قلت: ما هذا الصوت يا معلم؟

قال: هذا صوت سيد.

قلت: أهو طبيب من أطباء هذا المستشفى؟

قال: كل الأولياء أطباء بهذا المستشفى.

---

(١) والمحص: في اللغة التنقية، والمحق في اللغة النقصان، وقال المفضل: هو أن يذهب الشيء كله حتى لا يرى منه شيء، ومنه قوله ﷻ:﴿ يمحق الله الربا﴾(البقرة: ٢٧٦) أي يستأصله.

قلت: فما الذي جعله يتكلم الآن؟

قال: سمع قراءتنا للآية، فأراد أن يتحدث عنها، فأصخ سمعك إليه.

قال سيد: التمحيص درجة بعد الفرز والتمييز.. التمحيص عملية تتم في داخل النفس، وفي مكنون الضمير.. إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية، وتسليط الضوء على هذه المكنونات، تمهيدا لإخراج الدخل والدغل والأوشاب، وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق، بلا غبش ولا ضباب.

قلت: فما الحاجة إليه؟

قال: كثيرا ما يجهل الإنسان نفسه، ومخابئها ودروبها ومنحنياتها. وكثيرا ما يجهل حقيقة ضعفها وقوتها، وحقيقة ما استكن فيها من رواسب، لا تظهر إلا بمثير !

وفي هذا التمحيص الذي يتولاه الله - سبحانه - بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء، يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير:محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية.

فقد يظن الإنسان في نفسه القدرة والشجاعة والتجرد والخلاص من الشح والحرص.. ثم إذا هو يكشف - على ضوء التجربة العملية، وفي مواجهة الأحداث الواقعية - إن في نفسه عقابيل لم تمحص، وأنه لم يتهيأ لمثل هذا المستوى من الضغوط ! ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه، ليعاود المحاولة في سبكها من جديد[1].

قلت: ألهذا كان الألم علاجا مشخصا للأدواء؟

قال: أجل.. وهو في ذلك كتلك المحاليل الكاشفة التي تميز أنواع العناصر، ليتبين الأصيل من الدخيل، وتتميز الصحة عن المرض.

قلت: فما وجه كونه نعمة؟

قال: لا يمكن العلاج إلا بالتشخيص، فمن السهل ادعاء الصبر، ومن الصعب التحقق به، فلذلك كان التمحيص مقدمة للتأديب.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤٨٢/١.

نعمة التأديب

قلت: فما نعمة التأديب؟

قال: هي التي أشار إليها قوله تعالى:﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الانبياء:٨٧)

قلت: فما وجه الإشارة فيها؟

قال: لقد جعل الله البلاء الذي حل بيونس عليه السلام مؤدبا له، وزاجرا عما وقع فيه.

قلت: فيمكن لهذا الاستشهاد بما وقع لآدم عليه السلام من أكله من الشجرة بعد أن نهي عنها.

قال: أجل.. فقد ابتلي ليؤدب أمام أوامر ربه، وليعرف مدى عداوة الشيطان له، فكان ظاهر بلائه نقمة، وباطنه رحمة، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(لأعراف: من الآية٢٢)

قلت: ولكنه ـــ مع ذلك ـــ وللأسف ـــ خرج من الجنة.

قال: من أكبر نعم الله على آدم عليه السلام أنه خرج من الجنة.

قلت: ما هذا ـــ يا معلم ـــ أكانت الجنة نارا حتى يكون خروجه منها نعمة؟

قال: لم تكن نارا، ولكن سكونه إليها هو النار.. لقد انقلب آدم عليه السلام بعد خروجه من الجنة شخصا آخر.

قلت: كيف.. فآدم الذي دخل الجنة، هو آدم الذي خرج منها.

قال: ولكنه ـــ عندما خرج منها بأسياف البلاء ـــ تحقق فيه ما أريد منه من منصب الخلافة العظيم الذي خلق له.

قلت: لقد ذكرتني بكلام لابن القيم على لسان الحضرة الإلهية يقول فيه مخاطبا آدم عليه السلام:(يا آدم لا تجزع من قولي لك:﴿ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾(لأعراف: من الآية٢٤)، فلك ولصالح ذريتك خلقتها.. يا آدم كنت تدخل علي دخول الملوك على الملوك، واليوم تدخل علي دخول العبيد على الملوك.. يا آدم لا تجزع من قولي لك:﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُم﴾(البقرة: من الآية٢١٦)) [1]

---

(١) الفوائد:٣٥.

قال: ولهذا ورد في النصوص الإخبار بابتلاء الله لعباده بسبب الذنوب التي يقعون فيها، وهو ابتلاء يشبه تماما تقريع المعلم لتلميذه رادعا له ومؤديا، وقد قال تعالى:﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾(الشورى:٣٠)، فالآية الكريمة تبيّن بوضوح أن المصائب التي تصيب الإنسان هي نوع من التحذير والعقاب الإلهي إلا ما كان من البلاء المتعلق بالمقربين من الأنبياء والصديقين، فله نواح أخرى غير هذا.

قلت: لقد روي عن الحسن ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ:(ما من اختلاج عرق ولا خدش عود ولا نكبة حجر إلا بذنب ولما يعفو الله عنه أكثر)[1]، وقال مجاهد:(ما أصاب العبد من بلاء في جسده فهو لذنب اكتسبه، وما عاقب الله عليه في الدنيا فالله أعدل أن يعود في العقاب على عبده؛ وما عفا الله عنه فهو أكرم من أن يعود في شيء عفا عنه)

قلت: فما وجه كون التأديب نعمة؟

قال: لقد كانت ملاحظة الصديقين ﷺ لهذا سبب سرور عظيم، فقد لحظوا عناية الله بهم وتأديبه لهم، وغابوا بهما عن ألم الأنين الذي حل بهم.

ولهذا قال علي بن أبي طالب ﷺ:(ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها النبي ﷺ:﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾(الشورى:٣٠)، ثم قال:(يا علي ما أصابكم من مرض أوعقوبة أوبلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه)[2]

وقال الحسنﷺ: دخلنا على عمران بن حصين ﷺ فقال رجل: لا بد أن أسألك عما أرى بك من الوجع؛ فقال عمران:(يا أخي لا تفعل ! فوالله إني لأحب الوجع ومن أحبه كان أحب الناس إلى الله)، ثم قرأ الآية السابقة.

وقال مُرَّة الهمذاني: رأيت على ظهر كف شريح قرحه فقلت: يا أبا أمية، ما هذا؟ قال: هذا بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير.

وقال ابن عون: إن محمد بن سيرين لما ركبه الدين اغتم لذلك فقال: إني لا أعرف هذا الغم، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة.

---

(١) ابن عساكر.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً، ورواه مرفوعاً من وجه آخر.

وقال أحمد بن أبي الحواري: قيل لأبي سليمان الداراني: ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمن أساء إليهم؟ فقال: لأنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم، قال الله تعالى:﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾(الشورى:٣٠)

قلت: إني أرى البلاء لا ينزل على الأفراد فقط، بل هو يعدوها إلى المجتمعات، فهل هو من التأديب؟

قال: أجل.. فإن الله برحمته ولطفه وحكمته يرسل تنبيهاته للمجتمعات حتى تعود إلى ربها وتتأدب بين يديه، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى:﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(الروم:٤١)، وهذا يدل على كون هذا سنة اجتماعية.

وفي قوله تعالى:﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ تنبيه إلى أن العلة في ذلك ليس الانتقام وإنما التأديب، فما:﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾(النساء:١٤٧)

ويشير إلى هذا قوله تعالى:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(لأنفال:٥٣)، وقولهتعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾(الرعد: من الآية١١)

قلت: لقد ذكرتني بما يقول أهل الأدب في هذا، فقد قال بعضهم:(المحن آداب الله عز وجل لخلقه، وتأديب الله بفتح القلوب، والأسماع، والأبصار)

وكتب آخر إلى صديق له في محنة لحقته:(إن الله تعالى ليمتحن العبد، ليكثر التواضع له، والاستعانة به، ويجدد الشكر على ما يوليه من كفايته، ويأخذ بيده في شدته، لن دوام النعم والعافية، يبطران الإنسان، حتى يعجب بنفسه، ويعدل عن ذكر ربه، وقد قال الشاعر:

لا يترك اللّه عبداً ليس يذكره ... ممن يؤدّبه أو من يؤنّبه

أو نعمة تقتضي شكراً يدوم له ... أو نقمة حين ينسى الشكر تنكبه

قال: فالبلاء مدرسة من مدارس الله لتأديب عباده.. ألا تدربون جنودكم بالجوع والعطش؟

قلت: بلى.. بل لا يصح أن يحمل جندي اسم الجندية إلا إذا جاع وعطش ونزلت به كل المصائب.

قال: لم؟

قلت: ليتمرن، وتمتلئ نفسه صبرا، وقلبه شجاعة.

قال: فكذلك رحمة الله اقتضت أن يذيقكم بعض البلاء ليتربى في نفوسكم ما يعجز الترف على تربيته.

نعمة التذكير

قلت: فما نعمة التذكير؟

قال: هي التي أشار إليها قوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾(فاطر: من الآية٣٧)، فمن الأقوال في تفسيرها أن المراد بالنذر[1] الأمراض[2].

قلت: لقد ورد في هذا حديث لا أدري مدى صحته، هو:(الحمى رائد الموت، وسجن الله في الأرض)[3]، وقد قال الأزهري مفسرا معناه: معناه أن الحمى رسول الموت، أي كأنها تشعر بقدومه وتنذر بمجيئه[4].

قال: وقد ورد في الآثار ما يدل على هذا المعنى أيضا، فقد روي أن بعض الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ قال لملك الموت عليه السلام: أمالك رسول تقدمه بين يديك ليكون الناس على حذر منك؟ قال: نعم، لي والله رسل كثيرة من الإعلال والأمراض والشيب والهموم وتغير السمع والبصر، فإذا لم يتذكر من نزل به ولم يتب، فإذا قبضته ناديته: ألم أقدم إليك رسولاً بعد رسول ونذيراً بعد نذير؟ فأنا الرسول الذي ليس بعدي رسول، وأنا النذير الذي ليس بعدي نذير، فما

---

(١) في قراءة: وجاءتكم النذر.

(٢) ومن الأقوال في تفسير الآية: أن النذير هو القرآن، وقيل الرسول؛ وقال ابن عباس وعكرمة وسفيان ووكيع والحسين بن الفضل والفراء والطبري: هو الشيب، وقيل: النذير الحمى، وقيل: موت الأهل والأقارب، وقيل: كمال العقل.

وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تعارض بينها، فالشيب نذير، لأنه يأتي في سن الاكتهال، قال الشاعر:

رأيت الشيب من نذر المنايا ... لصاحبه وحسبك من نذير

وقال آخر:

فقلت لها المشيب نذير عمري ... ولست مسودا وجه النذير

وأما موت الأهل والأقارب والأصحاب والإخوان فإنذار بالرحيل في كل وقت وأوان، قال الشاعر:

وأراك تحملهم ولست تردهم ... فكأنني بك قد حملت فلم ترد

وقال آخر:

الموت في كل حين ينشر الكفنا ... ونحن في غفلة عما يراد بنا

وأما كمال العقل فبه تعرف حقائق الأمور، فالعاقل يعمل لآخرته ويرغب فيما عند ربه؛ فهو نذير.

وأما محمد ﷺ فبعثه الله بشيرا ونذيرا إلى عباده قطعا لحججهم؛ قال الله ﷻ:﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(النساء: من الآية١٦٥انظر: القرطبي: ٣٥٤/١٤.

(٣) ابن السني وأبو نعيم في الطب عن أنس.

(٤) تبين علميا أنه عند الإصابة بالحمى ذات الحرارة الشديدة التي قد تصل إلى ٤١ درجة مئوية والتي وصفها ﷺ بأنها من فيح جهنم وقد يؤدي ذلك إلى هياج شديد ثم هبوط عام وغيبوبة تكون سببا في الوفاة، انظر: الإعجاز العلمي في الإسلام والسنة النبوية " لمحمد كامل عبد الصمد.

من يوم تطلع فيه شمس ولا تغرب إلا وملك الموت ينادي: يا أبناء الأربعين، هذا وقت أخذ الزاد، أذهانكم حاضرة و أعضاؤكم قوية شداد. يا أبناء الخمسين قد دنا وقت الأخذ والحصاد، يا أبناء الستين نسيتم العقاب وغفلتم عن رد الجواب فما لكم من نصير:﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾(فاطر: من الآية٣٧))[1]

قلت: فما وجه كون التذكير بهذا نعمة؟

قال: إذا علم المؤمن بقرب أجله سارع إلى المبادرة، قبل أن يفوت الأوان.. وليس ذلك فقط، بل إن البلاء في صوره المؤلمة يجعل صاحبه يقلع عما هو فيه من الغي، فلا يلقى الله وهو في سكرات غيه.

قلت: لقد ذكرتني ببديع الزمان حين قال..

ضحك، وقال مقاطعا لي: لا تحتاج لأن تذكره، فهو طبيب بصير من أطباء هذا المستشفى، فأصخ بصيرتك لتسمع إليه.

قال بديع الزمان: ثم إن الشيخوخة والمرض والبلاء، وما يحدث من وفيات هنا وهناك، تقطّر ذلك الألم المرير إلى نفس كل إنسان، وتُنذره دوماً بمصيره المحتوم، فلا جرم أن أولئك الضالين وأرباب السفاهة والمجون سيتأجج في قلوبهم جحيمٌ معنوي، يعذبهم بلظاه حتى لو تمتعوا بمباهج الدنيا ولذائذها، بيد أن الغفلة وحدها هي التي تحول دون استشعارهم ذلك العذاب الأليم[2].

قلت: الله !.. ما أدق بصيرته ! وما أحد نظره !

قال: أصخ سمعك ولا تقاطعه.

أصخت سمعي، فإذا به يقول، وكأنه يخاطب مريضا متألما يذكره بالكنوز المخبأة في طيات المرض: أيها المسكين الشاكي من المرض! إن المرض يغدو كنزاً عظيماً لبعض الناس، وهدية إلهية ثمينة لهم.. وباستطاعة كل مريض أن يتصور مرضه من هذا النوع، حيث أن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الأجلُ مجهولاً وقته، إنقاذاً للإنسان من اليأس المطلق أو من الغفلة المطلقة، وإبقاءاً له بين الخوف والرجاء، حفظاً لدنياه وآخرته من السقوط في هاوية الخسران.. أي أن الأجل متوقع مجيئه كل حين، فإن تمكّن من الإنسان وهو سادر في غفلته يكّبده خسائر فادحة في حياته الأخروية الأبدية. فالمرض يبدد تلك الغفلة ويشتتها، وبالتالي يذكّر بالآخرة ويستحضر

---

(١) ذكره ابن الجوزي في كتاب:« روضة المشتاق والطريق إلى الملك الخلاق»

(٢) الكلمة الثالثة عشرة – ص: ١٥٨

الموت في الذهن فيتأهب له. بل يحدث أن يربّحه ربحاً عظيماً، فيفوز خلال عشرين يوماً بما قد يستعصي استحصاله خلال عشرين سنة كاملة[1].

قلت: يا بديع الزمان.. يا من تنور هذا المستشفى ببصيرته.. أخبرني بمثال على ذلك تثبت به قلبي.. فقد عهدتك صاحب أمثلة.

قال: كان هناك فَتَيان – يرحمهما الله –، ورغم كونهما أُميين من بين طلابي، فقد كنتُ ألحظُ بإعجاب موقعَهما في الصف الأول في الوفاء والصدق وفي خدمة الايمان، فلم أدرك حكمة ذلك في حينها، ولكن بعد وفاتهما علمت انهما كانا يعانيان من دائين عضالين، وبإرشاد من ذلك المرض أصبحا على تـــقوى عظيمة يسعيان في خدمة راقية، وفي وضع نافع لآخرتهما، على خلاف سائر الشباب الغافلين الساهين حتى عـــن فرائضهـــم، فنسأل الله أن تـــكون سنتا المرض والمعاناة اللتان قضيـــاهما في الحياة الدنيا قد تحولتا الى ملايين السنين من سعادة الحياة الابدية [2].

ثم سكت برهة، وقال: ومالي أذهب إلى أصحابي.. سأحدثك عن نفسي.. (حينما وطأت قدماي عتبة الشيخوخة، كانت صحتي الجسدية التي ترخي عنان الغفلة وتمدّها قد اعتلّت أيضاً فاتفقت الشيخوخة والمرض معاً على شن الهجوم عليّ، وما زالا يكيلان على رأسي الضربات تلو الضربات حتى أذهبا نوم الغفلة عنّي. ولم يكن لي ثمة ما يربطني بالدنيا من مال وبنين وما شابههما، فوجدت أن عصارة عمري الذي أضعته بغفلة الشباب، إنما هي آثام وذنوب، فاستغثتُ صائحاً مثلما صاح نيازي المصري:

ذهب العُمر هباءً، لـــم أفز فيه بشيء
ولقد جئت أسير الدرب، لكنْ
رحل الرّكبُ بعيداً وبقيتْ
ذلك النائي الغريب وبكيتْ
همتُ وحدي تائهاً أطوي الطريق
وبعينيّ ينابيع الدموع
وبصدري حرقة الشوق

---

(١) اللمعة الخامسة والعشرون: ٣٢٦، بتصرف.
(٢) اللمعة الخامسة والعشرون: ٣٢٦.

حار عقلي..!)[1]

(١) اللمعة السادسة والعشرون: ٣٤٥.

نعمة الافتقار

قلت: فما نعمة الافتقار؟

قال: هي التي أشار إليها قوله تعالى:﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(العلق:٦ ــ ٧)

قلت: لقد أخبر تعالى بأن رؤية الإنسان لغناه، تجعله طاغية ظالما متعديا لحدوده.

قال: ولذلك يكون الافتقار، وكل ما يؤدي إليه نعمة من النعم تخلص الإنسان من الطغيان، وتعيده إلى وضعه الطبيعي.

قلت: هذا تشير إليه آيات كثيرة، فالله تعالى يقول ــ وهو يبين سنة اجتماعية لا تكاد تتخلف ــ:﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾(الشورى:٢٧)

قال: هذه حقيقة لا تدل عليها النصوص فقط، بل يدل عليها الواقع.. واقع كل الناس، فهم إن عاشوا الترف نسوا الخالق والمخلوق.. وظلموا وبغوا.

قلت: لقد قد ذكر الفخر الرازي علة لكون التوسع موجبا للطغيان، فقال: (الإنسان متكبر بالطبع، فإذا وجد الغنى والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية وهو التكبر، وإذا وقع في شدة وبلية ومكروه انكسر فعاد إلى الطاعة والتواضع)[1]

قال: هذا صحيح، ولهذا كان من العقوبة التي تترل على عباد الله الغافلين أن تفتح عليهم زهرة الدنيا، ويفاض عليهم نعيمها، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾(الأنعام:٤٤)

ويروى في هذا عن رسول الله ﷺ أنه قال:(إذا رأيتم الله تعالى يعطي العباد ما يشاءون على معاصيهم فإنما ذلك استدراج منه لهم)، ثم تلا قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾(الأنعام:٤٤))[2]

---

(١) التفسير الكبير، وقد ذكر وجوها أخرى لا تصح منها:

١.أن الله تعالى لو سوى في الرزق بين الكل لامتنع كون البعض خادما للبعض ولو صار الأمر كذلك لخرب العالم وتعطلت المصالح.

٢.أن هذه الآية مختصة بالعرب فإنه كلما اتسع رزقهم ووجدوا من المطر ما يرويهم ومن الكلأ والعشب ما يشبعهم أقدموا على النهب والغارة.

(٢) ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر مرفوعاً.

قلت: فقد قيل: إن السبب الذي حمل فرعون على قوله:) أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ (النازعات:٢٤) طول العافية والغنى، فإنه لبث أربعمائة سنة لم يتصدع رأسه، و لم يضرب عليه عرق.

قال: لو أخذته الشقيقة ساعة واحدة لشغله ذلك عن دعوى الربوبية.

قلت: ألهذا لا يترل الله تعالى فرجه ابتداء في أكثر الأحوال؟

قال: أجل.. وهذا من رحمة الله بعباده.. لأن ما يأتيهم قبل الفرج من فضله الذي لم يلتفتوا إليه أعظم من الفرج نفسه.

قلت: هو يتركهم حتى يستشعروا فقرهم وحاجتهم الله.

قال: وحينذاك يفيض عليهم عطاؤه وغيثه.

قلت: لقد ذكر تعالى ذلك، فقال:﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾(الشورى:٢٨)، وقال:﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾(الروم:٤٩)، وقال:﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الروم:٥٠)

قال: ولهذا، فإن المتوسمين من عباد الله يستدلون بوجود الفاقات على قرب الصدقات، لأن الفاقة تحقق صاحبها بالافتقار، والافتقار يؤهل صاحبه للفضل، قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب ﷺ: يا أمير المؤمنين قحط المطر، وقنط الناس، فقال عمر ﷺ: مطرتم، ثم قرأ قوله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾(الشورى:٢٨)،

قلت: فالفاقات إذن رسائل رحمة؟

قال: هذا ما يفهمه العارفون منها، فهم يعتبرون أفعال الله ﷻ فيهم وفي غيرهم رسائل رحمة ومودة.. ولا يفهمون من تلك الأنات والبلايا إلا أنها حروف من الله تشهدهم وجود فاقتهم، وتشعرهم بحقيقتهم، لتشغلهم بالله عن أنفسهم.

قلت: لقد أشار ابن عطاء الله إلى هذا فقال:(خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك، وترد فيه إلى وجود ذلتك)

وأشار إلى هذا المعنى في الحكمة الأخرى بقوله:(فاقتك لك ذاتية، وورود الأسباب مذكرات لك بما خفي عليك منها، والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض)

قال: نعم، فإنه إذا علم العبد أن العدم سابق على وجوده، وأن وجوده مفتقر إلى المدد في كل وقت، وإلا تلاشى وانعدم، علم أن فاقته ذاتية، وأن الاضطرار لازم لوجوده، وأن ورود العلل المختلفة من الفقر والمرض مذكرات له بما خفي عليك من الفاقة الذاتية، فإن غالب الناس يغفلون عن الفاقة الذاتية إذا دامت عليهم صحة أبدانهم وكثرة أموالهم.

قلت: لقد تحدث بديع الزمان عما يحدثه البلاء من أنواع الفاقة والعجز، والتي تقرب المبتلى إلى ربه.

قال: فأصخ سمع بصيرتك إليه.. ألا تعلم أنه من أطباء هذا المستشفى؟

سمعت صوته، وهو يقول: إن البلايا والضر والأمراض تـجعل صاحبها يشعر بعجزه وضعفه، فيلتجيء إلى ربه الرحيم، ويتوجه اليه ويلوذ به، فيؤدي بهذا عبادة خالصة، هذه العبادة خالصة زكية لا يدخل فيها الرياء قط، فإذا ما تحمل المصاب بالصبر وفكّر في ثواب ضره عند الله وجـميل أجره عنده، وشكر ربه عليها، تـحولت عندئذ كل ساعة من ساعات عمره كأنها يوم من العبادة، فيغدو عمره القصير جداً مديداً طويلاً، بل تتـحول – عند بعضهم – كل دقيقة من دقائق عمره بـمثابة يوم من العبادة.

قلت: فالبلاء إذن ـــ يا بديع الزمان ـــ مسجد من مساجد العبودية ومحراب من محاريبها؟

قال: ليس هذا فقط، بل هناك حكم أجل يبرزها فقر الإنسان، لها علاقة بالعرفان.

قلت: أفقر الإنسان يعرفه بالله؟

قال: بل يوصله إليه.

قلت: كيف ذلك؟

قال:(ان الله سبحانه قد أدرج في الانسان عجزاً لا حد له، وفقراً لانهاية له، إظهاراً لقدرته الـمطلقة وإبرازاً لرحمته الواسعة. وقد خلقه على صورة معينة بـحيث يتألم بما لا يحصى من الجهات، كما أنه يتلذذ بما لا يعد من الجهات، إظهاراً للنقوش الكثيرة لأسمائه الحسنى. فابدعه سبـحانه على صورة ماكنة عجيبة تـحوي مئات الآلات والدواليب، لكل منها آلامها ولذائذها ومهمتها وثوابها وجزاؤها، فكأن الاسماء الإلـهية المتجلية في العالم الذي هو إنسان كبير تتجلى أكثرها أيضاً في هذا الانسان الذي هو عالم أصغر، وكما أن ما فيه من أمور نافعة – كالصحة والعافية واللذائذ وغيرها – تدفعه الى الشكر وتسوق تلك الـماكنة الى القيام بوظائفها من عدة جهات، حتى يغدو الانسان كأنه ماكنة شكر. كذلك الامر في المصائب والأمراض والآلام وسائر المؤثرات المهيجة والمحركة، تسوق الدواليب الأخرى لتلك الماكنة الى

العمل والحركة وتثيرها من مكمنها فتفجّر كنوز العجز والضعف والفقر الـــمندرجة في الـــماهية الانسانية. فلا تـــمنـــح الـــمصائبُ الانسانَ الالتـــجاء الى البارىء بلسان واحد، بل تـــجعلـــه يلتـــجيء اليه ويستغيثه بلسان كل عضو من أعضائه)[1]

قلت: هذه نعم جليلة ينبتها غرس البلاء، المضمخ بعطر الافتقار.

قال: ليس هذا فقط بل إنه يلقن المريض أهم عرى الحياة الاجتماعية.. فهو لا يربطه بالله فقط، بل يربطه بالمجتمع أيضا.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لأنه نه ينقذ الانسان من الاستغناء عن الآخرين، ذلك الاستغناء الذي يسوق الى الوحشة ويجرد الانسان من الرحمة، فالنفس الأمارة الواقعة في شباك الاستغناء – الناجم عن الصحة والعافية – لن تشعر بالاحترام اللائق تجاه العلاقات الاخوية، ولن تحس بالرحمة والرأفة بالمبتلين بالمصائب والامراض الجديرين بالرحمة والعطف، ولكن متى ما انتاب الانسان المرض وأدرك مدى عجزه، ومدى فقره، تحت ضغوط المرض وآلامه وأثقاله فانه يشعر بالاحترام لأشقائه المؤمنين اللائقين بالاحترام الذين يقومون برعايته، أو الذين يأتون لعيادته، ويشعر كذلك بالرأفة الانسانية وهي خصلة إسلامية تجاه اهل المصائب والبلايا – قياساً على نفسه – فتفيض من قلبه الرحمة والرأفة بكل معناهما تجاههم، وتضطرم عنده الشفقة حارة ازاءهم، واذا استطاع قدّم لهم يد العون، وان لم يقدر عليه شرع بالدعاء لهم، أو بزيارتهم والاستفسار عن راحتهم وأحوالهم مؤدياً بذلك سنةً مشروعة كاسباً ثوابها العظيم)[2]

قلت: هنيئا للفقراء هذه النعم العظيمة التي يحملها فقرهم.

قال المعلم: ستعرف عند الرحلة لكنوز الفقراء كيف يطير الافتقار بالمؤمن، فلا يقف به إلا على باب الله تعالى، فيتوجه بكل كيانه إلى الرحيم الرحمن، كما يتوجه الصبي إلى أحضان أمه، فيكسب بالتجائه من اللذة ما ينسيه إلى كل ألم، بل يكون ذلك الألم هو طريق الأشواك القصير المحدود الذي أوصله إلى الجنان المزهرة.

قلت: لكانك تشير بقولك هذا، وبهذه الرحمة المكسوة بكساء الألم إلى قوله تعالى:﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾(الاسراء:٢٨)

---

(١) اللمعة الثانية: ١٩.

(٢) اللمعة الخامسة والعشرون: ٣٢٩.

قال: هذا صحيح، ولذلك كان في الافتقار الذي ينشئه البلاء لذة يشعر بها العارفون لا تقل عن لذة شعور الصبي بالأمن، وهو يعود إلى أحضان أمه الدافئة.

قلت: فهذا من معاني قوله تعالى:﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة: من الآية٢١٦)

قال: أجل.. وكل هذا المستشفى تفسير لهذا القول.

قلت: لقد ذكر ابن القيم حالا من أحوال العارفين أسماه (مشهد الذل والانكسار والخضوع والافتقار للرب تعالى)[1]، وقد ذكر فيه أن المؤمن في هذا المشهد يشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة تامة وافتقارا تاما إلى ربه ووليه ومن بيده صلاحه وفلاحه وهداه وسعادته، فيحصل لقلبه انكسار خاص لا يشبهه شيء، بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل الذى لا شيء فيه ولا به ولا منه ولا فيه منفعة ولا يرغب فى مثله وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقيمه.

وفي هذا المشهد يرى المؤمن العارف كل ما يأتيه من ربه خيرا، بل يرى أنه لا يستحق قليلا منه ولا كثيرا، فأي خير ناله من الله استكثره على نفسه، وعلم أن قدره دونه، وأن رحمة ربه هى التى اقتضت ذكره به وسياقته إليه.

ويذكر ابن القيم الجزاء الذي يناله هذا القلب المنكسر لله بقوله:(فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور، وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه، وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه، وذرة من هذا ونفس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدلين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم، وأحب القلوب إلى الله سبحانه قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة وملكته هذه الذلة، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه، لا يرفع رأسه إليه حياء وخجلا من الله)

قال: يعبر العارفون على ما ذكره ابن القيم بسجود القلب.

قلت: أجل.. لقد سئل سهل التستري ﷺ:(أيسجد القلب؟)، فقال:(نعم، يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء)

قال: فهذا السجود الخاشع الدائم الذي يسجده القلب لا يكون إلا بالافتقار إلى الله.

قلت: لقد ذكر ابن القيم لذلك مثلا رائعا، حيث مثل المشهد السابق برجل كان في كنف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس ويربيه أحسن التربية ويرقيه على درجات الكمال أتم ترقية، وهو القيم بمصالحه كلها، فبعثه أبوه في حاجة له، فخرج عليه فى طريقه عدو فأسره

---

(١) مدارج السالكين: ١/٤٢٨.

وكتفه وشده وثاقا، ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء فسامه سوء العذاب وعامله بضد ما كان أبوه يعامله به، فهو يتذكر تربية والده وإحسانه إليه الفينة بعد الفينة، فتهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأى حاله ويتذكر ما كان عليه وكل ما كان فيه.

فبينما هو في أسر عدوه يسومه سوء العذاب ويريد نحره في آخر الأمر إذ حانت منه التفاتة إلى نحو ديار أبيه فرأى أباه منه قريبا، فسعى إليه وألقى نفسه عليه وانطرح بين يديه يستغيث:(يا أبتاه يا أبتاه يا أبتاه.. انظر إلى ولدك وما هو فيه) ودموعه تستبق على خديه، قد اعتنقه والتزمه، وعدوه في طلبه حتى وقف على رأسه، وهو ملتزم لوالده ممسك به.

فهل يمكن لهذا الوالد أن يسلم ولده مع هذه الحال إلى عدوه، ويخلي بينه وبينه؟

فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده ومن الوالدة بولدها إذا فر عبد إليه وهرب من عدوه إليه وألقى بنفسه طريحا ببابه يمرغ خده في ثرى أعتابه باكيا بين يديه يقول:(يا رب يا رب ارحم من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مؤوي له سواك، ولا مغيث له سواك، مسكينك وفقيرك وسائلك ومؤملك ومرجيك لا ملجأ له ولا منجا له منك إلا إليك، أنت معاذه، وبك ملاذه، يا من ألوذ به فيما أؤمله، ومن أعوذ به مما أحاذره:

لا يجبر الناس عظما أنت كاسره   ولا يهيضون عظما أنت جابره

ويحكى في هذا عن بعض العارفين أنه قال:(دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها، فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام، فلم أتمكن من الدخول حتى جئت باب الذل والافتقار، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته، فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه)[1]

قال: لهذه الآثار الجميلة التي يحدثها البلاء في النفس، ومع الله، ومع المجتمع، كان الحمد لله والشكر له يخرج من أفواه الصالحين غضا طريا مشفوعا بالشعور بالمنة لاعتقادهم أن الله ما ابتلاهم ليعذبهم، وإنما ابتلاهم ليخلصهم من أوزار نفوسهم، وليجعلهم أهلا له، وقد روي في الخبر أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام:(إذا رأيت الفقر مقبلا إليك فقل: مرحبا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغني مقبلا إليك فقل: ذنب عجلت عقوبته)[2]

وكان فتح الموصلي إذا اشتد مرضه وجوعه يقول:(إلهي ابتليتني بالمرض والجوع، وكذلك تفعل بأوليائك، فبأي عمل أؤدي شكر ما أنعمت به علي)

---

(١) مدارج السالكين: ١/٤٣٠.

(٢) وهذا ــ طبعا ــ ليس على عمومه، بل له محله الخاص، وسنرى المعنى الصحيح لهذا الخبر في رسالة « كنوز الفقراء »

وقال مالك بن دينار: قلت لمحمد بن واسع: يا أبا عبد الله، طوبى لمن كانت له غليلة تقوته وتغنيه عن الناس، فقال لي:(يا أبا يحيى طوبى لمن أمسي وأصبح جائعا وهو عن الله راض)

وكان الفضيل بن عياض يقول:(إلهي أجعتني، وأجعت عيالي وتركتني في ظلم الليالي بلا مصباح، وإنما تفعل ذلك بأوليائك فبأي مترلة نلت هذا منك)

وسر ذلك هو خوف الصالحين من الاستدراج بالنعيم، كما قال الحسن:(والله ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخفف أن يكون قد مكر له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه. وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه خير له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه)

بل هذا ما صرح به ﷺ في قوله:(والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم)[1]

---

(١) أحمد والترمذي وابن ماجة عن عمرو بن عوف.

نعمة المحدودية

قلت: فما نعمة المحدودية؟

قال: من نعم الله العظيمة في البلاء كونه محدودا.

قلت: من أي الجهات كان محدودا؟

قال: من جهة محله، أو من جهة الزمن الذي يستمر فيه.

محل الألم:

قلت: فكيف كان البلاء محدودا من جهة المحل؟

قال: إن الله تعالى برحمته لم يبتل منك إلا أعضاء محدودة، أو محال محدودة، ورزقك بدلها من العوض ما يهون عليك ذلك الألم، أو ما تستأنس به بدل ذلك المفقود، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى:﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾(النساء:١٠٤)

قلت: فما وجه الإشارة في هذه الآية؟

قال: لقد رزق الله المؤمنين الرجاء عوضا عن الألم الذي أصابهم، وهو ما يخفف من حدة البلاء، ويجعله محدودا لا يتجاوز إلى أرواحهم التي هي محل الرجاء.

قلت: فهل تشير إلى هذا آيات أخرى؟

قال: أجل.. آيات كثيرة، فالله تعالى يقول:﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾(البقرة:١٥٥)

فقد ذكر تعالى أن البلاء يكون بشيء من الخوف والجوع، أي بقليل منهما، وبنقص من الأموال والانفس والثمرات، أي ذهاب بعضها فقط وبقاء البعض الآخر.

قلت: هذه إشارة جميلة ودقيقة.. ولكنها قد لا تفهم.

قال: إشارات القرآن الكريم لا يفهمها إلا المتدبرون.

قلت: فلنبسطها حتى يفهموها، ألم يجعل الله تعالى القرآن الكريم ميسرا للذكر.

قال: فالله تعالى ذكر في الآية أمرين: ذكر الابتلاء بصيغة المحدودية، وذكر التبشير بصيغة الإطلاق، فلم يحدد الجوائز المرتبطة بالبشارة.

قلت: لم؟

قال: لينمحق البلاء في البشارة، بالإضافة إلى انمحاقه في محدوديته.

قلت: فاضرب لي مثالا على ذلك.

قال: إذا جاز أن نمثل البلاء بشيء، فإن أقرب شيء إليه هو الحفرة التي تدمل الأرض بالجراح.

قلت: نعم هذا تقريب حسن، فالحفرة كالألم الذي أصاب جسد الإنسان.

قال: فإذا كانت الحفرة محدودة من حيث حجمها، ثم ملأناها بأكياس.. لا من الرمل.. بل من الذهب الخالص.. بل بما هو أشرف من الذهب وأغلى قيمة.. أيبقى للحفرة وجود؟

قلت: لو أن الأمر كذلك لتمنى صاحب الحفرة أن تكون حفرته أخدودا عظيما، بل بحرا عميقا، بل محيطا لا حدود له.

قال: الأمر كذلك.. ولكنكم لا تبصرون.

قلت: فهل هناك إشارة أخرى؟

قال: قوله تعالى:﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾(البقرة:١٢٤)، فقد أخبر الله تعالى بأنه ابتلى إبراهيم عليه السلام بكلمات، أي ببعض البلاء، لا بكل البلاء، ومثل ذلك ما ذكر من أنواع البلاء التي حصلت للأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ فهي كلها من البلاء المحدود، والذي ينتهي غالبا بالفرج التوسعة.

قلت: فهل هناك إشارة أخرى؟

قال: قوله تعالى:﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾(الشورى:٣٠)، فقد أخبر تعالى أن من أسباب المصائب الذنوب، وأنه برحمته لا يعاقب على كل الذنوب، بل لو عاقب عليها لما ترك على ظهرها من دابة، قال تعالى:﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾(فاطر: من الآية٤٥)

قلت: لقد ورد في تفسير الآية عن رسول الله ﷺ، ما رواه الحسن البصري رضي الله عنه، قال:(لما نزلت:﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾(الشورى:٣٠)، قال رسول اللّه ﷺ:(والذي نفس محمد بيده ما من خدش عود، ولا اختلاج عرق، ولا عثرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو اللّه عنه أكثر)[1]

وورد فيها ما رواه أبو جحيفة قال: دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يعيه؟ قال، فسألناه، فتلا هذه الآية:﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾(الشورى:٣٠)،، فقال: ما عاقب اللّه تعالى به في الدنيا، فاللّه

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري مرسلاً.

أحلم من أن يثني عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا اللّه عنه في الدنيا، فاللّه أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة)[1]

قال: فالبلاء بهذا يصبح محدودا غاية المحدودية.. لأنك لا تقارنه ببلاء مثله، وإنما تقارنه بقدرة الله التي لا تحد، مع مشيئته النافذة في خلقه، فالله مع كونه ابتلاك إلا أنه ابتلاك بشيء محدود لا قيمة له بجنب ما صرف عنك.

قلت: لقد ذكرتني بحكاية رجل الصالح حكى عنه مسروق، فقال: كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم والكلب يحرسهم، قال: فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا له وكان الرجل صالحاً فقال: عسى أن يكون خيراً، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال عسى أن يكون خيراً، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبـــي من حولهم وبقوا هم، قال: وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة، فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدّره الله تعالى.

فقد كانت هذه المصائب كبيرة في لحظة نزولها، ولكنها كانت بدلا عن مصائب أكبر، فنابت المصائب الصغيرة عن الكبيرة.

قال: بل أشار إلى هذا قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام حين خرق السفينة، وكانت مصيبة صغيرة أقل بكثير من أن يسلبوا السفينة، قال ﷻ:﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾(الكهف:٧٩)

أو حين قتل الغلام، وهو مصيبة كبيرة في نفسه، ولكنه صغيرة إذا ما قورن بنتيجته، قال ﷻ:﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾(الكهف:٨٠ ـــ٨١)

***

قلت: فهمت هذا.. وأدركت سر كونه نعمة.

قال: ليس هذا فقط.. بل إن من نعم هذه المصيبة التي حلت بك أنها كانت في الدنيا، ولم تكن في الدين، وكانت في الجسد، ولم تكن في الروح، وتعلقت بالدنيا، ولم تتعلق بالاخرة.

قلت: لا يفقه سر هذا إلا من عرف نسبة الدين إلى الدنيا، ونسبة الروح إلى الجسد، ونسبة النشأة الأولى إلى النشأة الآخرة.. فاضرب لي مثالا يقرب لي هذا المعنى.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً، ورواه مرفوعاً من وجه آخر.

قال: صاحب السيارة الذي تعرض لحادث، مات فيه من مات لكنه نجا، وتأثرت سيارته، فإن هذا وإن تأسف على ما أصابها، إلا أنه يحمد الله على أن المصيبة حلت بالسيارة، و لم تحل به.

قلت: هذا صحيح.. فكيف نطبق هذا المثل على ما نحن فيه؟

قال: لقد عرفنا أن الجسد مطية الروح ومركوبها، وأن غذاء الروح هو الدين، وسمها هو التعلق بالدنيا.

قلت: أجل.. وقد ذكرتني بكلام جميل لبديع الزمان في هذا.

سمعت صوته، وهو يقول:(إن المصيبة التي تعدّ مصيبة حقاً والتي هي مضرة فعلاً، هي التي تصيب الدين. فلابد من الالتجاء الى الله سبحانه والانطراح بين يديه والتضرع اليه دون انقطاع. أما المصائب التي لاتمس الدين فهي في حقيقة الامر ليست بمصائب، لأن قسماً منها تنبيه رحماني! يبعثه الله سبحانه الى عبده ليوقظه من غفلته.. أما القسم الآخر من المصائب فهو كفارة للذنوب، وقسم آخر أيضاً من المصائب هو منحة إلهية لتطمين القلب وافراغ السكينة فيه، وذلك بدفع الغفلة التي تصيب الإنسان، وإشعاره بعجزه وفقره الكامنين في جبلته)[1]

***

قال المعلم: وهناك ناحية أخرى مهمة يمكن الاعتبار منها هنا تخفف من البلاء وتجعله محدودا، بل تكاد تلغيه.

قلت: ما هي؟ فقد شوقتني.

قال: هي محدودية آلام الدنيا مهما عظمت بآلام الآخرة ومصائبها.

قلت: يشير إلى هذا المعنى آيات كثيرة، فالله تعالى يقول:﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ (الشعراء:٢٠٥ ــ ٢٠٧)، أي لو أخرناهم وأنظرناهم وأمهلناهم برهة من الدهر وحيناً من الزمان وإن طال، ثم جاءهم أمر اللّه، أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم.

قال: لأنهم في ذلك الحين يدركون قصر عمر الدنيا التي كانوا يتفانون من أجلها.

قلت: وقد دل على ذلك آيات كثيرة، فالله تعالى يقول:﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ﴾(الاحقاف: من الآية٣٥)، وقوله تعالى:﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾(النازعـــات:٤٦)

---

(١) اللمعة الثانية: ص ١٦. بتصرف.

قال: وقد أخبر ﷺ أنه (يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة ثم يقال له هل رأيت خيراً قط؟ هل رأيت نعيماً قط؟ فيقول: لا واللّه يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان في الدنيا، فيصبغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا واللّه يا رب)[1]، فلحظة واحدة في الجنة تنسي أشد الناس بؤسا في الدنيا كل ما عاناه فيها.

زمان الألم:

قلت: فهمت الناحية الأولى، وعرفت أثرها ووجه كونها نعمة، فما الناحية الثانية؟

قال: محدودية الزمان.

قلت: فسرها لي.

قال: هي ما أشار إليه قوله تعالى:﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(البقرة:١٥٦)

قلت: فما وجه الإشارة فيها؟

قال: كلمة الاسترجاع تحمل دلالة عظيمة على محدودية البلاء، فالمؤمن المبتلى سيرجع إلى ربه، وستنتهي برجوعه كل أصناف البلايا.

قلت: فاضرب لي مثالا على ذلك.

قال: أرأيت لو أن مسجونا سجن أياما معدودة.. وكان آمر السجن رحيما، فكان يرسل له كل يوم من يملؤه بالبشر، ويقول له:(إن هي إلا أيام وتعود إلى أهلك ومالك) ألا يستبشر هذا المسجود ويستأنس؟

قلت: بلى..

قال: فالله تعالى المبتلي لم يرسل لنا من يؤنسنا بذلك، بل هو الذي ملأنا بالأنس، فأخبرنا برجوعنا إليه ليمسح عنا كل دمعة، ويبرئ لنا كل جرح.

قلت: فهمت الإشارة.. فهل هناك إشارة أخرى؟

قال: قوله تعالى:﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾(الضحى:٤)

قلت: هذه الآية في تبشير رسول الله ﷺ.

قال: لا.. هذه الآية تبشر الكل.. تبشر كل من يسمع من الله.. فلا يصح أن نحجر على كلام الله.

قلت: فما فيها؟

---

(١) مسلم.

قال: ذكر الآخرة بعد ذكر البلاء يفيد عظم الجزاء الذي يشهدون المبتلون بعد أن تنقضي فترة بلائهم.

قلت: ألهذا التفت السحرة إلى المدة التي يمكن لفرعون أن يعذبهم فيها؟

قال: أجل، لقد وجدوها قصيرة لا تساوي شيئا أمام ما عند الله، فقالوا له عندما وضعهم في ذلك الخيار الصعب:﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾(طـــه:٧٢)

قلت: ولهذا يعبر تعالى عن عذاب الآخرة وبلائها بكونه:﴿ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾(طـــه: من الآية١٢٧)

قال: ليملأ القلوب المتألمة بالأنس بانتهاء عذابها المحدود.

قلت: لا ــ يا معلم ــ فهي آية تخويف لا تأنيس.

قال: هي تخويف وتأنيس.. هي كالزرع الذي يسقى بماء واحد، ويفضل بعضه على بعض في الأكل، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(الرعد:٤)

قلت: بلى.

قال: فذلك مطره النازل إلى الأرض، وهذا مطره النازل على القلوب.

قلت: فكيف يزرع هذا البسمة في القلوب المتألمة؟

قال: يروى أنّ يونس عليه السلام قال لجبريل: دلني على أعبد أهل الأرض، فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره، فسمعه وهو يقول: إلهي متعتني بهما ما شئت أنت، وسلبتني ما شئت أنت، وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول.

قلت: ما معنى هذا؟

قال: معناه ما صرح به باب مدينة العلم[1] رضي الله عنه فيما رواه عنه الأحنف بن قيس رضي الله عنه قال: ما سمعت بعد كلام رسول الله ﷺ أحسن من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حيث يقول:(إن للنكبات نهايات، لا بد لكل أحد إذا نكب من أن ينتهي إليها، فينبغي للعاقل إذا أصابته نكبة أن ينام لها حتى تنقضي مدتها، فإن في دفعها قبل انقضاء مدتها زيادة في مكروهها)

---

(١) إشاة إلى قوله ﷺ:« أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب » رواه ابن عدي والطبراني في الكبير، والحاكم.

قلت: لقد استشهد الأحنف ﷺ لهذا بقول الشاعر:

الـــــــــــدهر تخنــــــــــق أحيانــــــــــا قلادتـــــــــــه فاصـــــــــبر عليـــــــــه ولا تجـــــــــزع ولا تثـــــــــب

حـــــــــتى يفرجهـــــــــا في حـــــــــال مـــــــــدتها فقـــــــد يزيـــــــد اختناقـــــــا كـــــــل مضـــــــطرب

قال: وزيادة على هذا كله، فإن المؤمن لا يغفل بالنظر إلى البلاء الذي نزل به عن الرخاء الذي عاشه، والذي لا تزال ترتسم ذكرياته في ذهنه يستأنس بها.

قلت: ألهذا إشارة من القرآن الكريم؟

قال: أجل، قوله تعالى:﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾(التوبة: من الآية٢٥)، فقد وردت هذه الآية في موضع من مواضع الألم تذكرهم بأفضال الله السابقة لتملأهم أنسا بها.

قلت: لقد قال الشاعر في هذا وأحسن:

فـــــلا تجـــــزع وإن أعســـــرت يومـــــاً فقـــــد أيســـــرت في الـــــزمن الطويـــــل

ولا تظـــــنن بربّـــــك ظـــــنّ ســـــوءٍ فـــــــــــإنّ الله أولى بالجميــــــــــــل

قال: هذه سنة الله في عباده، فهو يبتلي بالسراء والضراء، فمن ابتلي بالسراء لا بد أن يبتلى ببعض الضراء، ومن رحمة الله محدودية الضراء بجنب السراء.

قلت: لقد أشار ابن مسعود ﷺ إلى هذا بقوله:(لكل فرحةٍ تَرْحة، وما مُلِيءَ بيتٌ فرحاً إلا مُلِيءَ تَرحاً)، ومثله قال ابن سيرين:(ما كان ضحكٌ قَطٌ إلا كان من بعده بُكاء)

وقد روي في هذا أن هندا بنت النُّعمان قالت: لقد رأيتُنا ونحن مِن أعزِّ الناس وأشدِّهم مُلكاً، ثم لم تَغِبِ الشمسُ حتى رأيتُنا ونحن أقلُّ الناس، وأنه حقٌ على الله ألا يملأ داراً خَيْرة إلا ملأها عَبرة.

وسألها رجلٌ أن تُحَدِّثه عن أمرها، فقالت: أصبحنا ذا صباح، وما فى العرب أحدٌ إلا يرجونا، ثم أمسينا وما في العرب أحد إلا يرحمُنا.

وبكت أختها حُرقَةُ بنت النُّعمان يوماً، وهي فى عِزِّها، فقيل لها: ما يُبكيكِ، لعل أحداً آذاك؟ قالت: لا، ولكن رأيتُ غَضارة فى أهلى، وقلّما امتلأت دارٌ سروراً إلا امتلأت حُزناً.

وقال إسحاق بنُ طلحة: دخلتُ عليها يوماً، فقلتُ لها: كيف رأيتِ عبراتِ الملوك؟ فقالت: ما نحنُ فيه اليومَ خيرٌ مما كنا فيه الأمس، إنَّا نجِدُ فى الكتب أنه ليس مِن أهل بيت يعيشون فى خيْرة إلا سيُعقَبون بعدها عَبرة، وأنَّ الدهر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه إلا بَطَن لهم بيوم يكرهونه، ثم قالت:

فَبَيْنَــا نَسُــوسُ النَّــاسَ وَالأَمْــرُ أَمْرُنَــا ... إذَا نَحْــنُ فِــيهِمْ سُــوقَةٌ نَتَنَصَّــفُ

فَــأُفٍّ لِــدُنْيَا لاَ يَــدُومُ نَعِيمُهَــا ل ... تَقَلَّــبُ تَــارَاتٍ بِنَــا وَتَصَــرَّفُ

***

قلت: فما سر جعل البلاء محدودا؟

قال: لأن القصد منه هو الاختبار، والاختبار محدود من حيث الأسئلة المطروحة فيه، ومن حيث المدة التي تطرح فيها تلك الأسئلة.

قلت: فما هي المكاسب التي أنالها من هذه المحدودية؟

قال: أول مكسب لك في هذا هو تقليل عدد مصائبك وتحجيمها، بل تقزيمها، كما قال بعض الصالحين:(إذا نزلت بك مصيبة فصبرت، كانت مصيبتك واحدة، وإن نزلت بك ولــم تصبر، فقد أُصبت بمصيبتين: فقدان المحبوب، وفقدان الثواب)

قلت: لقد ذكرتني ــ يا معلم ــ بأحاديث جميلة للصالحين، فإنهم لا يغفلون بما حل بهم من بلاء عما بهم من نعم الله:

فهذا عروة بن الزبير ﷺ يصاب في قدمه؛ فيقرر الأطباء قطعها، فقطعت، فما زاد على أن قال:(اللهم لك الحمد، فإن أخذت فقد أبقيت، وإن ابتليت فقد عافيت)، فلما كان من الغد ركلت بغلةٌ ابنه محمداً – وهو أحب أبنائه إليه، وكان شاباً يافعاً – فمات من حينه، فجاءه الخبر بموته، فما زاد على أن قال مثل ما قال في الأولى، فلما سُئِل عن ذلك قال:(كان لي أربعة أطراف فأخذ الله مني طرفاً وأبقى لي ثلاثة، وكان لي سبعةٌ من الولد فأخذ الله واحداً وأبقى لي ستة. وعافاني فيما مضى من حياتي، ثم ابتلاني اليوم بما ترون، أفلا أحمده على ذلك؟!)

ويحدث بعض الصالحين، قال: مررت بعريش من مصر وأنا أريد الرباط، فإذا أنا برجل في مظلة قد ذهبت عيناه ويداه ورجلاه، وبه أنواع البلاء وهو يقول: الحمد لله حمدا يوافي محامد خلقك بما أنعمت علي وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلا. فقلت: لأنظرن أشيء علمه أم ألهمه الله إلهاما؟ فقلت: على أي نعمة من نعمه تحمده؟ أم على أي فضيلة تشكره؟ فوالله لو أرسل السماء علي نارا فأحرقتني، وأمر الجبال فدكدتني، وأمر البحار فغرقتني ما ازددت له إلا حمدا وشكرا وإن لي إليك حاجة: بنية لي كانت تخدمني وتتعاهدني عند إفطاري انظر هل تحس بها؟ وقال عبد الوهاب بني كان لي فقلت: والله إني لأرجو أن يكون لي في قضاء حاجة هذا العبد الصالح قربة إلى الله عز وجل. فخرجت أطلبها بين تلك الرمال فإذا السبع قد أكلها. فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، من أين آتي هذا العبد الصالح أخبره بموت ابنته؟ فأتيته فقلت له: أنت أعظم عند الله مترلة أم أيوب عليه السلام؟ ابتلاه الله في ماله وولده وأهله وبدنه حتى صار عرضا للناس؟ فقال: لا بل أيوب. قلت: فإن ابنتك التي أمرتني أن أطلبها أصبتها وإذا السبع قد أكلها. فقال: الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا وفي قلبي منها شيء. فشهق شهقة فمات. فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، من يعينني على غسله ودفنه؟ فإذا أنا بركب يريدون الرباط، فأشرت إليهم فأقبلوا إلي فأخبرتهم بالذي كان من أمره فغسلناه وكفناه ودفناه في مظلته تلك، ومضى القوم. وبت ليلتي في مظلته آنسا به حتى إذا مضى من الليل قد ثلثه إذا أنا به في روضة خضراء، وإذا عليه حلتان خضراوان، وهو قائم يتلو القرآن. فقلت ألست صاحبي بالأمس؟ فقال: بلى. فقلت: فما صيرك إلى ما أرى؟ قال: وردت من الصابرين على درجة لم ينالوها إلا بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء.

ويروى عن عكرمة قال: مر عمر بن الخطاب ﷺ برجل مبتلى أجذم أعمى أصم وأبكم، فقال لمن معه: هل يرون في هذا من نعم الله شيئا؛ قالوا: لا، قال: بلى ألا ترون يبول فلا يعتصر؛ ولا يلتوى، يخرج به بوله سهلا، فهذه نعمة من الله.

نعمة السكينة

قلت: فما نعمة السكينة؟

قال: هي تلك الطمأنينة التي يجدها المؤمن عقب بلائه، وهي تثبيت الله تعالى للقلوب المتألمة، ولولاه لزلزل بها.

قلت: أهي الصبر؟ فالثبات هو ثمرة الصبر.. وهو نعمة تجعل في القلوب قدرة عجيبة على التحمل والتعايش مع البلاء.

قال: هي قريبة من نعمة الصبر.. ولكنها أعظم شأنا.

قلت: كيف؟

قال: السكينة هبة ربانية تتزل على من توفرت فيهم الأهلية، بينما الصبر عمل إنساني وجهد يمارسه المكلف ليتحقق به[1].

قلت: ألهذا ورد الأمر بالصبر، ولم يرد الأمر بالسكينة، فقد قال تعالى:﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾(البقرة:٤٥)، وقالتعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:١٥٣)، وقالتعالى:﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(آل عمران:١٨٦)، وقالتعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(آل عمران:٢٠٠)

ولم يأت في آية واحدة الأمر بالسكينة.

قال: السكينة لا يؤمر بها، لأنها تتترل.. وما يتترل لا يؤمر به.. وإن صح أن يؤمر به، فإنه يؤمر بالتحقق بأهلية التترل.

قلت: وما أهلية التترل؟

قال: وقوف المؤمن في مواقف الخوف والشدة والزلزلة.

قلت: لقد نهينا عن طلب البلاء.

قال: لا أقصد ذلك.. ولكني أقصد أن تتعرض للبلاء المرتبط بالخوف والشدة والزلزلة.

قلت: فكل الخلق يتعرضون لذلك.. هذا من ضرورات الاختبار.

---

(١) وقد يتفق الصبر السكينة في كونهما هبة ربانية، كما في قوله ﷻ:﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة:٢٥٠)

قال: فيهم من يتعرض لها بالله، وفيهم من يتعرض لها بنفسه.
قلت: فمن تعرض لها بنفسه؟
قال: يوكل إليها.. وقد يلتجئ إلى الصبر.. وقد يضيق به الصبر، فينتحر بجسده أو بروحه.
قلت: فمن تعرض لها بالله؟
قال: تتنزل عليه السكينة لتخبره بتولي الله له، وقيامه بشأنه.
قلت: ألهذا كان النبي ﷺ في مواقف الشدة يطلب السكينة؟.. فعن البراء بن عازب ــ رضي الله عنه ــ قال: رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى التراب جلدة بطنه، وهو يرتجز بكلمة عبدالله بن رواحة ــ رضي الله عنه ــ:

لاهـــم لـــولا أنـــت مـــا اهتـــدينا ولا تصـــدقنا ولا صـــلينا

فـــأنزلن ســـكينة علينـــا وثبـــت الأقـــدام إن لاقينـــا

إن الأولى قـــد بغـــوا علينـــا وإن أرادوا فتنـــة أبينـــا

قال: أجل.. ولهذا وردت السكينة في القرآن الكريم في مواضع الشدة[1].

---

(١) قال ﷻ:﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (التوبة:٢٦) وقال ﷻ:﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (الفتح:٤)

وقال ﷻ:﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ (الفتح:١٨)

وقال ﷻ:﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾(الفتح:٢٦)

ولهذا الآيات دور كبير في دفع الأحزان والهموم، وينقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية بأنه كان إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة، قال:« وسمعته يقول في واقعة عظيمة جرت له في مرضه تعجز العقول عن حملها من محاربة أرواح شيطانية ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوة، قال: فلما اشتد علي الأمر قلت لأقاربي ومن حولي اقرأوا آيات السكينة، قال: ثم أقلع عني ذلك الحال وجلست وما بي قلبة »

قال ابن القيم معقبا على هذا:« وقد جربت أنا أيضا قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب مما يرد عليه فرأيت لها تأثيرا عظيما في سكونه وطمأنينته» انظر: مدارج السالكين: ٢/٥٠٣.

قلت: وهي في أغلبها تتعلق برسول الله ﷺ والعصبة المؤمنة معه[1].

قال: أجل.. والعصبة المؤمنة معه تشمل صحابة رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة.

قلت: الصحابة ماتوا.

قال: من اصطلح على تسميتهم كذلك ماتوا.. ولكن من صاحبوا رسول الله ﷺ بأرواحهم لا تخلو منهم الأرض.. ولو خلت منهم الأرض لأذن الله للقيامة أن تقوم.

---

(١) ما عدا ما ورد في سورة البقرة في قوله ﷻ:﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾(البقرة: من الآية٢٤٨) فإن السكينة هنا ارتبطت بالتابوت، قال ابن عباس ﵄:« كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة إلا التي في سورة البقرة»

نعمة التطهير

قلت: فما نعمة التطهير؟

قال: الله تعالى برحمته ولطفه يحب عبادة المتطهرين[1]، فلذلك يهيء لهم من أسباب الطهارة ما يغسل به الأدران عنهم.

قلت: لقد قال تعالى في المطر الذي أنزله يوم بدر:﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾(لأنفال:١١)، وقال في الصدقات:﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾(التوبة: من الآية١٠٣)، وقال في المحسنين:﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الزمر:٣٥)

قال: أجل.. فالله تعالى يترل على عباده من أسباب الطهارة ما يجعلهم أهلا لكل فضيلة.

قلت: والبلاء من هذه الأسباب؟

قال: أجل.. ألم تسمع قوله ﷺ:(ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها)[2]

وعندما نزل قوله تعالى:﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾(النساء:١٢٣) بلغت من المسلمين مبلغا شديدا فقال رسول الله ﷺ:(قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها، أو الشوكة يشاكها)[3]

ويروى في تأثير هذه الآية على المسلمين عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: كنت عند النبي ﷺ، فترلت هذه الآية: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً ﴾(النساء:١٢٣)، فقال رسول اللّه ﷺ:(يا ابا بكر ألا أقرئك آية أنزلت عليّ)، قلت: بلى يا رسول اللّه قال: فأقرأنيها فلا أعلم أني قد وجدت انفصاماً في ظهري حتى تمطيت لها، فقال رسول اللّه ﷺ:(مالك يا أبا بكر؟)، قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه، وأينا لم يعلم السوء، وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه؟ فقال رسول اللّه ﷺ:(أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون

---

(١) كما قال ﷻ:﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾(التوبة: من الآية١٠٨)

(٢) البخاري ومسلم.

(٣) البخاري ومسلم.

فإنكم تجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا اللّه ليس لكم ذنوب، وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة)[1]

والنصوص الكثيرة تنطق بهذا المعنى، فعندما دخل عبد الله بن مسعود ﷺ على النبي ﷺ في مرضه وجده وهو يوعك وعكا شديدا، فقال: إنك لتوعك وعكا شديدا، إن ذاك بأن لك أجرين قال:(أجل ما من مسلم يصيبه أذى إلا حات الله عنه خطاياه كما تحات ورق الشجر)[2]

ولذلك يتخلص المؤمن في مرضه ـــ بقدر سعة صبره ورضاه ـــ من كل الذنوب التي رانت على قلبه، قال ﷺ:(إنما مثل المريض إذا برأ وصح كالبردة تقع من السماء في صفائها ولونها)[3]

ويخبر ابن عباس ﷺ قال: شكا نبي من الأنبياء ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ إلى ربه فقال:(يا رب، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون الكافر لا يطيعك ويجترىء عليك وعلى معاصيك تزوى عنه البلاء وتبسط له الدنيا فأوحى الله تعالى إليه إن العباد والبلاء لي وكل يسبح بحمدى فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقانى فأجز به بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له فى الرزق وأزوى عنه البلاء فأجزيه بحسناته فى الدنيا حتى يلقانى فأجزيه بسيئاته)

***

قلت: ألهذا إذن وردت النصوص بالنهي عن سب المرض، فقد دخل ﷺ على أم السائب، فقال:(ما لك يا أم السائب تزفزفين؟) قالت:(الحمى، لا بارك الله فيها)، فقال:(لا تسبي الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد[4])[1]

---

(١) أبو بكر بن مردويه.

(٢) البخاري ومسلم.

(٣) الترمذي: ٤/٤١١.

(٤) ثبت علميا أنه عند الإصابة بالحمى تزيد نسبة مادة(الأنترفيرون) لدرجة كبيرة كما ثبت أن هذه المادة التي تفرزها خلايا الدم البيضاء تستطيع القضاء على الفيروسات التي هاجمت الجسم وتكون أكثر قدرة على تكوين الأجسام المضادة الواقية... فضلا عن ذلك فقد ثبت أن مادة (الأنترفيرون) التي تفرز بغزارة أثناء الإصابة بالحمى لا تخلص الجسم من الفيروسات والبكتريا فحسب ولكنها تزيد مقاومة الجسم ضد الأمراض وقدرتها على القضاء على الخلايا السرطانية منذ بدء تكوينها وبالتالي حماية الجسم من ظهور أي خلايا سرطانية يمكن أن تؤدى إلى إصابة الجسم بمرض السرطان ولذا قال بعض الأطباء إن كثيرا من الأمراض نستبشر فيها بالحمى كما يستبشر المريض بالعافية فتكون الحمى فيها أنفع من شرب الدواء بكثير مثل مرض الرماتيزم المفصلي الذي تتصلب فيه المفاصل وتصبح غير قادرة على التحرك ولذلك من ضمن طرق العلاج الطبي في مثل هذه الحالات الحمى الصناعية أي إيجاد حالة حمى في المريض يحقنه بمواد معينة ومن هنا ندرك حكمة رسول الله ﷺ في رفض سب الحمى بل والإشادة بها بوصفها

قال: أجل.. فهو رحمة من رحمات الله.. ولا ينبغي أن يسب عاقل رحمة الله.

قلت: ألهذا ــ أيضا ــ ورد في النصوص كراهية العافية الدائمة، فقد روي أن رجلا جاءه الموت في زمان رسول الله ﷺ، فقال رجل:(هنيئا له مات و لم يبتل بمرض)، فقال رسول الله ﷺ:(ويحك وما يدريك لو أن الله ابتلاه بمرض يكفر به عنه من سيئاته)

وروي عن الربيع بن عميلة قال: كنا مع عمار بن ياسر، وعنده أعرابي، فذكروا المرض، فقال الأعرابي: ما مرضت قط، فقال عمار:(لست منا، إن المسلم يبتلى بالبلاء، فيكون كفارة خطاياه، فتتحات كما تتحات ورق الشجر، وإن الكافر يبتلى فيكون مثله كمثل البعير عقل فلا يدري لم عقل؛ ويطلق، فلا يدري لم أطلق)[2]

قال: ليس ذلك على إطلاقه.. فالله أعلم أين يضع عافيته وبلاءه، والمؤمن لا يختار مع الله.. ولكنه إن ابتلي ببلاء شكر.

قلت: أيشكر أم يصبر؟

قال: النعم تشكر.. وقد عرفت أن البلاء نعمة.

قلت: ولكنه ورد بالأمر بالصبر معه.

قال: الصبر هو الثبات في وجهه.. والشكر هو النظر إلى المحاسن التي يختزنها البلاء.. والصبر هو مقام الغافلين.. والشكر هو مقام العارفين.

قلت: ألهذا كان ﷺ يبشر المرضى، فقد عاد ﷺ رجلا من وعك كان به فقال:(أبشر، فإن الله يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المذنب لتكون حظه من النار)[3]

وعاد ﷺ أم العلاء، وهي مريضة فقال:(أبشري يا أم العلاء فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه كما تذهب النار خبث الذهب والفضة)[4]

قال: أجل.. ليخبرهم أن ما نزل بهم نعمة تستحق الشكر لا الأنين.

قلت: والمعاندون المعارضون.. كيف نبشرهم؟

قال: بما يبشر به العارفون.

تنقى الذنوب كما تنقى النار خبث الحديد كما أشار هذا الحديث الشريف، انظر: الإعجاز العلمي في الإسلام والسنة النبوية " لمحمد كامل عبد الصمد.

(١) مسلم،كتاب البر والصلة باب ثواب المؤمن فيما يصيبه، وبرقم (٢٥٧٥)

(٢) ابن عساكر.

(٣) أحمد والحاكم وابن ماجة.

(٤) مسلم.

قلت: فإن أعرضوا؟

قال: تعرض عنهم.. فقد روي أن رسول الله ﷺ دخل على أعرابي يعوده وهو محموم، فقال:(كفارة وطهور)، فقال الأعرابي:(بل حمى تفور على شيخ كبير تزيره القبور)، فقام رسول الله ﷺ وتركه[1].

قلت: لقد ذكر ابن القيم قول الذي سب الحمى ومعارضته له، فقال:(ذكرت مرة وأنا محموم قول بعض الشعراء يسبها:

زارت مكفـــــــــــــرة الـــــــــــــذنوب وودعـــــــــــــت

تبـــــــا لهـــــــا مـــــــن زائـــــــر ومـــــــودع

قالـــــــت وقـــــــد عزمـــــــت علـــــــى ترحالهـــــــا

مـــــــاذا تريـــــــد فقلـــــــت أن لا ترجعـــــــي

فقلت: تبا له إذ سب ما نهى رسول الله ﷺ عن سبه، ولو قال:

زارت مكفـــــــــــــرة الـــــــــــــذنوب لصـــــــــــــبها

أهـــــــلا بهـــــــا مـــــــن زائـــــــر ومـــــــودع

قالـــــــت وقـــــــد عزمـــــــت علـــــــى ترحالهـــــــا

مـــــــاذا تريـــــــد فقلـــــــت: أن لا تقلعـــــــي

لكان أولى به ولأقلعت عنه فأقلعت عني سريعا)[2]

قال: ألا ترى ما يفعل الإيمان في أصحابه؟

---

(١) البيهقي في شعب الإيمان.

(٢) الطب النبوي: ٢٣.

قلت: فقد انقلبت الموازين بهذه الرؤى، فأصبح البلاء الذي ينفر الناس منه محبوبا عند الصالحين، وقد قال أبو الدرداء ــ رضي الله عنه ــ:(أحب الموت اشتياقا إلى ربي عز وجل، وأحب الفقر تواضعا لربي عز وجل، وأحب المرض تكفيرا لخطيئتي)

ودخل إبراهيم بن المولد على إبراهيم المقرين وقد رفسته بغلته، فكسرت رجله، فقال له، وهو في تلك الحال:(لولا مصائب الدنيا قدمنا على الله مفاليس)

وأخبر الحسن عن السلف الصالح ﷺ أنهم كانوا يرتجون الحمى ليلة كفارة لما نقص من الذنوب.

***

قلت: فما سر كون البلاء مطهرا من الذنوب؟

قال: هو ما يحدثه في القلب من ترفع عن الدنيا، وعدم تعلق بها، ونوع من الزهد فيها، فحب الدنيا رأس كل خطيئة.. ألم تسمع ببصيرتك ما يقول الغزالي.. فهو من أطباء هذا المستشفى وكل مستشفى.

أصخت ببصيرتي، فإذا بي أسمعه، وهو يقول: رأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عن دار الغرور، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها، وأنسه بها حتى تصير كالجنة فى حقه، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا، ولم يسكن إليها، ولم يأنس بها وصارت سجنا عليه[1]، وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن.

قلت: البلاء نعمة من هذا الوجه يجب الفرح بها.. ولكن الألم مع ذلك موجود.

قال: هو ضرورى، وهو يضاهى فرحك عند الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجانا، أو يسقيك دواء نافعا بشعا مجانا، فإنك تتألم، وتفرح، فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح، فكل بلاء فى الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذى يؤلم فى الحال وينفع فى المآل.

قلت: هذا مثال رائع.. وهو يجعل المعنى قريبا إلى الخيال كقرب الحس.

قال: وعكس ذلك من دخل دار ملك للنظر فيها، وعلم أنه يخرج منها لا محالة، فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار..فإن ذلك وبال عليه وبلاء..

قلت: لم.. فقد رأى حسنا.

---

(١) وفي هذا يقول ﷺ:« الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

قال: لأنه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه، ولو كان عليه فى المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه، فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه.

وهكذا الدنيا، فهي (منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم، وهم خارجون عنها من باب اللحد، فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة، فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يتصور منه الشكر لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة)[1]

---

(١) إحياء علوم الدين: ١٣٠/٤.

نعمة المعاينة

قلت: فما نعمة المعاينة؟

قال: هي نعمة رؤية الله لموقف عبده، ومعاينته لصبره ورضاه.

قلت: الله يرى الكل، ويعاين الكل، فإنه ﴿ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴾(آل عمران: من الآية٥)، فما وجه الاختصاص في هذه النعمة؟

قال: الله يرى الكل.. ولكن لا يشعر برؤيته إلا خواص الخواص.

قلت: من هم؟

قال: الذين رفع الله عن أعينهم الغشاوة، وعن قلوبهم الحجب.

قلت: فما يفيدهم استشعار رؤية الله لهم؟

قال: الأنس الذي يقضي على بلائهم.

قلت: هم يأنسون بالله دائما.. فما علاقة ذلك بالألم والبلاء؟

قال: ألم يبتلهم الله لينظر كيف يعملون؟

قلت: بلى، فقد قال تعالى:﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(التوبة:١٠٥)

قال: أليس الثبات في وجه البلاء بالأنس بالله عملا من الأعمال الصالحة؟

قلت: بلى.. بل هو من أعظم الأعمال الصالحة، ولذلك يترل الله البلاء على عبده بحسب درجة إيمانه.

قال: فإذا شعرت بأن الله الذي ابتلاك ينظر إليك ألا تتقن عملك؟

قلت: تقصد إتقان موقفي مع البلاء.

قال: أجل.

قلت: نعم، فشعوري برؤية الله لي لا يزيدني أنسا فقط، بل أشعر بشعور لست أدري مدى صحته.

قال: وما تشعر؟

قلت: ممارسو الرياضات عندنا يستقدمون مشجعيهم، فلذلك كلما كثر مشجعوهم كلما زاد ذلك من حماستهم، فشعوري برؤية الله يعطيني نوعا من هذه القوة.

قال: هذا صحيح.. ولو أن الله أعظم من كل المتفرجين..

قلت: أجل، فلله المثل الأعلى.

قال: لقد دلت النصوص هذا المعنى، فالله تعالى يقول لنوح u وهو يواجه أعظم المصائب والضغوط من قومه حين صنعه للفلك:﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾(هود: من الآية٣٧)

قلت: لا شك أن هذه الكلمة كان لها أثرا خطيرا في نفس نوح u.

قال: أجل.. وقد قيل مثلها لرسول الله r، فقد قال الله تعالى له، وهو في مواقف لا تقل عن موقف نوح u:﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾(الطور: من الآية٤٨)

قلت: لقد ذكرتني بسيّد الشهداء الحسين بن علي t، فقد قال بعد أن تفاقم الخطب أمامه في كربلاء، واستشهد أصحابه وأهل بيته y: (هون علي ما نَزَلَ بي أنهُ بعَيْنِ الله)

قال: ولهذا اعتبر r الإحسان الذي هو قمة الأعمال الصالحة، أو أداء الأعمال بأحسن الكيفيات متعلقا بالشعور برؤية الله سواء كان رؤية معاينة أو رؤية مراقبة.

قلت: ولكن هذه النعمة ــ يا معلم ــ مختصة بالمحسنين، وهذا المستشفى يداوي عموم الناس، فكيف يعطى لهم مثل هذا الدواء الذي قد لا يستسيغونه؟

قال: أطباؤكم يعطون مرضاكم أدوية كثيرة لا تستسيغها أجسامهم، ولا تأنس لها، بل هي تثير فيها عللا كثيرة، فهل منعهم ذلك من استعمالها؟

قلت: لا.. فشعورهم بخطر الداء الذي يقفون في وجهه يدعوهم لممارسة كل الأساليب.

قال: فكذلك الأولياء يعالجون الخلق بأدوية كثيرة، منها ما يفهمونه، ومنها ما لا يفهمونه، فما استساغوه انتفعوا به، وما لم يستسيغوه أعطاهم نوعا من الشوق لاستساغته.

قلت: فما ينفع الشوق؟

قال: من لم يحترق جوفه بلهيب الأشواق، لم يستسغ تلك الأذواق.

قلت: كيف؟

قال: لا يعرف لذة الماء إلا من أحرق العطش جوفه.

قلت: فهمت.

قال: ما فهمت.

قلت: سر الإغراب والغموض الذي يضع هالة جميلة على كلام الحكماء من أهل الله.

قال: هو يضع تلك الهالة لتثير الأشواق.. فإذا ثارت الأشواق كان الوصول بقدرها.

نعمة الثواب

قلت: فما نعمة الثواب؟

قال: حينما تزاح الغشاوة التي تكسو العيون في الدنيا، فتفسد بسببها المقاييس يدرك الخلق الكنوز التي كان يخفيها البلاء، فيودون ما أخبر عنه ﷺ بقوله:(يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض)[1]

قلت: هذا حديث عظيم.

قال: فبشر به.

قلت: كيف؟

قال: علقه على أبواب المستشفيات.. واكتبه على كل وصفة مريض.. واذكره لكل مبتلى.

قلت: لا أعرف أن مثل هذا من الأعمال الخيرية التي يؤجر عليها.

قال: هذا من أعمال الرسل وخلفاء الرسل، فهم الذين أرسلوا بالبشارة وللبشارة.. أليس دين الله أعظم بشارة؟.. ألم يرسل المسيح عليه السلام لأجل هدف واحد هو البشارة؟

قلت: أجل، بل إن لفظ (الإنجيل) نفسها تعني البشارة.

قال: ألم يأمر النبي ﷺ بكل ما يملأ المبتلى بالبشر والأنس؟

قلت: بلى.

قال: فهذا من ذاك.

قلت: فما الثواب المعد لأهل البلاء غير ما ذكرنا من النعم؟

عدم الحساب:

قال: أول ثواب عدم حسابهم يوم القيامة.

قلت: هذه نعمة عظيمة لا يمكن تصورها، فإن أعظم ما يخافه كل مؤمن هو الحساب.. أن تنشر صحفه، فيعاين جرائمه.. أو يفضح بين الخلائق.. إنه موقف صعب جدا.. فأحدنا لا يطيق الوقوف في محكمة الدنيا ليحاسب، فكيف يطيق الوقوف في محكمة الآخرة؟

قال: ومع ذلك، فقد وردت البشارات لأهل البلاء الناجحين بهذا النوع من الثواب، فقد روي أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ بها لمم فقالت:(يا رسول الله، ادع الله أن يشفيني) قال:(إن

---

(١) الترمذي كتاب الزهد رقم (٢٤٠٣) عن جابر وقال هذا حديث غريب.

شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك)، قالت:(بل أصبر ولا حساب علي)[1]

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(يؤتى بالشهيد يوم القيامة، فينصب للحساب، ويؤتى بالمتصدق، فينصب للحساب، ثم يؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان، ويصب عليهم الأجر صبا، حتى إن أهل العافية ليتمنون في الموقف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض، من حسن ثواب الله لهم)[2]

قلت: هذه بشارة عظيمة ترفع المبتلى إلى درجات تفوق درجات الشهداء والمتصدقين.

قال: ليس ذلك على الله بعزيز، فإن من المبتلين من يموت في اليوم مائة مرة، بينما الشهيد لا يموت إلا مرة واحدة[3].

قلت: أهذا احتقار للشهادة؟

قال: لولا عظمة الشهادة ما ذكرها رسول الله ﷺ في هذا الموقف.

قلت: فما سر هذا الجزاء؟

قال: ألم نعلم أن البلاء الذي يقع على المؤمن المحتسب يطهره من ذنوبه.

قلت: عرفنا ذلك عند معاينة نعمة التطهير.

قال: فلذلك إن عظم البلاء، وصبر عليه المبتلى، لقي الله وليس عليه ذنب يحاسبه عليه.

قلت: لقد روي في هذا عن أنس بن مالك ﷺ قال دخلت مع النبي ﷺ نعود زيد بن أرقم ﷺ وهو يشتكي عينيه فقال له:(يا زيد، لو كان بصرك لما به كيف كنت تصنع؟)، قال:(إذا أصبر وأحتسب)، قال:(إن كان بصرك لما به ثم صبرت واحتسبت لتلقين الله عز وجل وليس لك ذنب)[4]

قال: ولكن هذه البشارة العظيمة لها فئة محدودة.

قلت: وكيف عرفت ذلك.. هل اطلعت على قوائم أهل الآخرة فترى من يعفى منهم من الحساب؟

---

(١) أحمد وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة.

(٢) الطبراني في الكبيرعن ابن عباس.

(٣) بل إن البلاء العام الذي يصاحبه الرضا شهادة في سبيل الله، قال ﷺ:« الطاعون شهادة لكل مسلم» البخاري ومسلم.

(٤) أبو يعلى، وابن عساكر.

قال: أنا أضعف من أطلع.. ولكن الله أطلعنا.

قلت: أين؟

قال: ألم تقرأ ما ورد في الحديث عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:(عُرِضَت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط[1]، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحَد، إذ رُفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب)، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِدوا في الإسلام فلم يُشركوا بالله شيئاً–وذكروا أشياء– فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال:(ما الذي تخوضون فيه؟) فأخبروه فقال:(هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون) فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال:(أنت منهم) ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال:(سبقك بها عكاشة)[2]

قلت: إذن هم سبعون ألفا.. هو عدد لا بأس به.

قال: وقد ذكرهم رسول الله ﷺ بأوصافهم ليتنافس في الوصول إلى درجاتهم.

قلت: أجل، فهم الذين لا يطلبون من أحد أن يرقيهم أو يكويهم، فهم لا يسألون أحداً إلا الله، حتى في ساعات الضعف والمرض.

الجنة:

قال: وأما الثواب الثاني الذي وردت به النصوص، فهو دار السعادة الأبدية.

قلت: الجنة !؟

قال: لقد أخبر ﷺ أن البلاء الذي يصاحبه الرضا والصبر يقود صاحبه إلى الجنة، ومما يروى في ذلك قوله ﷺ:(إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة، يريد عينيه)[3]

قلت: هذا ثواب عظيم.. فالجنة هي الدار التي تهفو لها القلوب.

قال: ومن رحمة الله بعباده أن جعل لها هذا الجزاء الذي لا يستدعي غير الثبات.

---

(١) تصغير رهط وهو ما دون العشرة أنفس.

(٢) البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري والترمذي.

قلت: ولكن يبدو أن هذا الجزاء العظيم لا يكون إلا في البلاء العظيم المستمر، ولأهل العزيمة في الصبر.

قال: هذا صحيح، وهو ما توحي به النصوص، فقد روي عن عطاء بن أبي رباح قال، قال لي ابن عباس ﷺ: ألا أريك امرأة مِنْ أهل الجنة؟ فقلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع اللّه تعالى لي، قال:(إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت اللّه تعالى أن يعافيك)، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع اللّه أن لا أتكشف، فدعا لها)[1]

وعن أبي سنان قال: دفنت ابناً لي فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة (يعني الخولاني) فأخرجني وقال لي: ألا أبشِّرك؟ قلت: بلى، قال: قال رسول اللّه ﷺ:(قال اللّه: يا ملك الموت قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم، قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد)[2]

رفع الدرجات:

قلت: فما الثواب الثالث؟

قال: رفع الدرجات.

قلت: وما رفع الدرجات؟

قال: ترقية العبد من محل في الجنة إلى محل أعلى.. ألا تعرفون الترقيات؟

قلت: بلى.. نعرفها.. ونتنافس فيها.

قال: فقل لقومك:(تنافسوا في درجات الجنة.. ودعوا عنكم الصراع على تلك الدرجات التي ينشغل بها الأطفال)

قلت: هم لا يسمعون مني.

قال: فأسمعهم قوله ﷺ:(إن العبد إذا سبقت له من الله مترلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبره على ذلك، حتى يبلغه المترلة التي سبقت له من الله

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) أحمد والترمذي.

تعالى)[1]، وقوله ﷺ:(ما من مسلم يصاب بشيء في جسده فيصبر إلا رفعه الله به درجة، وحط عنه به خطيئة)[2]

قلت: يبدو أن هذا الجزاء العظيم يرتبط كذلك بالبلاء العظيم.

قال: أجل، فقد أخبر ﷺ أن الرجل يكون له عند الله المترلة، فما يبلغها بعمل فما يزال يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها، وبأن عظم الجزاء مع عظم البلاء[3].

قلت: ألهذا أخبر ﷺ أن أكثر الناس بلاء الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل، فالأمثل.

قال: أجل، فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال:(الانبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة)[4]

قلت: فالطامحون للدرجات العليا معرضون للبلاء إذن أكثر من غيرهم.

قال: يروى في ذلك أن رجلا قال لموسى: يا موسى، سل الله لي حاجة يقضيها لي هو أعلم بها؛ ففعل موسى؛ فلما نزل إذ هو بالرجل قد مزق السبع لحمه وقتله؛ فقال موسى: ما بال هذا يا رب؟ فقال الله تبارك وتعالى له:(يا موسى انه سألني درجة علمت أنه لم يبلغها بعمله فأصبته بما ترى لأجعلها وسيلة له في نيل تلك الدرجة)، فكان أبو سليمان الداراني إذا ذكر هذا الحديث يقول: سبحان من كان قادرا على أن ينيله تلك الدرجة بلا بلوى، ولكنه يفعل ما يشاء.

صلاة الله:

قلت: فما الثواب الرابع؟

قال: هو ما نص عليه قوله تعالى:﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(البقرة:١٥٥ ـ ١٥٧)

قلت: فما في هذا من الثواب؟

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وأبو يعلى والطبراني في الكبير والأوسط.

(٢) ابن جرير عن أبي الدرداء.

(٣) الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء في الصبر على البلاء رقم (٣٩٩٨) وقال حديث حسن غريب.

(٤) أحمد والبخاري وابن ماجة والترمذي وابن حبان والحاكم.

قال: لقد أخبر تعالى عن صلاته ورحمته بهؤلاء الصابرين، وهل هناك جزاء أعظم من صلاة الله على عبده، ولذلك قال عمر بن الخطاب ﷺ في هذه الآية:(نعم العِدْلان ونعمت العِلاوة ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ هذان العدلان، ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ فهذه العلاوة[1])

ولذلك روي عن الحسن البصري ﷺ، أنه قال: عجباً لمكروب غفل عن خمس، وقد عرف ما جعل اللّه لمن قالهن) ومن هذه الخمس:(قوله تعالى: ﴿ ولنبلونَّكُم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وَبَشِّرِ الصَّابرينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(البقرة:١٥٥ ـــ ١٥٧)

قلت: فهل صلاة الله على عبده جزاء؟

قال: جزاء فوق الأجزية.. بل لا تعدلها أي جائزة أخرى.

قلت: فما تعني؟

قال: هي تقريب الله لعبده، والقرب لا يساويه جزاء ولا يطاوله ثواب، فهو إخراج من الظلمات إلى النور، ومن الحجاب إلى المشاهدة، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾(الأحزاب:٤٣)؟

قلت: بلى، فما يعني هذا؟

قال: البلاء نافذة عظيمة من نوافذ التعرف على الله والتقرب منه، والتعرف على الله هو النور الذي يرفع كل الظلمات، والحق الذي يقتل كل باطل.

قلت: لقد ذكرتني بحكمة لابن عطاء الله يقول فيها:(إذا فتحَ لكَ وِجْهةً من التَّعرُّفِ فلا تبالِ معها أن قلَّ عملُكَ ؛ فإنه ما فَتَحَها لك إلا وهو يريد أن يتعرَّفَ إليكَ. ألم تعلم أن التَّعَرُّفَ هو مُورِدُهُ عليك، والأعمال أنت مهديها إليه، وأين ما تُهديه إليه مما هو مُورِدُهُ عليكَ)

استمرار الثواب:

قلت: يا معلم.. كل ما ذكرته، وما وردت به النصوص ثواب عظيم، ولكنه مع ذلك قد يحال بين المريض وبين كثير من أعمال البر، وتلك خسارة عظيمة.

---

(١) وهي ما توضع بين العدلين، وهي زيادة في الحمل، فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً.

قال: لا.. فالله الشكور الحليم لا يضيع عمل عبده إن قعد به الداء عنه، ألم تسمع قوله ﷺ:(إن العبد إذا مرض أوحى الله تعالى إلى ملائكته: أنا قيدت عبدي بقيد من قيودي، فإن أقبضه اغفر له، وإن أعافه فحينئذ يقعد لا ذنب له)[1].

وفي حديث آخر قال ﷺ:(ما من مسلم يصاب في جسده إلا أمر الله تعالى الحفظة: اكتبوا لعبدي في كل يوم وليلة من الخير ما كان يعمل، ما دام محبوسا في وثاقي)[2]

وفي الأثر الإلهي:(قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدا من عبادي مؤمنا فحمدني وصبر على ما ابتليته، فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا، ويقول الرب للحفظة: إني أنا قيدت عبدي هذا وابتليته فأجروا له ما كنتم تجرون له قبل ذلك من الأجر وهو صحيح)[3]

بل إن رسول الله ﷺ أخبر بأن مجرد الاسترجاع عند تذكر المصيبة له ثوابه عند الله، قال ﷺ:(ما من مسلم ولا مسلمة يُصاب بمصيبة فيذكرها، وإن طال عهدها فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدّد اللّه له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب)[4]

---

(١) الحاكم عن أبي أمامة.

(٢) الحاكم عن ابن عمرو.

(٣) أحمد والطبراني في الكبير وأبو نعيم عن شداد بن أوس.

(٤) أحمد وابن ماجة.

ثانيا ــ حصن الأمل

دخلنا الحصن الثاني من حصون الروح.. وقد كانت تفوح منه روائح عطرة تنشرح لها الصدور.. وتشع من جنباته أنوار تسر لها العين، ويبتهج لها القلب.

وقد شد انتباهي في هذا الحصن وجود مرضى فيه، وهو ما لم أره في القسم السابق، ولكنهم مرضى، لا كالمرضى.. يجلسون مسترخين ــ كما نسترخي أمام شواطئ البحار ــ ولكن البحار التي كانوا ينظرون إليها، والتي كان نسيمها يهب عليهم لم تكن كالبحار.. كان كل شيء ليس ككل شيء.

قلت: ما هذا القسم يا معلم؟

قال: هذا حصن الأمل.

قلت: فهل ينتظر هؤلاء المرضى دورهم في العلاج؟.. إني لا أرى الضيق في وجوههم كما أراه في عيون المرضى الذين ينتظرون في قاعات الانتظار عندنا.

قال: هؤلاء يتنعمون بانتظارهم.

قلت: يتنعمون؟!.. لم أعلم إلا أن الانتظار ضيق للصدر، وقتل للوقت، فكيف يكون نعمة؟

قال: انتظاركم ضيق للصدر وقتل للوقت، أما انتظار أهل السلام فهو عمل وعبادة وقرب.. وهو لذلك روح من روح الجنة، وعطر من عطرها.

بينما أنا كذلك سمعت صوتا جميلا مادت لجماله أجساد المرضى المسترخين، وكان ينشد:

إذا ضـــــاق أمـــــر فـــــانتظر فرجـــــا   فأصـــــعب الأمرأدنـــــاه مـــــن الفـــــرج

فلما سكت هب صوت آخر يردد بلحن عذب:

كـــــن عـــــن أمـــــورك معرضـــــا   وكـــــل الأمـــــور إلى القضـــــا

فلربمـــــا اتســـــع المضـــــيق: وربمـــــا ضـــــاق الفضـــــا

ولـــــرب أمـــــر متعـــــب   لـــــك في عواقبـــــه رضـــــا

الله يفعـــــل مـــــا يشـــــاء   فـــــلا تكـــــن متعرضـــــا

الله عـــــــــــــــودك الجميـــــــــــــــل فقـــس علـــى مـــا قـــد مضـــى

فلما سكت هب صوت ثالث يردد بلحن عذب:

رب أمـــر ضـــاقت الـــنفس بـــه جاءهـــا مـــن قِبَـــل الله فـــرج

لا تكـــن في وجـــه روح آيســـا ربمـــا قـــد فرجـــت تلـــك الـــرتج

بينمـــا المـــرء كئيـــب دنـــف جـــاءه الله بـــروح وفـــرج

قلت: أهذا مجلس إنشاد.. أم مجلس علاج؟

قال: في هذا القسم يعالج المرضى بكل المراهم.. كل ما يزيد في أملهم في الله، وفي تحقيق مرادهم يذكر هنا.

قلت: ولكن هؤلاء بجلوسهم هذا واسترخائهم وقعودهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويضيعون ما أمر الله به أن يؤدى، ألم يعرفوا أن وظيفة الإنسان في الحياة هي عبادة الله؟

قال: بلى.. وهم يعبدون الله في استرخائهم، كما يعبدون الله بقيامهم.

قلت: لم أعلم أن هناك عبادة تسمى الاسترخاء.

قال: ألم تقرأ قوله تعالى:﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾(آل عمران: من الآية١٩١)

قلت: بلى.. فالله يثني على هؤلاء خير ثناء.

قال: فإن العابد لله حقا من لا يغفل عن عبادته في كل محل.. فالله لا يعبد فقط بالقيام.

قلت: نعم.. هو يعبد بالركوع والسجود.

قال: وبالاسترخاء والقعود والانتظار كما ينتظر هؤلاء المرضى.. ألم تسمع قوله ﷺ:(سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج)[1]، فقد اعتبر ﷺ انتظار الفرج عبادة، وما الانتظار إلا جلوس لا يختلف عن هذا الجلوس.

---

(١) قال الترمذي:« هكذا روى حماد بن واقد هذا الحديث وقد خولف في روايته وحماد بن واقد هذا هو الصفار ليس بالحافظ، وهو عندنا شيخ بصري، وروى أبو نعيم هذا الحديث عن إسرائيل عن حكيم بن جبير عن رجل عن النبي ﷺ مرسل وحديث أبي نعيم أشبه أن يكون أصح » سنن الترمذي: ٥/٥٦٥.

قلت: ولكن ما سر اعتبار هذا الانتظار عبادة.. بل أفضل عبادة؟

قال: لأن القصد من العبادة هو خلاص القلب من كل الشوائب، وقطعه لكل العلائق.. أيمكن للشخص أن يصلي، وهو يحادث صاحبه؟

قلت: لا.. إن الصلاة يبطلها هذا الشغل وغيره.. فهي أفعال تتنافى مع روح الصلاة.

قال: فكذلك العبد إذا خلص قلبه لله منتظرا فرجه.. فهو في ذلك الحال لا ينظر إلا لله.. ولا ينتظر إلا من الله.

قلت: عرفت كونه عبادة.. ولكن كيف يكون أفضل العبادة؟

قال: لأنك في الصلاة قد تغفل عن صلاتك.. قد لا تحدث صاحبك، ولكنك تحادث نفسك وتمازحها.. ولكن القلب المتعلق بالله قلب عارف.. لا يغفل عن الله لحظة.. وأنت في الصلاة قد تشوب صلاتك بنوازع الشرك.. بينما في هذا الانتظار لا تحدثك نفسك بأي رياء أو مسمعة.. وأنت في الصلاة..

قلت: فهمت هذا يا معلم.. وقد عرفت سر تفضل الله على عباده الصالحين بقطع العلائق عنهم.

قال: لقد ورد في بعض الكتب الإلهية:(لأقطعن أمل من أمل سواي وألبسه ثوب المذلة بين الناس، أتقرع بالفقر باب غيري وبابي خير لك؟)

قلت: هذا صحيح، فإن كل أمل في غير الله يأس، وكل رجاء في غيره طمع، وكل استعانة بغيره خذلان.

قال: ولهذا لم تجد خبرتكم الطبية العظيمة، ولا مستشفياتكم الضخمة، ولا جيوشكم الهائلة من الأطباء في دحر جيش اليأس القاتل الذي يدفع أعدادا هائلة منكم إلى الانتحار.

قلت: هذا صحيح.. ولكن ما عسى الأطباء أن يفعلوا.. لقد استعملوا كل قواهم العقلية.

قال: فلم لا يبعثونهم إلى هذا المستشفى؟

ضحكت، وقلت: ومن يسمع بهذا المستشفى.. إنني أقف فيه.. ولكن لا أعلم عنه شيئا.. ففي أي مكان هو؟.. لعلي أفلح في إقناعهم بالإرشاد إليه.

قال: هو في كل مكان..

قلت: ولكنا لا نراه..

قال: لأنكم لا تبصرون..

قلت: نحن نبصر.. بل نزيد في قوة أبصارنا كل يوم بما نخترعه من ألوان العدسات المكبرة.. فنحن نرى المجرات كما نرى دقائق الميكروبات.

قال: أنتم تبصرون بأبصاركم، ولا تبصرون ببصائركم.. فلذلك تعشى عيونكم عن رؤية مثل هذه الأدوية.

بينما أنا كذلك إذ سمعت صوتا عذبا تميد له قلوب الجالسين يردد قوله ﷺ:(احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة، فإذا سألت، فسل الله، وإذا استعنت، فاستعن بالله، جف القلم بما كان وما هو كائن، فلو جهد العباد أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عز وجل لك، لم يقدروا عليه، فإن استطعت أن تعمل لله بالصدق واليقين، فافعل، فإن لم تستطع، فإن في الصبر على ما تكره، خيراً كثيراً، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً)[1]

قلت: الله !.. لكأني أسمع هذا الحديث لأول مرة.. ما أحسن قراءة هذا الصوت لهذا الحديث.

قال: هذا صوت القلب..

قلت: أليس هذا صوتا للسان؟

قال: هو صوت اللسان النابع من القلب.

قلت: لقد رأيت هؤلاء المسترخين يميدون كما تميد السنابل تحركها الأعاصير.

قال: أرواحهم تبع لأجسادهم.. ومن يسمع مثل هذا ولا يميد؟!.. أتعلم لمن قال رسول الله ﷺ هذا الحديث؟

قلت: بلى.. لقد قاله لابن عباس ﷺ.

قال: فأي شيخ هو؟

قلت ضاحكا: شيخ.. لا.. لقد كان غلاما صغيرا.

قال: أرأيت كيف يربي ﷺ الأمل في الله في قلوب الأطفال.. سمعت أنكم تلقحون[2] صبيانكم في صغرهم لتحفظوهم من شرور الأوبئة.

---

(١) الحديث بهذا اللفظ رواه الطبراني في الكبير وابن حبان.

(٢) اللقاح كلمة عامة تعني: حثُّ الجسم على تشكيل مناعة ذاتية ضد العناصر المرضة، واللقاح قد يعطي الجسم جراثيم مضعفة مخبرياً، أو ميتة، أو سموم الجراثيم، وكلها تحثُّ جهاز المناعة على تكوين العناصر المناعية الذاتية الجاهزة والقادرة على مهاجمة أسباب المرض لدى دخولها الجسم.

قلت: بلى، فنحن نلقحهم ضد السلِّ والتيتانس، وشلل الأطفال، والجدري، والشاهوق، والحميراء، والخناق.. وقد نلقحهم في حال الضرورة ضد التهاب السحايا، والكوليرا، والتيفوئيد، والحمَّى الصفراء، والكَلَب..

قال: فلا تنسوا أن تضيفوا هذا اللقاح.

قلت: أي لقاح؟

قال: لقاح الأمل في الله.. وفي حفظ الله.. وفي فرج الله.. فهذا اللقاح هو الذي يقي أرواحهم من فيروسات اليأس القاتلة.

***

قلت: فهمت كل هذا ــ يا معلم ــ ولكني لا أعرف أن مثل هذا يمكن اعتباره علاجا؟

قال: لم؟

قلت: لأن العلاج هو الذي يقضي على المرض، أما هذا، فلا يفعل شيئا.. بل المرض هو المرض.

قال: فهل جميع أدويتكم تقضي على الأمراض؟

قلت: منها ما يقضي، ومنها ما يخدر.

قال: أفلا تلجأون إلى هذا النوع من الأدوية المخدرة في كثير من الأمراض؟

قلت: بلى.. نلجأ إليها.. بل لا تكاد تخلو وصفة منها.

قال: فاعتبروا هذا من ذاك.

قلت: ولكني أعتبر هذا نوعا من الكذب على النفس.. وكأني أقول لها: لقد شفيت، مع أن الطعنات التي يواجهها بها المرض لا تزال تنخر قواها.

قال: لا.. ليس هذا من الكذب.. بل هو من سياسة النفس.

قلت: ما معنى هذا؟

قال: ألم تسمع قوله ﷺ:(إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل، فإن ذلك لا يرد شيئا، وهو يطيب بنفس المريض)[1]

قلت: بلى..

قال: فقد شرع ﷺ في عيادة المريض أن ننفس عنه، ونبسط له جناح الأمل، فالأمل وحده سعادة، وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل[1].

---

(١) الترمذي كتاب الطب باب رقم (٣٥) رقم الحديث (٢٠٨٧) وقال: غريب. ورواه ابن ماجة عن أبي سعيد.

قلت: ولكن الجسد ــ مع ذلك ــ يبقى عليلا، فهو كالتبن الذي يخفي النار التي تلتهمه.

قال: والأمل هو الماء الذي يطفئ تلك النار، فلذلك قد يكون فيه من القوة بحيث يستطيع القضاء على المرض..

سمعت صوتا كأنه يقاطع المعلم، قلت: من هذا؟.. ما هذا الصوت؟

قال: هذا صوت ابن القيم، وهو ــ كما تعلم ــ طبيب من أطباء هذا المستشفى.. وقد سمع هذا الحديث، وهو يريد أن يبين ما فيه من الطب.

قال ابن القيم: في هذا الحديث نوعٌ شريف جداً من أشرف أنواع العلاج، وهو الإرشاد إلى ما يطيبُ نفسَ العليل من الكلام الذي تقوى به الطبيعةُ، وتنتعشُ به القوة، وينبعثُ به الحار الغريزي، فيتساعدُ على دفع العلة أو تخفيفها الذي هو غايةُ تأثير الطبيب.

قلت: يا ابن القيم.. يا من فتح الله عليه في العلم والطب كيف كان ﷺ يعالج بهذا الدواء؟

قال: لقد كان ﷺ يسأل المريض عن شكواه، وكيف يجده ويسأله عما يشتهيه، ويضع يده على جبهته، وربما وضعها بين ثدييه، ويدعو له، ويصف له ما ينفعه في علته، وربما توضأ وصب على المريض من وضوئه، وربما كان يقولُ للمريض: (لاَ بَأسَ طَهُورٌ إن شَاءَ الله)

بل كان ﷺ يحث على استعمال الأغذية والأدوية المفرحة..

قلت: المفرحة.. ما المفرحة؟

قال: هي أعشاب جعل الله فيها خواص تملأ النفس انشراحا وفرحا.

قلت: فهي مثل الحبوب التي تصرف من قبل الأطباء النفسانيين لما لها من تأثير على نفسية متعاطيها.

قال المعلم: مع فارق بسيط وخطير.

قلت: ما هو؟

قال: تلك أدوية ربانية، فيها العلاج المحض الخالي من كل داء، أما أدويتكم فهي أدوية وسموم تحيي، ولكنها تقتل في نفس إحيائها.

قلت: فاذكر لي أمثلة عنها.

---

(١) ويدل لهذا قوله ﷻ ــ وهو يبين قيمة الأمل وثمرته النفسية ــ:﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(آل عمران:١٢٦)، أي وما أنزل اللّه الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم وتطييباً لقلوبكم وتطميناً، وإلا فإنما النصر من عند اللّه الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم.

فمع أن النصر من عند الله، إلا أن إخبار المؤمنين بمدد الله من الملائكة كان له تأثيره الجميلة في نفوس العصبة المؤمنة.

قال: هو ذا ابن القيم يعطيك هذه الأمثلة.

قال ابن القيم: السفرجل.

قلت: أهو من الأدوية المفرحة؟

قال: أجل.. فعن طَلْحَةَ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النّبيّ ﷺ وَبِيَدِهِ سَفَرْجَلَةٌ، فَقَالَ: دُونَكَهَا يَا طَلْحَةُ فَإِنّهَا تُجمّ[1] الْفُؤَاد)[2]

قلت: فاذكر لي مثالا آخر.

قال: التلبينة، فعن عائشةَ ـــ رضيَ اللهُ عنها ـــ أنها كانت تأمرُ بالتلبينة للمريض، وللمحزونِ على الهالك، وكانت تقول: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:(إنّ التلبينةَ تجمّ فؤادَ المريض، وتَذهبُ ببعض الحزن)[3]

قلت: وما التلبينة؟

قال: هي حساء يُعمل من ملعقتين من دقيق الشعير بنخالته، ثم يضاف لهما كوب من الماء، وتطهى على نار هادئة لبعض دقائق، ثم يضاف كوب لبن وملعقة عسل نحل، وقد سميت تلبينة تشبيها لها باللبن في بياضها ورقتها.

قلت: لقد ذكرتني بما يقول خبراء التغذية في عصرنا، فالتقارير العلمية الحديثة توصي بالعودة إلى تناول الشعير كغذاء يومي؛ لما له من أهمية بالغة للحفاظ على الصحة والتمتع بالعافية.

بل إنهم وجدوا مواد فيه لها تأثيرها في مقاومة الاكتئاب، والتخفيف من حدته[4].

---

(١) أي تفرح.

(٢) النسائي.

(٣) البخاري.

(٤) ومنها: المعادن: فتشير الدراسات العلمية إلى أن المعادن مثل البوتاسيوم والماغنسيوم لها تأثير على الموصلات العصبية التي تساعد على التخفيف من حالات الاكتئاب، وفي حالة نقص البوتاسيوم يزداد شعور الإنسان بالاكتئاب والحزن، ويجعله سريع الغضب والانفعال والعصبية. وحيث إن حبة الشعير تحتوي على عنصري البوتاسيوم والماغنسيوم فالتلبينة تصلح لعلاج الاكتئاب، ويلاحظ هنا أن الدراسات العلمية تستخدم كلمة "التخفيف من حالات الاكتئاب"، ونجد ما يقابلها في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تذهب ببعض الحزن"، وهذه دلالة واضحة على دقة التعبير النبوي الذي أوتي جوامع الكلم.

– فيتامين ب: فقد يكون أحد مسببات أعراض الاكتئاب هو التأخر في العملية الفسيولوجية لتوصيل نبضات الأعصاب الكهربية، وهذا بسبب نقص فيتامين ب؛ لذلك ينصح مريض الاكتئاب بزيادة الكسية المأخوذة من بعض المنتجات التي تحتوي على هذا الفيتامين كالشعير.

– مضادات الأكسدة: حيث يساعد إعطاء جرعات مكثفة من حساء التلبينة الغنية بمضادات الأكسدة (فيتامين هـــ و أ) في شفاء حالات الاكتئاب لدى المسنين في فترة زمنية قصيرة تتراوح من شهر إلى شهرين.

***

قلت: إذن دور هو القسم من أقسام المستشفى هو البحث عن كل ما يشرح صدر المريض من الأعشاب والأغذية.

قال: لا.. ليس هذا فقط.. وهذا ميدان أطباء هذا القسم من المختصين.. ولكن هناك شيء آخر، وهو أهم من تلك الأدوية.

قلت: أهم من تلك الأدوية؟!

قال: أجل.. فتلك الأدوية قد يفلح مفعولها، وقد لا يفلح.. بينما هذه الأدوية التي ستزور أقسامها لا شك في جدواها.

قلت: فما هو منبع هذه الأدوية؟

قال: حسن الظن بالله.

قلت: لم كان حسن الظن منبع الأمل؟

قال: لأنه يجعل القلب متوجها لخير الله منتظرا فضله، والله عند ظن عبده، وقد قال ﷺ في الأثر الإلهي:(يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني)[1]

***

سمعت أصواتا جميلة تترنم بلحن، لست أدري هل كان من السماء أم من الأرض، تقول:

أحسـن الظـن بـرب عـودك حسـنا أمـس وسـوى أودك

إن ربـا كـان يكفيـك الـذي كـان بـالأمس سـيكفيك غـدك

قلت: الله ! ما هذا لصوت الجميل.. ومن أين يصدر.. لا أرى مذياعا هنا.. ولا آلة تسجيل.

قال: أصوات البصائر لا تحتاج إلى الآلات.

– الأحماض الأمينية: يحتوي الشعير على الحمض الأميني تريبتوفان Tryptophan الذي يسهم في التخليق الحيوي لإحدى الناقلات العصبية وهي السيروتونين Serotonin التي تؤثر بشكل بارز في الحالة النفسية والمزاجية الإنسان، انظر: دراسات كيميائية حيوية وتكنولوجية على حبوب الشعير، رسالة ماجستير، م. سحر مصطفى كامل، كلية الزراعة، جامعة القاهرة، ١٩٩٧م.

(١) البخاري ومسلم عن أبي هريرة، وتتمته:« فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة »

قلت: فمن لحن هذا اللحن؟

قال: ألحان القلوب لا تحتاج إلى ملحنين، فهي عذبة بذاتها.

قلت: فلم كان حسن الظن بالله منبع انتظار الفرج وأساسه؟

قال: لأن الشعور بقرب الله ورحمته، والتفكر في فضله ورأفته، يجر إلى إحسان الظن به، وإحسان الظن به، سبيل للاستعانة به.. فلا يمكن أن تستعين بمن تشك في فضله أو قدرته.

بينما أنا كذلك إذ رأيت شخصا يربت على كتفي، لعله أول شخص ينتبه لي في هذا المستشفى، فالكل كان غارقا في توحده، قال لي:(استعمل في كل بلية تطرقك حسن الظن بالله عز وجل، في كشفها، فإن ذلك أقرب بك إلى الفرج)، ثم مضى.. لا يهتم بردي.. ولا ينتظر سؤالي.

بعدها سمعت صوتا جميلا.. لا يقل عن الصوت السابق جمالا يردد:

يـــــــــا صـــــــــــاحب الهــــــــــمِّ إنَّ الهــــــــــم منفــــــــــــرجٌ

أبشِـــــــــــــر بخـــــــــــــيرٍ، فـــــــــــــإنَّ الفـــــــــــــارج الله

اليـــــــــــــأس يقطـــــــــــــع أحيانـــــــــــــاً بصـــــــــــــاحبه

لا تيأســـــــــــــــــنَّ فـــــــــــــــإنَّ الكـــــــــــــــافي الله

الله يُحـــــــــــــدِث بعـــــــــــد العســـــــــــر ميســـــــــــرة

لا تجـــــــــــــــزعنَّ فـــــــــــــإن القاســـــــــــــم الله

إذا بُليـــــــــــت فثِـــــــــــقْ بـــــــــــالله وارضَ بـــــــــــه

إنَّ الـــــــــــذي يكشـــــــــــف البلـــــــــــوى هـــــــــــو الله

والله مـــــــــا لـــــــــــكَ غـــــــير الله مـــــــــن أحـــــــــدٍ

فحســــــــــــــبُك الله في كـــــــــــــــلٍ لــــــــــــــك الله

قلت: الله.. ما أجمل هذه القصيدة.. كثيرا ما كنا نترنم بها.. ولكني أسمعها بلحن لم أسمعه من قبل..

قال: هذه ألحان القلوب كما قلت لك.

قلت: لقد اكتفى الشاعر بذكر أوصاف الله ليغرس الأمل في القلوب.

قال: حسن الظن بالله يستدعي التعرف على الله، فلا يمكن أن تحسن الظن بمن لا تعرفه.

قلت: هذا صحيح، فالمريض المتألم لا يرتاح إلا إذا وصف له الطبيب الخبير النطاسي، والسائل المحتاج لا يطمع إلا إذا أخبر عن الغني الكريم.

قال: وهكذا، فإن المتألم لا يشعر بالأمل فيما عند الله إلا بمعرفته.

قلت: ولكن معرفة الله بحر لا ساحل له.

قال: ولهذا سنكتفي ــ هنا ــ بالاغتراف من بعض أسماء الله الحسنى التي ورد التنصيص عليها، والتي تدل على قدرة الله التي لا يعجزها شيء، وعلى فضله العظيم الذي لا يحده شيء.

قلت: تعني أن حسن الظن يعتمد على معرفة القدرة والفضل.

قال: أجل.. فقد يكون العاجز كريما.. فيقف عجزه حائلا بينه وبين كرمه.. وقد يكون البخيل مالكا القدرة على التكرم عليك، ولكن بخله يحول بينه وبين ذلك.

قلت: ولهذ كان حسن الظن لا يكتمل إلا فيمن له القدرة المطلقة، والفضل العظيم.

قال: وليس ذلك إلا الله.

قلت: فكيف أتحقق بهذا؟

قال: بترتيل أسماء قدرته وفضله.

قلت: فهل لهذه الأسماء أقسام في هذا المستشفى؟

قال: أجل.. هلم بنا إليها.

١ ــ القدرة المطلقة

دخلنا القسم الأول من أقسام حسن الظن بالله، وقد كتب على بابه ــ بحروف تحمل قوة عظيمة، ممزوجة بلطف عظيم ــ:﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(آل عمران:٤٠)

قلت للمعلم: لا شك أن هذا هو قسم القدرة المطلقة.

قال: أجل، وهو من الأقسام الهامة التي يحتاج المرضى اليائسون من المرور عليها.

قلت: لم؟.. وأي داء يعالجون؟

قال: أول ما ينفخه الشيطان من بذور اليأس في نفسك هو إخبارك باستحالة إصلاح ما حل بك، فلذلك كان علاج هذا الداء بقتل هذه البذور في مهدها قبل أن تنبت.

قلت: وما تنبت؟

قال: شجرة اليأس القاتل.

قلت: وكيف تقطع هذه الشجرة إن نبتت؟

قال: بدلالتها على القادر الذي لا يستحيل معه شيء.

قلت: ألله؟

قال: وهل هناك قادر غيره.. فاعتقاد المؤمن بقدرة الله المطلقة، والتي لا يقف المستحيل أمامها تجعله يشعر باستناده إلى ركن عظيم، وهذا الشعور هو الذي يولد فيه الأمل من جهة، ويحضه على التوجه إلى الله من جهة أخرى، وفي كلا الأمرين يبتسم أنينه، وتنفرج أسارير قلبه.

***

بينما كنت أستمع للمعلم رأيت رجلا يمر على المرضى، ويقول لهم:(اذكروا زكريا.. اذكروا زكريا)

قلت: أرغب هذا عن دين محمد ﷺ إلى دين زكريا u.. ما باله لا يدعوهم إلى ذكر الله.. ويدعوهم إلى ذكر زكريا؟

قال: ذكر زكريا هو ذكر لمحمد.. وذكرهم جميعا هو ذكر لله.. فلا يحجب أهل الله عن الله.. الصراع هو الذي تكون فيه الحجب.

قلت: أستغفر الله.. لكن لماذا خص زكريا u؟

قال: هو ينبههم إلى التدبر في قصة زكريا u عندما رأى مريم ــ عليها السلام ــ وعندها من رزق الله ما احتار في سببه، فقال لها:﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَت هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(آل عمران:٣٧)

ففي ذلك الحين امتزج الشعوران لدى زكريا u: الشعور بقدرة الله المطلقة التي لا يقف في وجهها الزمن ولا المستحيل، والشعور بفضل الله العظيم، فهو يرزق من يشاء بغير حساب.

وعندما امتزج الشعوران توجه لله طالبا ما كان يتصوره مستحيلا يستحي أن يسأل الله تحقيقه، قال تعالى مؤرخا لتلك اللحظة التي كانت فتحا عظيما على زكريا u:﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾(آل عمران:٣٨)

قلت: حينها جاءته الملائكة ــ عليهم والسلام ــ بالبشارة، وبتحقيق الأمل الذي كان حبيس القلب، واستحيا اللسان من إبرازه، قال تعالى:﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(آل عمران:٣٩)

قال: وحينها ــ كذلك ــ انحلت عقدة لسان زكريا u متعجبا من هذا، لا منكرا له، فسأل الله عن كيفية ذلك كما سأله الخليل u من قبل عن كيفية إحياء الموتى، فرده الله إلى مشيئته المطلقة، قال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ (آل عمران:٤٠)

قلت: وحينها أجابه الملك:﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(آل عمران:٤٠)

قال: أعرفت الآن لم كتبت هذه الآية في مدخل هذا القسم؟

قلت: أجل..

قال: ولهذا يملأ القرآن الكريم نفوسنا وضمائرنا بقدرة الله المطلقة، لنتوجه بكل كياننا إليه، فلا نعتقد أن هناك مستحيلا أمام الله، وأمام قدرة الله، قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾(فاطر: من الآية٤٤)

***

مر رجل آخر على المرضى، وهو يقول لهم:(اذكروا السموات والأرض.. اذكروا العرش والكرسي)

قلت: لم يذكرهم بهذا؟

قال: لينبههم إلى قدرة الله المطلقة.

قلت: يا معلم، لم نرى القرآن الكريم يمتلئ بذكر السموات والأرض في مواضع الحديث عن القدرة؟

قال: لأن أكبر ما ترونه هو السموات والأرض، وهما ماهما.

قلت: يا معلم.. نحن نرى الأرض، ولكنا لا نرى إلا جزءا بسيطا من السماء.

قال: نعم.. أنتم لا ترون إلا جزءا بسيطا من السماء الدنيا، وهي لا تساوي شيئا أمام ملك الله الواسع.

قلت: لقد ورد في النصوص ذكر الكرسي، وهو خلق غير السموات والأرض، بل أخبر تعالى أنه أوسع منهما، قال تعالى:﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾(البقرة: من الآية٢٥٥)

قال: ومع ذلك، فإنه لا يساوي شيئا أمام العرش، فعن أبي ذر الغفاري ﷺ أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي، فقال رسول اللّه ﷺ:(والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة)[1]

قلت: ولكن الله مع ذلك يخاطب عباده بما تعيه عقولهم.

قال: ليقرب لهم الحقيقة التي لا يمكن تقريبها.. لأن تقريبها يؤدي إلى التشبيه، والله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: من الآية١١)

قلت: ولهذا يضرب الله تعالى المثل على قدرته بإمساك السموات والأرض وحفظهما، تقريبا لعظمة القدرة من القلوب، وإلا فإن قدرة الله لا نهاية لها، ولا حدود تحدها، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾(فاطر:٤١)

قلت: لقد أخبر تعالى أنه لا يؤوده[2] ولا يثقله حفظهما، قال تعالى:﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾(البقرة: من الآية٢٥٥)

وعندما افترى الغافلون من اليهود ما افتروا على الله من ركونه إلى الراحة بعد خلق السموات والأرض[3] رد عليهم قائلا:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾(ق:٣٨)

---

(١) ابن حبان، وأبو نعيم في الحلية، وابن عساكر.

(٢) يقال: آده يؤده: إذا أثقله وأجهده، وأدت العود أودا، وذلك إذا اعتمدت عليه بالثقل حتى أملته، والمعنى: لا يثقله ولا يشق عليه حفظهما أي حفظ السماوات والأرض.

(٣) ذكر المفسرون في سبب نزول الآية أنّ اليهود كانوا يتصوّرون أنّ الله خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام «ستّة أيّام من أيّام الأسبوع»! ثمّ استراح في اليوم السابع «السبت» فوضع رجلا على رجل أُخرى.

وعندما تعجب الغافلون من إمكانية إحياء الموتى بعد أن يصبحوا رمما بالية، رد عليهم الله تعالى بقوله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(الروم:٢٧)

قال: سبب ذلك أن هؤاء المتعجبين قارنوا قدرتهم بقدرة الله، وعلمهم بعلم الله، ونسوا أن ينظروا إلى أنفسهم ليروا الآيات العظيمة التي ينطوي عليها وجودهم، فلذلك نرى القرآن الكريم ينبه كثيرا إليها، قال تعالى:﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(يّـــس:٧٨)

ثم أمر رسوله ﷺ بالرد عليهم بإعادة النظر إلى منشئها الأول، فقال تعالى:﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(يّـــس:٧٩)

أو بتقليب أطرافهم في السماء والأرض، قال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الاحقاف:٣٣)

والقرآن الكريم لا يسوق هذه التنبيهات لهؤلاء الغافلين وحدهم من اليهود والمنكرين للبعث، بل يسوقها لكل ضمير قد توسوس له خواطر السوء أن هناك شيئا ما من شئون الحياة قد يعجز الله، أو قد يستحيل على الله.

ولذلك يخبر تعالى أن الخلق ما قدروه حق قدره حين نسبوا العجز له في أي محال من المحال، قال تعالى:﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٧٤)، وقال تعالى:﴿)وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾(الأنعام: من الآية٩١)

فلذلك يذكرهم بقدرته التي لا تحد، قال تعالى:﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الزمر:٦٧)

بل يقسم الله تعالى على قدرته التي لا تحد، ليؤكد هذا المعنى في الضمير المؤمن، قال تعالى:﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ (المعارج:٤٠)

***

سرت مع معلم السلام في أرجاء هذا القسم، فرأيت بابا قد كتب عليه (باب معاينة مظاهر القدرة)

قلت للمعلم: هيا بنا ندخل إلى هذه القاعة ففيها معاينة مظاهر القدرة.

قال: أخاف أن لا تخرج منها.

قلت: لم؟

قال: كثير ممن دخل هذه القاعة وعاين بعض مظاهر قدرة الله لم يطق فراقها، فلم يخرج منها منذ دخلها.

قلت: لا تخف ــ يا معلم ــ فقد أخبرتك أني لا أسكن إلا لغاية الغايات وقدس الأقداس.

قال: فادخل، ولا تطل المكث، فالأقسام الأخرى في انتظارنا.

دخلت القاعة، وهي كقاعات السنما إلا بفارق بسيط هو أن السينما تنقل الصور إلى العيون، أما هذه القاعة، فتنقل العيون إلى الصور، كانت صورا كثيرة مزدحمة تملتئ بها القلوب والعقول.

أما الحضور.. فقد كانت أفواههم مشدوهة لعظم ما يرون.. وقد غابوا عن كل الآلام التي لا تخفيها الإعاقات التي تنم بها جوارحهم.

سألت المعلم: من هؤلاء؟

قال: هؤلاء مرضى يئس أطباؤكم من علاجهم.. فهداهم الله لهذا المستشفى.

قلت: ولكن عللهم لا تزال تنخر في أجسادهم.

قال: وما يهمهم من عللهم.. هم يعيشون في سعادة لا يعيشها أعظم ملوككم.

أشار إلى أحدهم، فقال: أتعلم من هذا؟

قلت: لا.. ولكن يبدو أن المشيب بدأ يشتعل في شعره ليقضي على سواد شبابه.

قال: هذا الرجل الذي تراه، جلس هنا منذ ثمانين سنة، و لم يفارق مجلسه.

قلت: ثمانين.. عجيب هذا.. لا يبدو عليه التقدم في العمر.

قال: إنما يعمر الجسد البالي.. أما المعاينون، فقد ذاقوا إكسير الشباب الدائم، فلا ينشغلون بشيخوخة ولا هرم.

قلت: يا معلم.. دعني أجلس معهم.

قال: ألم نتفق على عدم السكون لشيء؟

قلت: أجل..

قال: فهيا.. فبالله إن تسر ترى العجائب.

***

خرجت من القاعة، وعند خروجي ربت على كتفي شيخ وقور بحنان، وقال:(أليس في قدرة هذا الذي خلق كل هذا أن يخفف عني ما أنا فيه، أو يرمي بدائي إلى الهاوية التي لا حدود لها !؟)

قلت: نعم.. فمن أنت؟.. فما أعظم وقارك؟

تركني وانصرف، قال المعلم: هذا نزيل أقنعه الأطباء بكل أجهزتهم أنه ميئوس منه، وقد جاء إلى هنا.. وهو يعيش في سلام منذ جاء.

***

بعد خروجي لقيني شاب لا يقل عن الشيوخ وقارا، وقال: بعد هذه المظاهر التي تدل على قدرة الله المطلقة، والتي لا يعجزها شيء، هل تظل أيها المتألم حبيس آلامك، متصورا استحالة تفريجها.

أليس الذي خلق السموات والأرض، ودبر أمر الدقيق والجليل، أعظم من أن يقف المستحيل في طريقه، وأكبر شأنا من أن يعجزه ما نفخه شيطان اليأس في نفسك.

أردت أن أسأله عنه، فقاطعني، وقال: قد تقول:(نعم إنه قادر على كل شيء، ولكن من أنا حتى يتوجه إلي فاكا أزمتي، مفرجا كربتي، وما أنا إلا قطرة من بحر محيطه، أو هباءة في فضاء أثيره

إذا راودك هذا الخاطر، وأوحت لك شياطين الإنس والجن بهذه الوساوس، فاذهب إلى ذلك القسم، فستجد فيه ضالتك)

٢ ــ الفضل الواسع

دخلنا القسم الثاني من أقسام حسن الظن بالله، وقد كتب على بابه ــ بحروف تحمل رحمة ممزوجة بحكمة ــ قوله تعالى:﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(البقرة: من الآية١٠٥)

قلت للمعلم: لا شك أن هذا هو قسم الفضل الواسع.

قال: أجل، وهو من الأقسام الهامة التي يحتاج المرضى اليائسون من المرور عليها.

قلت: لم؟.. وأي داء يعالجون؟

قال: الفضل مكمل للقدرة.. ولا تبرز القدرة إلا بالفضل.. ولا يكتمل الفضل إلا بقدرة.

قلت: اشرح لي هذا، فإني أرى القدرة منفصلة عن الفضل انفصالا تاما.

قال: من كان قادرا، ولكنه بخيل، فإنه لا يصدر منه شيء، فإن صدر كان محفوفا ببخله.. ومن كان متفضلا، ولكنه عاجز كتم عجزه فضله، أو رماه عجزه بالبخل.

قلت: ففضل الله عظيم كقدرته؟

قال: لا يوازي قدرته إلا فضله، ألم تقرأ قوله تعالى:﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(البقرة: من الآية١٠٥)

قلت: هذه الآية هي آية هذا الباب، وهي تذكر فضل الله الواسع العظيم.. ولكن القرآن الكريم يذكر أن فضل الله موزع حسب مشيئة الله، فهو:﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(آل عمران:٧٤)

قال: لا تفهم من هذه الآية غير ما تريد.. فضل الله واسع، ولكن من الخلق من تعرض له، فصار مخصوصا بالرحمة، ومنهم من أعرض فصار مخصوصا بالشقاوة.. فضل الله كالمطر من تعرض له ترابا أنبت طيبا، وأثمر طيبا، ومن تعرض له صخورا قاسية، فإن المطر يترل عليه، ولكنه لا يؤثر فيه.

قلت: أرى القرآن الكريم يقصر الفضل على الله، كما قال تعالى:﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(الحديد:٢٩)

قال: أجل ففضل الله بيد الله.. وهذا معنى جميل، تطرب له النفوس، لأنه ينفي الوسائط بين عباد الله، وفضل الله، فيكفي العبد أن يتوجه لله صادقا مخلصا ليرى يد الله، وهي تمتد إليه بالفضل والكرم والجود، كما قال تعالى:﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾(البقرة: من الآية١٨٦)

وهذا الشعور هو الذي يتولد منه الرجوع إلى الله والاستمداد منه..

بينما نحن كذلك مر علينا رجل، والابتسامة تشع من عينيه، وهو يقول: الله ! ما أعظم فضل الله !..إنه الجدار الذي تتحطم أمامه كل الآلام.

ثم قصدني، وكأنه يعرفني، وربت على كتفي، وقال: ابتسم ــ أيها المتأ لم لأناتك ــ وطالع أسماء ربك التي تنطق بها حروف المكونات، وتضرع إليه بها كما يتضرع الكون جميعا، ففي نفس تضرعك تكمن الاستجابة، وفي نفس طلبك تتحقق الأماني.

قلت: من هذا؟، ومن أين خرج؟

قال: هذا الرجل كان في أقسام أسماء الفضل.. وهي أقسام تعرف بفضل الله انطلاقا من أسماء الله.

قلت: أهناك أقسام غير هذه؟

قال: أجل.. فهناك أقسام تعرف فضل الله من خلال أكوان الله.

قلت: فأي القسمين نزور؟

قال: سنقتصر من زيارتنا في هذا المحل على أسماء وردت في أكثرها النصوص المتعلقة بتفريج الكروب، وإجابة الدعوات وتنزل الفضل، لتزرع في قلوبنا قرب الله منا، وفضله العظيم علينا.

قلت: والفضل الذي تختزنه أكوان الله متى نراه.. أو متى نزوره؟

قال: ستزوره في درس آخر من دروس السلام، عندما نسبح في (بحار النعم)

الحي القيوم

دخلنا قسما من أقسام الأسماء المرتبطة بفضل الله، وقد كتب على بابه:(الحي القيوم)

قلت للمعلم: هذان اسمان من أسماء الله الحسنى.

قال: نعم.. هما اسمان، وهما اسم واحد؟

قلت: ما هذا التناقض؟

قال: كل واحد منهما إذا انفرد كان اسما من أسماء الله الحسنى، وفي اجتماعهما يتشكل اسم جديد له دلالة جديدة.

قلت: فما هي الدلالة الجديدة التي يحملها؟

قال: لا تعرفها إلا إذا عرفت دلالة كل اسم منفردا.

الحي:

قلت: فما الحي.. ولماذا كان من أسماء الفضل؟

قال: هو من الأسماء الدالة على الفضل وغيره، فلا يمكن للقادر أن يكون قادرا إلا إذا كان حيا.. فالحياة هي الصفة التي تعتمد عليها جميع الصفات.

قلت: عرفت هذا.. فنحن لا يمكن أن نقوم بأي عمل إذا إذا كنا أحياء.

قال: مع فارق عظيم بين حياتكم البدائية البسيطة وحياة الله ألا تعلم أن الله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(الشورى: من الآية١١)

قلت: فما علاقة الحياة بفضل الله؟

قال: لا يمكن أن تدعو ميتا.. ولا أن يستجيب لك ميت.

قلت: صدقت.. لقد عبر الشاعر عن ذلك، فقال:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

قال: بل عبر الحق تعالى عن ذلك، فقال:﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾(الفرقان: من الآية٥٨)، فقد ربط بين التوكل والحياة.. والتوكل هو استعانة بالله واستسلام مطلق لله ناتج عن ثقة عظيمة بفضل الله.

قلت: ألهذا إذن يقترن هذا الاسم بالأمر بدعاء الله، كما قال تعالى:﴿ هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(غافر:٦٥)

قال: أجل، أي لأنه حي، فادعوه، لأن الدعاء لا يكون إلا لحي، وقد ورد الدعاء بهذا الاسم في هذا الباب، فقد روي أن رسول الله ﷺ قال:(ما كربني أمر إلا تمثل لي جبريل، فقال يا

محمد: قل توكلت على الحي الذي لا يموت والحمد لله الذي لم يتخذ ولدا، و لم يكن له شريك في الملك، و لم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيرا)[1]

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(ألا أعلمك كلمات تذهب عنك الضر والسقم، قل: توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ ولدا، و لم يكن له شريك في الملك، و لم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيرا)[2]

وقد روي في الاستعاذات المأثورة:(أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا تموت والجن والإنس يموتون)[3]

القيوم:

قلت: فما القيوم.. ولماذا كان من أسماء الفضل؟

قال: هو القائم بنفسه المقيم لغيره.

قلت: فما القائم بنفسه؟

قال: هو الذي عظمت صفاته، فاستغنى عن جميع مخلوقاته.

قلت: فكيف قام غيره به؟

قال: هو الذي أوجد الأشياء، وأمدها وأعدها لكل ما فيه بقاؤها وصلاحها وقيامها.

قلت: فالقيوم إذن هو الغني عن الأكوان من كل وجه، وهي التي افتقرت إليه من كل وجه.

قال: ومن كان كذلك، فحري أن يستغاث به، ويلجأ إليه، ويطرق بابه.

قلت: فلهذا الاسم إذن تأثيره الخاص في زرع الثقة بقدرة الله المطلقة، وفضله العظيم.

قال: أجل.. فقد جمع هذا الاسم بين المعنيين جميعا، ولذلك كان من الأسماء التي ورد الدعاء بها في الكربات.

الحي القيوم:

قلت: عرفت المفردات، فما معنى التركيب؟

قال: يتشكل من ذينك الاسمين اسم جديد[4] له دلالته الخاصة والمؤثرة.

قلت: فما هي؟

---

(١) ابن أبي الدنيا في الفرج والبيهقي في الأسماء عن إسماعيل بن أبي فديك مرسلا، وابن صصري في أماليه عن أبي هريرة.

(٢) ابن السني في عمل يوم وليلة عن أبي هريرة.

(٣) البخاري عن ابن عباس.

(٤) انظر في اقتران الأسماء ودلالاتها رسالة « أسرار الأقدار »

قال: هي مثل دلالة اجتماع القدرة مع الفضل، فقد يكون قادرا غير متفضل، أو متفضلا غير قادر.

قلت: وهنا: قد يكون حيا غير قيوم، أو قيوما غير حي.

قال: أجل، فإذا كان حيا لم ترجه لحياته فقط، فقد يكون حيا ضعيفا.. ولو كان قيوما غير حي، لا ترجوه كذلك، لأنه لا يسمعك إلا إذا كان حيا.

قلت: وبكونه حيا قيوما تجتمع فيه جميع مواصفات من يدعى فيجيب.

قال: أجل، ولهذا ورد في النصوص ما يشير إلى كون هذا الاسم المقترن يحمل معنى اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى[1]، فعن أنس بن مالك ﷺ قال:سمع النبي ﷺ رجلاً يقول:(اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك المنان يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار)، فقال النبي ﷺ:(لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب) [2]

بالإضافة إلى ما روي من حديث أبي أمامة ﷺ:(أن الاسم الأعظم في ثلاث سور: البقرة، وآل عمران، وطه)، قال القاسم الراوي عن أبي أمامة:(التمست منها فعرفت أنه (الحي القيوم)[3]

---

(١) اختلف العلماء في « الاسم الأعظم » الذي إذا دُعي به لا يرد، اختلافا عظيما:

فمنهم من أنكره مثل أبي جعفر الطبري، وأبي الحسن الأشعري، وجماعة بعدهما كأبي حاتم ابن حبان، والقاضي أبي بكر الباقلاني، فقالوا: لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض، وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم العظيم، وجعلوا اسم التفضيل على غير بابه، وهو أسلوب معروف عند علماء العربية، وأن أسماء الله كلها عظيمة.

ومنهم من ذكر أن الأعظمية الواردة في الأخبار إنما يراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك، كما إذا أطلق ذلك في القرآن، المراد به مزيد ثواب القارئ.

ومنهم من ذكر أن المراد بالاسم الأعظم، كل اسم من أسماء الله تعالى دعا العبد به مستغرقاً بحيث لا يكون في فكره حينئذ غير الله تعالى، فإن من تأتى له ذلك استجيب له، ونقل معنى هذا عن جعفر الصادق، وعن الجنيد وعن غيرهما.

ومنهم من ذهب إلى أن الله ﷻ استأثر بعلم الاسم الأعظم، ولم يُطْلِعْ عليه أحداً من خلقه وأثبته آخرون، واضطربوا في ذلك.

ومنهم من ذهب إلى تحديد الاسم، واختلفوا في ذلك اختلافا شديدا، منها هذا الاسم المركب، وسنعرض للمسألة بتفاصيلها في محلها الخاص من هذه الرسائل.

(٢) أهل السنن الأربع وابن حبان وأحمد والحاكم.

(٣) ابن ماجه.

وقد يشير إلى هذا قوله ﷺ لأبي بن كعب ﷺ:(ما اعظم آية في كتاب الله تعالى؟)، فقال:(﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(البقرة: من الآية٢٥٥)، فقال ﷺ:(ليهنك العلم أبا المنذر)[١]

قلت: فما السر في هذه الأفضلية؟

سمعت حركات مختلفة من نزلاء ذلك القسم، فسألت المعلم، فقال: هذا ابن القيم ــ فهو من أطباء هذا القسم ــ فهيا لتستمع إليه ما يجيبك على تساؤلك.

اقتربت من الحلقة التي اجتمعت حول ابن القيم، فقال بعد كلام: وعلى هذين الاسمين-الحي القيوم- مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليها ترجع معانيها، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، ولا يتخلف عنها صفة منها إلا ضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها.. استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة، لذلك اقترن هذا الاسم بالتوكل في قوله تعالى:﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾(الفرقان:٥٨))

وأما القيوم: فهو متضمن كمال غناه، وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، القائم على غيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته.

ولهذا، كان ﷺ إذا أهمَّهُ الأَمْرُ، رفع طرفه إلى السماء فقال:(سُبْحَانَ الله العظيمِ)، وإذا اجتهد في الدعاء قال:(يا حَيُّ يا قَيُّومُ)

وكان ﷺ يستغيث بالله مستنجدا متوسلا بهذا الاسم فعن أنس ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا حَزَبَهُ أمرٌ قال:(يا حَيُّ يا قَيُّومُ برحمتِكَ أستغيثُ)[٢]

قلت: يا ابن القيم.. ما سر الالتجاء إلى هذا الاسم.. وما سر الاستغاثة به في قوله:(يا حيُّ يا قَيُّومُ، برحمتِك أستغيثُ)

قال ابن القيم: لذلك مناسبة بديعة، فإنَّ صفة الحياة متضمِّنةٌ لجميع صفات الكمال، مستلزمة لها، وصفة القَيُّومية متضمنة لجميع صفات الأفعال، ولهذا كان اسمُ الله الأعظمُ الذى إذا دُعىَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى: هو اسمُ الحَىّ القَيُّوم، والحياة التامة تُضاد جميعَ الأسقام والآلام، ولهذا لَمَّا كَمُلَتْ حياة أهل الجَنَّة لم يلحقهم هَمٌ ولا غَمٌ ولا حَزَنٌ ولا شىء من الآفات. ونقصانُ الحياة تضر بالأفعال، وتنافى القيومية، فكمالُ القيومية لكمال الحياة، فالحىُّ

---

(١) مسلم.
(٢) الترمذىّ.

المطلق التام الحياة لا يفوتُه صِفة الكمال ألبتة، والقَيُّوم لا يتعذّرُ عليه فعلٌ ممكنٌ ألبتة، فالتوسل بصفة الحياة والقَيُّومية له تأثيرٌ فى إزالة ما يُضادُّ الحياة، ويضُرُّ بالأفعال[1].

بعد انتهاء ابن القيم انفضت الحلقة، وفجأة رأيتها تجتمع عند شخص آخر، قلت للمعلم: من هذا؟

قال: هذا طبيب آخر من أطباء هذا المستشفى.

قلت: هلم نستفيد منه..

قال: حسبك بهذا هنا.. فالأقسام الأخرى في انتظارنا.

---

(١) زاد المعاد: ٤/٢٠٤.

٢ ـــ الصمد

دخلنا قسما آخر من أقسام الأسماء المرتبطة بفضل الله، وقد كتب على بابه: (الله الصمد)

قلت للمعلم: لقد ورد ذكر هذا الاسم في القرآن الكريم مرة واحدة، قال تعالى:﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (الاخلاص:٢)؟

قال: ولكن في سورة اختصت بالتعريف بالله، وهي تعدل ثلث القرآن[١]، فلذلك كانت له لذلك مزية خاصة.

قلت: لقد ورد في اللغة لهذا الاسم دلالات كثيرة جدا[٢]، ولذلك ورد اختلاف كبير بين العلماء من السلف والخلف في تحديد معناه.

قال: ما نحتاج إليه هنا دلالة واحدة وهو الصمد الذي يعني في اللغة القصد، فيكون الصمد بذلك بمعنى المصمود أي المقصود، والمعنى: هو المقصود في الحوائج والنوازل، المستحق أن يُلجَأ إليه لتحقيق الحاجات ونيل الرغبات وتفريج الكربات ودفع الملمات.

قلت: لقد قرأت كلاما جميلا لابن عباس ﷺ في تعريف هذا الاسم.

قال: وما قال؟

قلت: قال:(هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل حلمه، والعليم الذي قد كمل في

---

(١) لقوله ﷺ:« أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة فإنه من قرأ قل هو الله أحد الله الصمد في ليلة فقد قرأ ليلته ثلث القرآن » أحمد والترمذي والنسائي عن أبي أيوب.

(٢) كلمة (صمد) لها أصلان:

ـــ القصد، وهو الذي دعانا إلى ذكره في هذا المحل.

ـــ الصلابة والإستحكام، وعلى هذا تدل كثير من النصوص عن السلف ﷺ كقول مجاهد:« الصمد: المصمت الذي لا جوف له »، وقال الشعبي: هو الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب،

وكل هذه الأقوال صحيحة، ولها دلالتها التعريفية بالله، قال الحافظ أبو القاسم الطبراني بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير الصمد:« وكل هذه صحيحة وهي صفات ربنا عزَّ وجلَّ، هو الذي يصمد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه »

قال الشيرازي:« ومن الممكن أن يرجع الأصلان إلى أصل واحد، لأنّ الذات المستحكمة والصلبة والقائمة بذاتها تكون غنيّة ـــ طبعاً ـــ وموضعاً لتوجّه جميع المحتاجين، وعليه فانّ (صمد) يمكن أن يكون إشارة إجمالية إلى جميع الصفات الثبوتية والسلبية لله تعالى. ولعلّه لهذا الدليل ذُكرت معان كثيرة لـــ (صمد) في الروايات الإسلامية حيث يشير كلّ واحد منها إلى إحدى صفات الله، انظر: التفسير الأمثل: ٤٣٧/٢٧ .

علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو اللّه سبحانه، ليس له كفء وليس كمثله شيء، سبحان اللّه الواحد القهار)

قال: ولهذا ورد في النصوص ما يدل على أن هذا الاسم هو الاسم الأعظم، فقد سمع النبي ﷺ رجلا يقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد، و لم يولد، و لم يكن له كفوا أحد فقال:(لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب)[1]

وهو من الأسماء التي كان ﷺ يتوسل بها للرقية والاستعاذة، فعن عثمان ابن عفان ﷺ قال: مرضت فكان رسول الله ﷺ يعودني فعوذني يوما فقال:(بسم الله الرحمن الرحيم أعيذك بالله الأحد الصمد الذي لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد من شر ما تجد) ثلاث مرات، فشفاني الله تبارك وتعالى، فلما استقل رسول الله ﷺ قائما قال لي: يا عثمان تعوذ بها فما تعوذت بمثلها)[2]

وفي حديث آخر:(أعيذك بالله الأحد الصمد الذي لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد من شر ما تجد يا عثمان تعوذ بها فما تعوذت بمثلها)[3]

وفي حديث آخر:(أعيذك بالله الأحد الصمد الذي لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفؤا أحد من شر ما تجد فإنها تعدل بثلث القرآن ومن تعوذ بها فقد تعوذ بنسبة الله التي رضيها لنفسه)[4]

---

(١) أبو داود والترمذي وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، من حديث بريدة، وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك.

(٢) ابن زنجويه في ترغيبه، والعقيلي، والبغوي في مسند عثمان،وقال: لا أعلم حدث به عن علقمة بن مرثد غير حفص بن سليمان وهو أبو عمرو صاحب القراءة وفي حديثه لين والحاكم في الكنى.

(٣) أحمد وأبو داود والترمذي عن معاذ.

(٤) الحكيم عن عثمان.

ـــ الكافي

دخلنا قسما آخر من أقسام الأسماء المرتبطة بفضل الله، وقد كتب على بابه (الكافي)

قلت للمعلم: ما الكافي[1]؟

قال: هو الذي يكفي عباده ما يحتاجون إليه، بحيث يستغنون به عن غيره، كما قال تعالى:﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾(الزمر:٣٦)

قلت: لم كان كذلك؟

قال: لأنه حي قيوم عالم بجميع المعلومات، قادر على كل الممكنات، غني عن كل الحاجات، يعلم حاجات العباد، ويقدر على دفعها، وهو ليس بخيلا ولا محتاجا حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء ذلك المراد.

قلت: ألهذا وعد الله كل من ينصره بكفاية الله فقال تعالى:﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(البقرة:١٣٧)

قال: بل أخبر تعالى بأنه كفى رسوله ﷺ أمر المستهزئين، قال تعالى:﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾(الحجر:٩٥)

قلت: فما يكفينا الله؟

قال: كل شيء.. فكفاية الله لعباده شاملة لكل شيء، فالله هو الذي يكفي عباده كل ما يهمهم من العظيم والحقير، ولهذا كان ﷺ إذا أوى إلى فراشه؛ قال:(الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا ؛ فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي)[2]

وقد ورد في قصة الغلام مع الساحر والراهب: أنه كلما ذهبوا به إلى مكان لقتله ؛ قال:(اللهم اكفنيهم بما شئت)[3]

قلت: فهذا يدعو العارفين إلى الاكتفاء بالله.

---

(١) كلمة (كافي) مأخوذة من (كفاية)، وهي تعني الإقدام على عمل معين والتمكن منه ، قال الراغب في مفرداته: (الكفاية) هي رفع حاجة والوصول إلى المقصود، وكفية على وزن كنية تعني الغذاء الكافي ، وكفي على وزن خفي تعني المطر.

(٢) مسلم.

(٣) مسلم.

قال: أجل.. ولذلك أخبر الله تعالى عن اكتفاء المؤمنين بالله وبحفظ الله، قال تعالى:﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(آل عمران:١٧٣)

وقال عن رسوله ﷺ:﴿ إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة:٤٠)

قلت: ولهذا إذن ورد الدعاء بهذا الاسم في السنة، وقد أخبر ﷺ عن تأثيره العجيب في دفع الضرر، فقال ﷺ لفاطمة الزهراء ــ رضي الله عنها ــ:(إذا أخذت مضجعك فقولي:(الحمد لله الكافي، سبحان الله الأعلى، حسبي الله وكفى، ما شاء الله قضى، سمع الله لمن دعا، ليس من الله ملجأ ولا وراء الله ملتجأ، توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم، الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا)، ثم قال ﷺ:(ما من مسلم يقولها عند منامه ثم ينام وسط الشياطين والهوام فتضره)[1]

***

بينما نحن كذلك إذ سمعت حركات في القاعة، فسألت المعلم: فقال: هذا عبد الوكيل قد جاء، ومعه عبد الحسيب.

قلت: ومن عبد الوكيل.. ومن عبد الحسيب.. فلا أعلم في الأسماء التي تختزنها ذاكرتي هذين الاسمين؟

قال: هما طبيبان من أطباء هذه القاعة.

قلت: وما علاقتهما باسم الله الكافي؟

قال: سيشرحانها لك، فهذه وظيفتهما.

قال عبد الوكيل: (الوكيل) من الأسماء القريبة من اسم الله الكافي.

قلت: فما يعني؟ وما وجه القرابة بينهما؟

قال: الوكيل هو من توكل إليه الأمور، وتفوض إليه، كما قال تعالى:﴿ وكفى بالله وكيلاً﴾(الأحزاب:٣) أي القائم بأمور عباده، المتكفل بمصالحهم، الكفيل بأرزاقهم، فالخلق والأمر له، لا يملك أحد من دونه شيئاً.

---

(١) ابن السني.

قلت: فما علاقته بالكافي؟

قال: من توكل لك، فقد كفاك، ولهذا ورد هذا الاسم في ذكر من الأذكار العظيمة التي تتعلق بهذا الجانب، وهو (حسبنا الله ونعم الوكيل)

قلت: هو ذكر قرآني أثنى الله على من قاله، فقال تعالى:﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(آل عمران:١٧٣)

قال: وكان هذا الالتجاء سببا في حصول خير عظيم للمؤمنين، قال تعالى:﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾(آل عمران:١٧٤)

قلت: كان هذا الذكر هو الذي نطق به إبراهيم عليه السلام في أحرج مواقف حياته، قال ابن عباس رضي الله عنه في الآية السابقة:(قالها: إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ (آل عمران:١٧٣))[1]

قال: ولهذا أخبر ﷺ أن لهذا الذكر تأثيره العميق في النفس بإعطائها القوة وتخليصها من العجز، قال ﷺ:(إن الله تعالى يحمد على الكيس ويلوم على العجز فإذا غلبك الشيء فقل: حسبي الله ونعم الوكيل)[2]

وقد ورد في النصوص استعمال هذا الذكر في الموضع الذي نحن فيه، فقد كان ﷺ إذا أصابه غم أو كرب يقول:(حسبي الرب من العباد، حسبي الخالق من المخلوقين، حسبي الرازق من المرزوقين، حسبي الله الذي هو حسبي، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم)[3]

***

بمجرد انتهاء عبد الوكيل قال عبد الحسيب: الحسيب[4] من كفاك جميع ما أهمك من أمر دينك ودنياك، وهو الذي يجلب لك المنافع، ويدفع عنك المضار، وهو الذي يحميك من كل المخاطر، ويؤمن لك كل السبل، وهو الذي..

---

(١) البخاري.

(٢) الطبراني في الكبير عن عوف بن مالك.

(٣) ابن أبي الدنيا في الفرج من طريق الخليل بن مرة عن فقيه أهل الأردن بلاغا.

(٤) قد يحمل هذا الاسم معنى الكفاية ومعنى المحاسبة، كما في قوله تعالى:﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾(النساء: من الآية٦)

قال ابن الانباري والأزهري:« يحتمل أن يكون الحسيب بمعنى المحاسب، وأن يكون بمعنى الكافي، فمن الأول قولهم للرجل للتهديد: حسبه الله ومعناه يحاسبه الله على ما يفعل من الظلم، ونظير قولنا الحسيب بمعنى المحاسب، قولنا الشريب بمعنى المشارب، ومن الثاني قولهم: حسيبك الله أي كافيك الله»، قال الرازي تعليقا على قولهما وبيان انطباق النص على كلا المعنيين:« واعلم أن

قلت للمعلم: ألهذا قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (الطلاق: من الآية ٣)
قال: أجل.. من توكل على الله فهو حسبه.

هذا وعيد لولي اليتيم وإعلام له أنه تعالى يعلم باطنه كما يعلم ظاهره لئلا ينوي أو يعمل في ماله ما لا يحل، ويقوم بالأمانة التامة في ذلك إلى أن يصل إليه ماله، وهذا المقصود حاصل سواء فسرنا الحسيب بالمحاسب أو بالكافي »

٤ ــ الشافي

دخلنا قسما آخر من أقسام الأسماء المرتبطة بفضل الله، وقد كتب على بابه (الشافي)

قلت للمعلم: الله ! ما أجمل هذا الاسم.. وما أعظم تفريجه لكربات المعتلين.. فإن المريض لا يحن لاسم كما يحن للطبيب؟

قال: ولهذا ورد اسم (الطبيب) مقترنا بالله، فالله هو الطبيب: طبيب القلوب والنفوس والأجساد، فقد ورد في الحديث عن أبي رمثة قال: دخلت مع أبي على رسول اللّه ﷺ فرأى أبي الذي بظهره[1]، فقال:(دعني أعالجه فإني طبيب)، فقال ﷺ:(اللّه الطبيب)[2]

وقد ذكر ﷺ علة كون الله هو الطبيب الحقيقي، فقال:(الله الطَّبِيبُ، بل أنت رجلٌ رفيقٌ، طَبِيبُها الذي خلقها)

قلت: ما سر هذا؟، فالنبي ﷺ جعل اسم الطبيب خاصا بالله.

قال: لأن الطبيب هو العالم بحقيقة الدواء والداء، والقادر على الصحة والشفاء، وليس ذلك إلا اللّه، فهو العالم وحده بتفاصيل العلل، جميع العلل، والعالم وحده بعلاجها:﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤)

قلت: ولهذا توسل إبراهيم عليه السلام إلى الله بالشفاء، فقال:﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(الشعراء:٨٠)

قال: أجل.. يشفي من كل شيء.. من أمراض الحس وأمراض المعنى، هو خالق الدواء، وملهم الأطباء، ورازق الشفاء، فما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء.

قلت: لقد ورد في النصوص ما يدل على هذا، فقد وورد في القرآن الكريم التنصيص على ما جعل الله في العسل من الشفاء، فقال تعالى:﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل:٦٩)

وورد طلب الشفاء من الله تعالى في الأمراض الحسية، فعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:(من عاد مريضاً لم يحضر أجله فقال سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك إلا عافاه الله من ذلك المرض)[3]

---

(١) وهو خاتم النبوة، وكان ناتئاً فظنه سلعة تولدت من الفضلات.

(٢) الترمذي والنسائي مختصرا ومطولا، وقال الترمذي: حسن غريب.

(٣) أبو داود، والترمذي، وقال: حسن غريب، والحاكم عن ابن عباس.

وقال ﷺ لسعدٍ:(اللهم اشف سعداً، اللهم اشف سعداً، اللهم اشف سعداً)

وقد كان ﷺ يرقي بعض أصحابه ويطلب الشفاء من الله الشافي قائلا:(بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا)[1]

وأما المعنوية والنفسية، فقد قال تعالى في بيان خصائص كلامه:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(يونس:٥٧)

قال: ولهذا ورد هذان الاسمان في ادعية الاستشفاء، قالت عائشة ــ رضي الله عنها ــ عن رسول الله ﷺ، فوضعتُ يدي على صدره، فقلتُ: أذهِب البأسَ رَبَّ النَّاس، أنتَ الطَّبيبُ، وأنتَ الشَّافي. وكان رسول الله ﷺ يقول:(ألحقني بالرَّفيق الأعلَى وألحقني بالرَّفيق الأعلى)[2]

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أن النبي ﷺ كان يعوِّذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول:(اللهم رب الناس أذهب البأس واشفه وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً)[3]

وقال أنس ﷺ لثابت البناني حينما اشتكى إليه: ألا أرقيك برقية رسول الله ﷺ؟ قال:بلى. قال:(اللهم رب الناس مذهب البأس، اشف أنت الشافي لا شافي إلا أنت، شفاء لا يغادر سقماً)

---

(١) البيهقي في الشعب.

(٢) أحمد في المسند ٦/ ١٥٨.

(٣) البخاري وغيره.

٥ ـــ المغيث

دخلنا قسما آخر من أقسام الأسماء المرتبطة بفضل الله، وقد كتب على بابه (المغيث)

قلت للمعلم: الله ! ما أجمل هذا الاسم.. لكأني به يمد يده إلى ضعف الإنسان وقصوره وحاجاته الكثيرة لينقذه منها؟

قال: أجل.. فله هذه الدلالة النفسية العميقة التي تشهد لها كل الحقائق، وكل الفطر، وكل الموجودات:

فالله تعالى هو الذي يغيث عباده عندما تنزل بهم الكربات، وعندما تمتد أيديهم إليه طالبة نجدته، قال تعالى:﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾(لأنفال:٩)، وأخبر عن الوالدين الصالحين أنهما:﴿ يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾(الاحقاف: من الآية١٧)

ولله تعالى هو الذي يغيث البشر بإنزال الغيث، قال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾(لقمان: من الآية٣٤)، وقالتعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾(الشورى:٢٨)

قلت: ولهذا كان ﷺ في الاستسقاء يصرخ مستغيثا بالله، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً دخل المسجد يوم الجمعة، ورسول الله ﷺ يخطب، ثم قال يا رسول الله: هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال:(اللهم أغثنا.. اللهم أغثنا.. اللهم أغثنا)

بينما نحن كذلك إذ ظهرت أنوار عظيمة تحمل صورا مختلفة تملأ القلوب أنسا وثقة، قلت للمعلم: ما هذه الصور؟

قال: هذه بعض مظاهر اسم الله المغيث، وهي تدعوا للتأمل فيها لامتلاء القلب معانيها.

قلت: فهيا نلبي نداءها.. فما أعظم أن تمتلئ قلوبنا بالثقة بالله.. وفي إغاثة الله.

قال: سنقتصرعلى أربعة مظاهر لاسم الله المغيث وردت بها النصوص، ولها علاقة بهذا الباب، أما ما عداها فسنمر بالكثير منها في دروس السلام، فلا تعجل، ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾(طـــه: من الآية١١٤)

فارج الكرب:

رأيت صورة سواد عظيم يغمر الكون فيملأه بالكآبة، وإذا بإغاثة إلهية تنزل على ذلك السواد، فترفع ما علاه من الظلام، وتحوله إلى نور تمتلئ بجماله أرجاء القاعة.

سألت المعلم عن سر هذه الصورة، فقال: هذا مظهر من مظهر الإغاثة أرسله فارج الكروب[1]، ليمحو الغين الذي ران على الكون والقلوب.

قلت: وما الكروب؟

قال: الكرب هو الغم الشديد، والمصيبة العظيمة، ولذلك لم يرد في النصوص إلا في مواضع الشدة الشديدة، والدواهي العظيمة.

قلت: نعم، فقد ورد في حديث الشفاعة الطويل قوله ﷺ:(يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون)[2]

قال: وورد قبل ذلك في قوله تعالى مخبرا عن إنجائه لنوح عليه السلام من الكرب:﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾(الانبياء:٧٦)، وقالتعالى:﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (الصافات:٧٦)

وأخبر عن إنجائه لموسى وهارون ــ عليهما السلام ــ، فقال تعالى:﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾(الصافات:١١٥)

قلت: الله !.. ما أعظم رحمة الله بأنبيائه !

قال: وبجميع خلقه، ألم يخبر تعالى عن سنته في إنجاء كل الخلق من كل الكربات، فقال تعالى:﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾(الأنعام:٦٤)

قلت: بلى.. واستشعار هذا المعنى ينفي اليأس من قلب المؤمن عندما تحل به المصيبة العظيمة التي يرى استحالة حلها بالأسباب التي لديه.

قال: ولهذا علمنا رسول الله ﷺ أذكارا نقولها عند الكرب تذكرنا بالله وبقدرة الله التي لا يعجزها شيء، قال ﷺ لأسماء بنت عميس ــ رضي الله عنها ــ:(ألا أعلمك كلمات تقوليهن عند الكرب؟ الله الله ربي لا أشرك به شيئا)[3]

---

(١) الكرب: الغم يأخذ بالنفس؛ يقال منه: رجل مكروب. قال عنترة:

ومكروب كشفت الكرب عنه   بطعنة فيصل لما دعاني

والكربة مشتقة من ذلك.

(٢) البخاري ومسلم.

(٣) أحمد وأبو داود.

وقال ﷺ:(يا بني عبد المطلب، إذا نزل بكم كرب أو جمة[1] أو جهد أو لأواء فقولوا: الله الله ربنا لا شريك له)[2]

وقال ﷺ:(من قرأ آية الكرسي، وخواتيم سورة البقرة عند الكرب أغاثه الله تعالى)[3]

وقال ﷺ:(دَعَواتُ المكروب: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أرجُو، فَلا تَكِلْنِى إلى نَفْسى طَرْفَةَ عَيْنٍ، وأصْلِحْ لى شَأنِى كُلَّهُ، لا إله إلا أنْتَ)[4]

وقال ﷺ:(إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عز وجل عنه، كلمة أخي يونس:﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الانبياء: من الآية٨٧))[5]

قلت: الله ! الله ! ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه.

قال: أجل.

قلت: هذا ترياق عجيب، فكيف نغفل عنه؟

قال: وهل تغفلون عن هذا فقط؟.. من نسي الله عفل عن كل شيء.

قلت: فما سر ارتباطها بتفريج الكربات؟

قال: سنرحل إلى هذا في درس من دروس السلام[6].

قلت: والآن..

قال: اسمع لابن القيم يشرحها لك، كما يشرحها لمرضى هذا القسم.

التفت فرأيت حلقة فيها ابن القيم، وقد التف حوله المرضى، اقتربت منه فسمعته يقول: وأما دعوةُ ذى النون.. فإنَّ فيها من كمال التوحيد والتنزيه للربِّ تعالى، واعترافِ العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدويةِ الكَرب والهَمِّ والغَمِّ، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه فى قضاء الحوائج، فإنَّ التوحيدَ والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلبَ كُلِّ نقص وعيب وتمثيل عنه. والاعترافُ بالظلم يتضمَّن إيمانَ العبد بالشرع والثوابَ والعقاب، ويُوجب انكسارَه ورجوعَه إلى

---

(١) جمة بفتح الجيم وبضمها. قال في القاموس: وجاء في جمة عظيمة أي جماعة يسألون الدية.

(٢) الطبراني في الكبير عن ابن عباس.

(٣) ابن السني عن أبي قتادة.

(٤) سنن أبي داود.

(٥) ابن السني في عمل يوم وليلة عن سعد.

(٦) انظر:رسالة « كنوز في بطن الحوت »

الله، واستقالته عثرتَه، والاعترافَ بعبوديته، وافتقاره إلى ربه، فههنا أربعةُ أُمور قد وقع التوسلُ بها: التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف.

ناديته: يا ابن القيم.. لقد روى ابن عباس ﷺ، أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقول عند الكَرْب:(لا إلهَ إلا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لا إلهَ إلا اللهُ ربُّ العرشِ العَظِيمُ، لا إلهَ إلا اللهُ رَبُّ السَّمَواتِ السَّبْعِ، ورَبُّ الأرْض رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمُ)[1].. فأفدنا بسره كما أفدتنا بسر دعوة ذي النون.

قال ابن القيم: هذا الدعاء مشتمل على توحيد الإلهية والربوبية، ووصف الرب سبحانه بالعظمة والحلم، وهاتان الصفتان مستلزمتان لكمال القُدرة والرحمة، والإحسان والتجاوز، ووصفِه بكمال ربوبيته للعالَم العُلوىِّ والسُّفلىِّ، والعرش الذى هو سقفُ المخلوقات وأعظمها. والرُّبوبية التامة تستلزمُ توحيدَه، وأنه الذى لا تنبغى العبادةُ والحبُّ والخوفُ والرجاء والإجلال والطاعة إلا له. وعظَمتُه المطلقة تستلزمُ إثباتَ كل كمال له، وسلبَ كل نقص وتمثيل عنه. وحِلمُه يستلزم كمال رحمته وإحسانه إلى خلقه.

فعِلْمُ القلب ومعرفتُه بذلك توجب محبته وإجلاله وتوحيدَه، فيحصل له من الابتهاج واللّذة والسرور ما يدفع عنه ألم الكرب والهم والغم، وأنت تجدُ المريض إذا ورد عليه ما يسرُّهُ ويُفرحه، ويُقوِّى نفسه، كيف تقوى الطبيعة على دفع المرض الحسِّى، فحصولُ هذا الشفاء للقلب أولى وأحرى.

ثم إذا قابلتَ بين ضيق الكرب وسعة هذه الأوصاف التى تضمَّنها دعاءُ الكرب، وجدته فى غاية المناسبة لتفريج هذا الضيق، وخروج القلب منه إلى سعَةِ البهجة والسرور، وهذه الأُمورُ إنما يُصدِّق بها مَن أشرقت فيه أنوارُها، وباشر قلبُه حقائقَها.

باعث اليسر:

رأيت صورة عقد كثيرة يستحيل على أي يد أن تفكها.. وفجأة وجدت هذه العقد تنحل عقدة عقدة.. بل يذهب كل ما بها من آثار العقد.

سألت المعلم عن سر هذه الصورة، فقال: هذه مظاهر العسر الذي يعقد القلوب بعقده.. فإذا علمت القلوب شدة عقدها، ويئست منها بعث الله بيسره، فالله هو الذي يعقب العسر باليسر، ألم تسمع إلى قوله تعالى:﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾(الطلاق: من الآية٧)

تدخل رجل من الحاضرين، وقد سمع هذا الكلام من المعلم، فقال: بل يعقب العسر بيسرين[1]، قال تعالى:﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾(الشرح:٥، ٦)، قال ابن عباس

---

(١) البخاري ومسلم.

ﷺ يفسر هذه الآية:(يقول اللّه تعالى خلقت عسرا واحدا، وخلقت يسرين، ولن يغلب عسر يسرين)

وقال ابن مسعود ﷺ:(والذي نفسي بيده، لو كان العسر في حجر، لطلبه اليسر حتى يدخل عليه؛ ولن يغلب عسر يسرين)

وكتب أبو عبيدة بن الجراح ﷺ إلى عمر بن الخطاب ﷺ يذكر له جموعا من الروم، وما يتخوف منهم؛ فكتب إليه عمر ﷺ:(أما بعد، فإنهم مهما يترل بعبد مؤمن من مترل شدة، يجعل اللّه بعده فرجا، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن اللّه تعالى يقول في كتابه:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(آل عمران:٢٠٠)

تدخل آخر، فقال: والله تعالى واضع المخارج، فهو الذي يضع المخارج عندما تنسد الأبواب، وتضيق المسالك، قال تعالى:﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾(الطلاق: من الآية٢)

ولذلك أمرنا أن نقول:﴿ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾(الاسراء:٨٠)

قلت للمعلم: من هذين؟

قال: هذان مقيمان بهذا القسم لا يبرحانه.. يعبدان الله بهذين الاسمين.

كاشف الضر:

رأيت صورة قروح وأدواء كثيرة تمزق لها قلبي.. ثم رأيت مرهما يترل من السماء.. فيقع على تلك القروح، فيشفيها شفاء تاما، ولا يدع أثرا لعلة.

سألت المعلم عن سر هذه الصورة، فقال: هذا مظهر من مظهر الإغاثة أرسله كاشف الضر، ليمحو القروح التي تجثم على القلوب والأجساد.. فالله تعالى هو كاشف الضر، بل لا يكشف الضر غيره، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الأنعام:١٧)، وقولهتعالى:﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(يونس:١٠٧)

---

(١) نص المفسرون على أن من عادة العرب إذا ذكروا اسما معرفا ثم كرروه، فهو هو، وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره. وهما اثنان، ليكون أقوى للأمل، وأبعث على الصبر.

قلت: بلى، ولهذا كان من دواعي تسليم المؤمنين لله وإذعانهم له وحده ما نص عليه العبد الصالح بقوله:﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ﴾(يّـــس:٢٣)

قال: بل هذا ما أمر كل مؤمن أن يقوله، قال تعالى:﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(الزمر:٣٨)

تدخل رجل من نزلاء المستشفى، فقال: إن هذه الحقيقة يذعن لها الكل حتى أولئك الذين يجهلون الله عند الرخاء، فإنه إذا ما حلت بهم الشدائد لا يجدون غير باب الله، قال تعالى:﴿ وَإِذَا مَسَّ الْأِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(يونس:١٢)، وقالتعالى:﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾(الروم:٣٣)، وقالتعالى:﴿ وَإِذَا مَسَّ الْأِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾(الزمر:٨)، وقالتعالى:﴿ فَإِذَا مَسَّ الْأِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(الزمر:٤٩)

وتدخل آخر، فقال: والله تعالى لا يعاتب هؤلاء على تذكرهم إياه وقت الكرب والشدة، بل يعاتبهم على نسيانهم وغفلتهم حال الأمن والعافية.

وجاء ثالث، وهو يقول: يخبرنا القرآن الكريم عن رجل من الزمن السالف رأى قرية قد دب إليها الخراب، وكساها الموت بسرابيله، بل كفنها بأكفانه، فيتأسف حزنا عليها، فيميته الله مائة عام، ليراها وقد دبت إليها الحياة، فلا يحزن ولا ييأس، قال تعالى:﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(البقرة:٢٥٩)

شارح الصدور:

رأيت صورة غيوم كثيرة لكنها غير ممطرة، ولا تبقى في السماء، بل كانت تنزل إلى الأرض، ثم تدخل إلى الصدور، فيصيح أصحابها من الألم والضيق.. فيأتي نسيم عليل يذهب ما بها من ضيق، ويملأها انشراحا وعافية.

قلت للمعلم: لا شك أن هذه صورة بعض الغازات السامة التي يتفنن قومي في اختراعها.. ولكن ما سر ذلك النسيم؟

قال: لا.. هذه صورة الضيق الذي يملأ القلوب والصدور، وذلك النسيم، هو مظهر من مظاهر الإغاثة الإلهية، فالله تعالى هو شارح صدر المتألمين، قال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾(طـه:٢٥)، وقالتعالى:﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(الزمر:٢٢)، وقالتعالى:﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾(الشرح:١)

والله تعالى هو المنجي من الهم والغم، قال تعالى:﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً ﴾(آل عمران: من الآية١٥٤)، وقالتعالى:﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾(طـه: من الآية٤٠)، وقالتعالى:﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(الانبياء:٨٨)

تدخل أحد الحاضرين، فقال: ولهذا أرشدنا رسول الله ﷺ أن نستعين بالله في دفع الهم والغم، قال ﷺ:(مَا أَصَابَ أَحَداً قَطُّ هَمٌّ وَلا حَزَنٌ فَقَالَ:(اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجِلاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي إِلا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجا) فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ:(بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا)[1]

(١) أحمد: ٣٩١/١.

ثالثا ــ حصن الاستعانة

ذهبنا إلى الحصن الثالث من حصون الروح، وهو حصن (الاستعانة بالله)، وقد كتب على بابه بحروف من نور: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(الفاتحة: من الآية٥)

قلت للمعلم: لم كانت الاستعانة بالله تالية لحسن الظن بالله؟

قال: أول نتيجة للمعرفة بالله هي حسن الظن به والثقة فيه، وهما مفتاح الأمل الذي يجعل القلب متوجها لله طالبا غوثه مستمدا عونه.. فمن ثمرات حسن الظن بالله الاستعانة به، كما أن من ثمرات سوء الظن بالله عدم الالتفات إليه.

ولهذا عقب الله تعالى العبادة بالاستعانة في سورة الفاتحة، فقال:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(الفاتحة:٥)، فمن عبد الله كما أمر لا بد أن يصل إلى نصيبه من المعرفة الذي يضعه في عبودية الاستعانة بالله.

قلت: فما ثمرة الاستعانة بالله؟

قال: القوة التي تتحدى كل الصعاب، وتنفرج لها كل الكروب، أرأيت لو استعنت بأقوياء قومك على بناء بيتك.. ألا تبنيه؟

قلت: بل نبنيه.. ونبني قصورا معه.. فلا قوة كقوة الاستعانة.

قال: هذا أثر الاستعانة بالبشر، وبجهد البشر، فكيف بالاستعانة بالله الذي يملك الكل..

قلت: فما يحقق هذه الاستعانة بالله؟

قال: الإيمان بالله، ألم تسمع قوله ﷺ في الحديث الذي يبين فيه أسس القوة التي يتمتع بها المؤمن، فقد قال ﷺ:(المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فان لو تفتح عمل الشيطان)[1]

قلت: فما حدود القوة التي أحققها بالاستعانة؟

قال: لا حدود لهذه القوة، فكل ما يخطر ببالك قليل بالنسبة للحقيقة.. ألم يواجه الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ الانحراف بجميع أشكاله، مستعينين بقوة الله !؟.. ألم تسمع قوله تعالى عن رسول الله ﷺ في لحظة من اللحظات الحرجة التي مر بها:﴿ إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ

---

(١) أحمد.

سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة:٤٠)

وقوله عن موسى عليه السلام وهو بين عدو يتربص به، وبين بحر يحول بينه وبين الفرار:﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(الشعراء:٦٢)

وقول موسى عليه السلام لقومه من الجبناء:﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(لأعراف:١٢٨)

قلت: فما مكامن القوة في الاستعانة بالله؟

قال: لا تكمن قوة الاستعانة بالله في المدد الذي يحصل ثمرة لها فقط، وإنما قوتها في نفس الاستعانة بما تحدثه من أمل في القلب، وانشراح في الصدر، وابتسامة للأنين.

بينما أنا كذلك إذ رأيت طبيبا يظهر عليه من خلال مظهره، ومن خلال صعوبة نطقه بالعربية أنه أعجمي، فسألت المعلم عنه، فقال: هذا طبيب من قومك[1].

قلت: وما الذي حضر به إلى هنا؟

قال: هو أستاذ زائر بهذا القسم.. ألا تعرف الأستاذ الزائر؟

قلت: بلى.. فجامعاتنا تفعل هذا.. حيث تستقدم بعض الأساتذة ليحاضروا في جامعاتها مدة، ثم يعودون إلى مراكز عملهم الأصلية.

قال: فهذا الطبيب كان يتصور العلاج عملية رياضية محضة، تكفي فيها المواد الكيميائية، ولا علاقة لها بالحالة النفسية أو التوجه الإيماني[2]، ولكنه تحول بعد ذلك ليقر بدور الإيمان والاستعانة بالله في الشفاء، فلهذا استقدمته إدارة المستشفى ليدلي بشهادته هنا.. فهلم نقترب لنسمع ما يقول.

تقدمنا، فسمعته يقول: لقد درست ـــ عندما كنت أتعلم الطب ـــ أحد المبادىء المادية الأساسية التي تفسر ما يحدث من تغيرات داخل الجسم عندما يصيبها عطب أو تلف، تفسيراً مادياً صرفاً، كما فحصت قطاعات مجهرية لهذه الأنسجة، و تبينت أن الظروف المناسبة تعينها على أن تلتئم بسرعة و تتقدم نحو الشفاء، و عندما اشتغلت جراحاً في أحد المستشفيات بعد

---

(١) هو بول إرنست أدولف، أستاذ مساعد التشريح بجامعة سانت جونس وعضو جمعية الجراحين الأمريكية.

(٢) عن كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » جمعها: جون كلوفر مونسما، ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، الناشر مؤسسة الحلبي و شركاه للنشر والتوزيع القاهرة.

ذلك، كنت أستخدم المبدأ السابق استخداما يتسم بالثقة فيه والاطمئنان إليه. و لم يكن عليّ إلا أن أهيئ الظروف المادية و الطبية المناسبة، ثم أدع الجرح يلتئم، وكلي ثقة بالنتيجة المرتقبة.

قلت: هذه هي المعرفة التي يؤمن بها أكثر الأطباء، ويكتفون بها.

قال المعلم: ولكن هذا الطبيب انتقل إلى مرحلة أخرى، سار من خلالها نحو الإيمان، فاسمع لما يقول.

قال الطبيب: ولكنني لم ألبث غير قليل حتى اكتشفت أنني قد فاتني أن أُضَمِّن علاجي و أفكاري الطبية أهم العناصر و أبعدها أثراً في إتمام الشفاء ألا وهو الاستعانة بالله.

قلت: فهل ذكرت لنا سر تحولك هذا؟

قال: سأذكر مثالا على التجارب التي مرر بها، والتي جعلتني أتحول إلى هذه القناعة.. عندما كنت أعمل جراحاً في أحد المستشفيات، جاءتني ذات يوم جدة جاوزت السبعين تشكو من شدخ في عظام ردفها، وبعد أن وضعت فترة تحت العلاج أدركت من فحص سلسلة الصور التي أخذت لها على فترات تحت الأشعة أنها تتقدم بسرعة عجيبة نحو الشفاء، و لم تمض أيام قليلة حتى تقدمت إليها مهنئاً بما تم لها من شفاء نادر عجيب، عندئذ استطاعت السيدة أن تتحرك فوق المقعد ذي العجلات، ثم سارت وحدها متوكئة على عصاها، وقررنا أن تخرج تلك السيدة في مدى أربع و عشرين ساعة وتذهب إلى بيتها، فلم يعد بها حاجة إلى البقاء في المستشفى.

وكان صباح اليوم التالي هو الأحد، وقد عادتها ابنتها في زيارة الأحد المعتادة حيث أخبرتها أنها تستطيع أن تأخذها والدتها في الصباح إلى المترل لأنها تستطيع الآن أن تسير متوكئة على عصاها.

و لم تذكر لي ابنتها شيئاً مما جال في خاطرها، ولكنها انتحت بأمها جانباً وأخبرتها أنها قد قررت بالاتفاق مع زوجها أن يأخذا الأم إلى أحد ملاجيء العجزة لأنهما لا يستطيعان أن يأخذاها إلى المترل.

و لم تكد تنقضي بضع ساعات على ذلك حتى استدعيت على عجل لإسعاف السيدة العجوز، ويا لهول ما رأيت.. لقد كانت المرأة تحتضر، و لم تمض ساعات قليلة حتى أسلمت الروح.

إنها لم تمت من كسر في عظام ردفها، ولكنها ماتت من انكسار في قلبها، لقد حاولت دون جدوى أن أقدم لها أقصى ما يمكن من وسائل الإسعاف، وضاعت كل الجهود سدى.

لقد شفيت من مرضها بسهولة، ولكن قلبها الكسير لم يمكن شفاؤه برغم ما كانت قد تناولته في أثناء العلاج من الفيتامينات والعقاقير المقوية وما هيأ لها من أسباب الراحة، ومن الاحتياجات التي كانت تتخذ لتعينها على المرض وتعجل لها الشفاء.. لقد التأمت عظامها المكسورة التئاماً تاماً ومع ذلك فإنها ماتت.

صحت: لماذا؟

نظر إلي، وقال: إن أهم عامل في شفائها لم يكن الفيتامينات ولا العقاقير ولا التئام العظام، ولكنه كان الأمل، وعندما ضاع الأمل تعذر الشفاء.

قلت: فما نواحي الأمل التي غابت عن ذهن هذه العجوز في تصورك كطبيب؟

قال: أثرت هذه الحادثة في نفسي تأثيراً عميقاً، و قلت في نفسي: لو أن هذه السيدة وضعت أملها في الله ما ضيعها وما انهارت ولما حدث لها ما حدث.. وبرغم أنني كنت أومن بالله خالق كل شيء بحكم اشتغالي بالعلوم الطبية، فإنني كنت أفصل بين معلوماتي الطبية والمادية، وبين اعتقادي في وجود الله كما لو لم تكن هنالك صلة بين هذين الأمرين.

قلت: فقد وصلت إذن إلى ضرورة الإيمان للشفاء والعافية والسعادة.

قال: لقد أيقنت أن العلاج الحقيقي لابد أن يشمل الروح والجسم معاً وفي وقت واحد، وأدركت أن من واجبي أن أطبق معلوماتي الطبية والجراحية إلى جانب إيماني بالله وعلمي به، ولقد أقمت كلتا الناحيتين على أساس قويم.. بهذه الطريقة وحدها استطعت أن أقدم لمرضاي العلاج الكامل الذي يحتاجون إليه.. ولقد وجدت بعد تدبر عميق أن معلوماتي الطبية وعقيدتي في الله هما الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه الفلسفة الطبية الحديثة.

قلت: أهذه قناعتك وحدك؟.. أم ترى من زملائك من اقتنع بهذه القانعة؟

قال: الواقع أن النتيجة التي وصلت إليها تتفق كل الاتفاق مع النظرية الطبية الحديثة عن أهمية العنصر السيكولوجي في العلاج الحديث، فقد دلت الإحصائيات الدقيقة على أن ٨٠٪ من المرضى بشتى الأمراض في جميع المدن الأمريكية الكبرى ترجع أمراضهم إلى حد كبير إلى مسببات نفسية، ونصف هذه النسبة من الأشخاص الذين ليس لديهم مرض عضوي في أية صورة من الصور.. وليس معنى ذلك أن هذه الأمراض مجرد أوهام خيالية حقيقة، وليست أسبابها خيالية ولكنها موجودة فعلاً و يمكن الوصول إليها عندما يستخدم الطبيب المعالج بصيرته بها.

***

قلت للمعلم: هاهو الطب بدأ يسلم وجهه إلى الله، ويرتفع عنه ذلك الغرور الذي أصابه بعد اكتشافه لأسباب العلل، وكيفية علاجها.

قال: وسيرى من آيات الله ما يحمله إلى الله حملا.. ويوشك لو امتد بك العمر أن ترى المستشفيات مساجد يعبد فيها الله، ويذكر فيها بالله، لا تختلف عن سائر المساجد.

قلت: أرى بابان مقابلان.. إلى أين يؤديان؟

قال: إلى ركنين عظيمين من أركان الاستعانة.

قلت: ما أولهما؟

قال: التضرع إلى الله ودعاؤه وطلب مدده وعونه، وهو الذي يقصد بالاستعانة عند الإطلاق.

قلت: وما الثاني؟

قال: العمل الصالح، فالله تعالى يمد بعونه من أطاعه، كما يحرم منه من عصاه، وقد ورد في الحديث القدسي:(يقول الله تعالى: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين)[1]

قلت: فكيف يكون العمل الصالح ركنا من أركان الاستعانة؟

قال: ألا تمد بالعون من استغاث بك طالبا النجدة؟

قلت: بلى.. وهذا هو الركن الأول.. وسؤالي عن الركن الثاني.

قال: ألا تمد بالعون من نطق لسان حاله بالحاجة مع صلاحه وعفافه؟

قلت: لم أفهم هذا.

قال: إذا سألك مسكين ألا تعطيه؟

قلت: بلى.. وهذا هو الركن الأول.

قال: فإذا رأيت فقيرا طيبا عفيفا استحيا من مد يده.. ألا تعطيه؟

قلت: بل أقدمه على السائل.

قال: لم؟

---

(١) البخاري في خلق أفعال العباد، وابن شاهين في الترغيب في الذكر، وأبو نعيم في المعرفة.

قلت: الله تعالى هو الذي أمرنا بذلك، فقد قال تعالى:﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٧٣)

قال: فكذلك من عرف بسيما الصلاح كان الله في عونه، سأل، أو لم يسأل.

١ ـــ الدعاء

اقتربنا من الباب الأول من أبواب الاستعانة بالله، وقد كتب عليه بحروف من نور قوله تعالى:﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾(البقرة: من الآية١٨٦)

فقال لي المعلم: أول مفتاح من مفاتيح الاستعانة بالله هو الدعاء، فبه تطرق أبواب الجود، وتمد أيدي العون، وترسل أمداد الإغاثة.

قلت: ما سر أمر الله لنا بالدعاء، مع كونه لا يتضمن إلا مصالحنا، وهي من الفطرية بحيث لا تحتاج إلى الإلحاح في طلبها؟

قال: هذا سر من أسرار كرم الله.. فالكريم ليس من أعطاك بعد أن تسأله، وإنما الكريم هو الذي يسألك أن تسأله.

قلت: كيف؟

قال: لأنك إذا اضطررت إلى سؤال من لم يطلب منك أن تسأله قد يشق عليك السؤال خوفا من الرد.. ولكنه إن فتح لك المجال بطلبه حل عقدة لسانك بالسؤال.

قلت: لهذا ـــ إذن ـــ كان من رحمة الله ودلائل فضله أنه يحثنا على دعائه وطلب الحاجات منه، واعدا إجابة من دعاه وتحقيق سؤله، قال تعالى:﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾(غافر: من الآية٦٠)

قال: ليس ذلك فقط، بل اعتبر عدم رفع الأيدي بالدعاء نوعا من أنواع الكبر، فقال تعالى تتمة للآية التي ذكرتها:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(غافر: من الآية٦٠)

قلت: لم كان عدم رفع الدعاء كبرا؟

قال: لأنه ناتج عن إعظام النفس لنفسها، فلم تر الله كفؤا لتسأله حاجاتها.

قلت: أتتجرأ النفوس على هذا؟

قال: وكيف لا تتجرأ.. والكبر ابن إبليس.. ألم يكن في وسع إبليس أن يقول ما قال آدم عليه السلام طالبا مغفرة الله؟

قلت: بلى..

قال: فما الذي منعه من ذلك.. متحملا غضب الله في سبيل ذلك؟

قلت: الكبر الكاذب الذي امتلأت به نفسه.

قال: فهكذا من يرث من إبليس كبره.

قلت: لقد أدركت الآن سر قول الشاعر الصالح:

لا تســـــــــــــألنَّ بُـــــــــــــنيَّ آدم حاجـــــــــــــة

وســــــــــل الــــــــــذي أبوابـــــــه لا تُحجَـــــــــبُ

الله يغضـــــــــــب إن تركـــــــــــت ســـــــــــؤالَهُ

وبُنَـــــــيُّ آدم حـــــــين يُســـــــأل يغضـــــــبُ

قال: أجل فترك الدعاء نوع من أنواع الكبر، أو درك من دركات الغفلة، وكلاهما موجب لغضب الله.

***

سمعت صوتا في القاعة يردد بصوت جميل: ورد في بعض الكتب الإلهية أن الله تعالى يقول:(وعزتي وجلالي لأقطعن أمل كل مؤمل غيري باليأس، ولألبسنه ثوب المذلة عند الناس، ولأخيبنه من قربي، ولأبعدنه من وصلي، ولأجعلنه متفكرا حيران يؤمل غيري في الشدائد، والشدائد بيدي، وأنا الحي القيوم، ويرجو غيري، ويطرق بالفكر أبواب غيري، وبيدي مفاتيح الأبواب، وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني)

قلت للمعلم: ما هذا؟.. أيتلى غير القرآن الكريم؟

قال: معناه موجود في القرآن الكريم، ألم يقل الله تعالى موبخا المتكبرين الذين أصابهم ببلائه ليرفعوا أيديهم إليه طالبين نجدته، ولكن كبرهم حال بينهم وبين ذلك:﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (المؤمنون:٧٦)

بل بين تعالى أن غاية البلاء المرسل على الخلق هو دعوتهم إلى طرق أبواب الله، والاستمداد من فضله، ليكون ذلك سببا لاتصالهم بالله وعبوديتهم له، فقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الأنعام:٤٢ ـــ٤٣)، أي هلا إذ جاءهم بأس الله

ورأوه في الدنيا تضرعوا ورجعوا إلى الله سبحانه وتعالى، فعلموا أنه ربهم وإلههم ومولاهم، وأنه كما أنه قادر على نفعهم قادر على ضرهم، فاستفادوا من ذلك بالعودة إلى الله، وطاعة رسله..

***

جاءني حل.. وكأنه يعرفني، فقال: ولكن..

قلت له: ولكن ماذا؟

قال: مع أهمية الدعاء وتأثيره الفاعل في تحقيق المطالب، وفي بث السكينة في النفوس المضطربة، إلا أن وحي الشيطان لا يزال يتسرب إليك ــ أيها المتألم لدائك ــ لينفخ فيك داء اليأس القاتل، ويبعدك عن جوار ربك القوي إلى جوار نفسك القاصرة.

قلت ــ وقد تصبب مني العرق حياء ــ: أجل، وأستغفر الله.. فما المخرج؟

قال: لقد توصل أطباء هذا المستشفى ــ انطلاقا من القرآن الكريم ــ إلى وضع أربعة أدوية تعالج الأوهام التي يبني بها الشيطان الأبراج التي تحول بينك وبين الاستمداد من ربك.

قلت: أأنا الآن مريض بأربعة علل؟

قال: كل من رأى يده قاصرة عن الدعاء، أو لسانه خافتا بالطلب، فهو مريض بأحد أوهام أربعة.

قلت: فما الأول؟

قال: وهم الضعف الذي يقول لك:(اعمل وراء الأسباب، فالكون كله أسباب، لا مكان فيه للخوارق)

قلت: فما الوهم الثاني؟

قال: وهم المعارضة الذي يقول لك:(من أنت حتى تعارض مقادير ربك، فقد جف القلم بما كان، ولن يؤخر دعاؤك، ولن يقدم)

قلت: فما الوهم الثالث؟

قال: وهم النقص الذي يقول لك:(الدعاء سلوى القاصرين، أما الكمل، فليس لهم خيار مع ربهم، ولا يريدون إلا ما أراد:

وليس لي في سواك حظ ... فكيفما شئت فاختبرني)

قلت: فما الوهم الرابع؟

قال: وهم اليأس الذي يقول لك:(كل الناس يرفعون أيديهم، ولكن كل أيديهم ترجع صفرا.. فالتمس لك أسبابا أخرى)

قلت: هذه الأمراض، فأين الأدوية؟
قال: فبأي الأمراض أصبت أنت حتى أدلك على موضع الدواء.
قلت: لعلي مريض بجميعها.. لا أدري.
قال: فسر إلى هذه العيادات الأربع بصحبة معلمك، ففيها أدوية الأوهام الأربع.

وهم الضعف

سرنا إلى القاعة التي يعالج فيها وهم الضعف، فقرأت على بابه مكتوبا:(هذا وهم ينفخه الشيطان في النفوس التي تتصور الكون بصورة معادلات رياضية، تتحكم في الله، ولا يتحكم الله فيها، فلذلك قد تنكر الخوارق، أو لا تنسبها إلا للأنبياء والصديقين، أما من عداهم فهم تحت رحمة القوانين حلوة كانت أو مرة، والتعامل معها ينبغي أن يكون بالسعي والاجتهاد لا بالسؤال والتواكل)

قلت للمعلم: إن هذا الكلام يحتوي على بعض الحق على الأقل، فالله تعالى قدر للكون مقادير ثابتة ووضعه بنظام دقيق، كما قال تعالى:﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(القمر:٤٩)

وأخبر أن ما ينزل من فضله ينزل بمقادير محددة، فقال تعالى:﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾(الحجر:٢١)

بل أخبر أن الغيث النازل نازل بمقادير دقيقة محددة، فقال تعالى:﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾(الزخرف:١١)، وقالتعالى:﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾(المؤمنون:١٨)

قال: ولكن مع ذلك، فإن الله تعالى رب القوانين، وهو الذي يتحكم فيها، وليست هي التي تتحكم فيه، ولذلك من الخطأ الشنيع اعتقاد عدم ربوبية الله على القوانين، والله هو رب كل شيء.. أرأيتم لو أن أحدكم وضع نظاما من أنظمة هذا الجهاز الذي تدمنون على الجلوس بجانبه.

قلت: الحاسب الآلي..

قال: أجل.. فهل يمكن له أن يضع له من الاختيارات والخصائص ما يشاء.. ثم يغيرها كما يشاء؟

قلت: مثل ماذا؟

قال: بأن يغير نوع الخط مثلا أو لونه، أو يضع صورا بدل صور أخرى.

قلت: ذلك بإمكانه.. بل بإمكانه أشياء أخرى كثيرة.

قال: فلو أن أحدا من مستعملي برنامجه تعود على لون معين.. فتصور أن ذلك اللون هو اللون الوحيد لذلك النظام.

قلت: هذا إما جاهل أو مكابر.. ومن البساطة الرد على دعواه.

قال: كيف؟

قلت: نتصل بمصم النظام ليضع له واجهة أخرى تفند رأيه ومذهبه.

قال: فهذا الاتصال هو الدعاء.. والله هو واضع قوانين الخلق وبرامجهم.

قلت: ولكن.. كيف نرد على من يعتبر الدعاء نوعا من التواكل والقعود؟

قال: لا.. الدعاء نوع من الاستعانة بالله، وهو لما يحدثه في النفس من الأمل قوة فاعلة لها تأثيرها الإيجابي في الخروج من الأزمات.. واسمع لما يقول الشهود.

قلت: أهنا شهود أيضا؟

قال: الشهود في كل مكان..

رأيت أعجميا يقول بعربية مختلطة بعجمة:(الدعاء ــ إضافة إلى قدرته في بث الطمأنينة في النفس ــ يؤدي إلى نوع من النشاط الدماغي في الإنسان، وإلى نوع من الانشراح، والانبساط الباطني وأحياناً إلى تصعيد روح البطولة والشجاعة فيه. الدعاء يتجلى بخصائص مشخصة فريدة.. صفاء النظرة، وقوة الشخصية، والانشراح والسرور، والثقة بالنفس، والاستعداد للهداية، واستقبال الحوادث بصدر رحب، كل هذه مظاهر لكنز عظيم دفين في نفوسنا، وانطلاقاً من هذه القوّة يستطيع حتى الأفراد المتخلفون أن يستثمروا طاقاتهم العقلية والأخلاقية بشكل أفضل، وأكثر)[1]

سرنا قليلا، فرأينا أعجميا آخر يقول بعربية مختلطة بعجمة:(حينما ندعو فإننا نربط أنفسنا بقوة لا متناهية تربط جميع الكائنات مع بعضها.. إنّ أحدث العلوم الإنسانية ــ أعني علم النفس ــ يعلّمنا نفس تعاليم الأنبياء، لماذا؟ لأن الأطباء النفسانيين أدركوا أن الدعاء والصلاة والإيمان القوي بالدين يزيل عوامل القلق والاضطراب والخوف والهيجان الباعثة على أكثر أمراضنا)[2]

قلت: فالدعاء إذن عامل قوة لا عامل الضعف.

قال المعلم: الضعيف المؤمن بالله المتوكل عليه قد يتوجه للأعمال العظيمة، ويقوم بها خير قيام، لأنه لم يقم بها بذاته، بل قام بها بمعونة الله، وبمدده وفضله.. بينما القوي ــ الذي يتصور نفسه قويا ــ قد يقف أمام أبسط الأمور، لأن المعادلات التي رسمها له شيطان الأسباب لا تسمح له بالإقدام.

بينما نحن كذلك دخل طبيب بمئزره الطبي، فرنت له العيون، فقلت للمعلم: من هذا؟

---

(١) نقلا عن: الأمثل: ١/٤٦٢.

(٢) الأمثل: ١/٤٦٢.

قال: هذا الطبيب مختص بذكر النماذج التي تحطم أوهام المختبئين تحت عباءة الأسباب والقوانين الغافلين عن رؤية مسبب الأسباب.

قلت: فهو عالم بالرجال إذن.

قال: عالم بالأولياء.. لا بكل الرجال.. فأصخ سمعك إليه.

قال: أما النموذج الأول، فهو موسى عليه السلام عندما وقع في الحصار، البحر أمامه، والعدو من ورائه، حينذاك قال الغافلون من قومه:(أين المفر؟ ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾(الشعراء: من الآية٦١)

ولكن موسى عليه السلام قال بثقة المؤمن:﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء: من الآية٦٢)

وعندما قالها انخرمت قوانين السيولة في البحر، واستسلم البحر لربه، وتحول إلى طريق يبس سار فيه موسى عليه السلام ومن معه.

صاح المرضى: الله ! الله !

وصحت معهم بلا شعور: الله ! الله ! لقد كان الدعاء هو مدد موسى عليه السلام، وهو مصدر قوته، كما أن الاعتماد على الأسباب هو سبب ضعف قومه المخذولين.

قال الطبيب: والنموذج الثاني، مع موسى عليه السلام أيضا، وهو موقف قومه من أمر موسى عليه السلام لهم بدخول الأرض المقدسة، قال لهم باعتباره الزعيم الذي أنقذهم من بطش فرعون، وباعتباره محل ثقتهم، فالخوارق يرونها أمامهم كما نرى القوانين العادية:﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾(المائدة:٢١)

لكنهم غفلوا عن قدرة الله التي شقت البحر لتنقذهم، وواجهوا هذا الأمر الإلهي ــ كما واجهوا غيره ــ بتخاذلهم، قالوا:﴿ يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾(المائدة: من الآية٢٢)

ولكن رجلين صالحين قويين منهم دلوهم على الطريق الذي يدخلون به إلى هؤلاء القوم، قال تعالى واصفا هذا الموقف:﴿ قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(المائدة:٢٣)

فقد دلوهم على أمرين:

مراعاة الأسباب: بالدخول عليهم من الباب.

مراعاة قدرة الله: بالتوكل عليه والاستعانة به.

لكن هؤلاء أبوا إلا النظر إلى قوتهم وحدها وأسبابهم وحدها، فقالوا ــ وبإصرار عظيم ــ:﴿ يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٤)

حينذاك لم يجد موسى ﷺ حلا إلا الفرار إلى ربه، فقال:﴿ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(المائدة:٢٥)

واستجاب له ربه كما عوده، وطمأنه، قال تعالى:﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(المائدة:٢٦)

صاح المرضى: الله ! الله !

وصحت معهم بلا شعور: الله ! الله !

قلت للمعلم: إن حياة موسى ﷺ في القرآن الكريم مثال عظيم على التوجه إلى الله في جميع الساعات: ساعات الشدة، وساعات الرخاء.

قال: أجل.. فإنه بعد أن قتل نفسا، وهو الذي يملك شفافية الإيمان وحساسيته، لم ينهد كيانه، ولم تخر قواه، بل قال متوجها لربه:﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾(القصص: من الآية١٦)، وما إن قالها حتى غفر له، بل نجاه من الغم الذي يصيب المؤمنين بعد وقوعهم في الخطأ، قال تعالى يذكر فضله عليه:﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾(طــه: من الآية٤٠)

وحينذاك لم ينس الله الذي أجاب دعاءه، بل توجه إليه بقلبه الرقيق شاكرا: ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾(القصص: من الآية١٧)

وعندما جاءه الرجل يسعى محذرا قائلا:﴿ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾(القصص: من الآية٢٠)، قدم موسى الأسباب وهو ملتجئ لرب الأسباب، قال تعالى:﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(القصص: ٢١)

أما الأسباب فخروجه خائفا مترقبا محتاطا متخذا كل الأسباب المادية، أما لجوؤه لرب الأسباب، فهو دعاؤه الله بأن ينجيه من القوم الظالمين، وهو يؤمل في فضله:﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(القصص:٢٢)

وعندما ورد ماء مدين، ولم يكن الوقت كافيا لأي عمل يمكن أن يكسب منه قوته توجه إلى ربه ــ كما يتوجه الصغير إلى والديه ــ قائلا:﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(القصص: من الآية٢٤)

وفي تلك اللحظة جاءه المدد الإلهي الذي لم يتخلف عنه لحظة من اللحظات.

قلت: إن من قومي من يقرأون هذه الأحداث التي يقصها القرآن الكريم كما يقرأون ألف ليلة وليلة، وهم يملأونها بالأساطير فوق ذلك.

قال: لا.. هذا تحريف خطير.. إن القرآن الكريم لا يرسم هذه الصور، ولا يعيد الحياة في هذه الأحداث إلا ليزيل عنكم الأوهام التي تحول بينكم وبين ربكم متلبسة ثياب العلم والحكمة.. فلا تتخذوا آيات الله هزؤا..

قلت: أهذا من ذاك؟

قال: بل هو أخطر من ذاك.. فالمستهزئ قد يتوب، أما هؤلاء فتشغلهم غفلتهم وما زين لهم عن مد أيديهم لله بالتوبة.

وهم المعارضة

سرنا إلى القاعة التي يعالج فيها وهم المعارضة، فقرأت على بابها مكتوبا:(هذا وهم ناشئ عن سوء الفهم للقدر، ولعلاقة الله بعباده، وعنه تنشأ أوهام كثيرة تصور الله صورا لا تليق بجلاله وجماله ورحمته وحكمته)

قلت للمعلم: فسنبحث في هذا الباب إذن مسألة القدر.

قال: لا.. ليس بتفاصيلها.. فلذلك رحلة خاصة ودرس خاص نعرفه عندما نبحث في (أسرار الأقدار)

قلت: والآن.. وفي هذه القاعة؟

قال: سنعرف عدم التعارض بين الدعاء والقدر.

قلت: فما أول علاج نستفيده لعلاج هذا الوهم؟

قال: أول ما نستضيء به لدفع هذا الوهم هو التسليم لله واعتقاد عجزنا عن فهم حقائق الكون.

قلت: لا أرى الوهم يزال إلا بالعلم، فكيف تدلنا على التسليم الذي يبقي الجهل راسبا في محله؟

قال: ألستم تستفيدون من الكهرباء؟

قلت: لو انقطعت الكهرباء على البشرية يوما واحدا لأصبحت الأرض غير الأرض.

قال: فكم من الخلق يعرفون أسرارها؟

قلت: أفراد معدودون اختصوا في هذا الجانب.. ومع ذلك.. فإنهم كل يوم يكتشفون أشياء جديدة، ويصححون معلومات كانت خاطئة.

قال: فإذا سلمتم لهؤلاء، فلم لا تسلمون لله الذي خلق كل شيء وقدر كل شيء.

قلت: ما نسلم؟

قال: ما يتوهمه الغافلون تناقضا.

قلت: كيف ذلك؟

قال: الله تعالى أخبرنا بأنه قدر مقادير كل شيء، ودعانا في نفس الوقت أن ندعوه، ووعدنا بإجابة دعواتنا.

قلت: هذا صحيح، وليس في ذلك أي تناقض.

قال: لا.. الغافلون اعتبروا هذا تناقضا، فقالوا: كيف يجيب دعواتكم، وقد قدر المقادير وانتهى منها، وما سجل سيكون[1]؟

قلت: ألم ينتبهوا إلى أن الذي أخبر عن قدره هو الذي أمر بدعائه؟

قال: هم يأخذون ببعض الكتاب، ويهجرون بعضه.

قلت: والمؤمنون المسلمون لله؟

قال: لا يسألون هذا السؤال، بل لا يخطر ببالهم، كما لا يخطر ببال كل الناس ما يقوله الطبيب أو المهندس ما داما يتكلمان انطلاقا من خبرتهما واختصاصهما.

قلت: ألهذا إذن يخبر ﷺ بأن البلاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل، قال ﷺ:(لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان الى يوم القيامة)[2]، وقال ﷺ:(لا يرد القدر الا الدعاء، ولا يزيد في العمر الا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)[3]

قال: أجل ليكون ذلك زادا للمؤمنين المسلمين لله، ويكون علاجا نافعا للغافلين المتوهمين.

قلت: فما البذرة التي أنبتت هذا الوهم؟

قال: كيف وأخواتها.

قلت: لم أفهم قصدك.

---

(١) ذكر الفخر الرازي ما استدل به المتعلقون بهذا الوهم، ومما ذكره:

١. أن المطلوب بالدعاء إن كان معلوم الوقوع عند الله تعالى كان واجب الوقوع، فلا حاجة إلى الدعاء، وإن كان غير معلوم الوقوع كان ممتنع الوقوع، فلا حاجة أيضا إلى الدعاء.

٢. أن حدوث الحوادث في هذا العالم لا بد من انتهائها بالآخرة إلى المؤثر القديم الواجب لذاته، وإلا لزم إما التسلسل، وإما الدور وإما وقوع الحادث من غير مؤثر وكل ذلك محال وإذا ثبت وجوب إنتهائها بالآخرة إلى المؤثر القديم، فكل ما اقتضى ذلك المؤثر القديم وجوده اقتضاء قديما أزليا كان واجب الوقوع، وكل ما لم يقتض المؤثر القديم وجوده اقتضاء قديما أزليا كان ممتنع الوقوع، ولما ثبتت هذه الأمور في الأزل لم يكن للدعاء أثر.

٣. أن الأقدار سابقة والأقضية متقدمة والدعاء لا يزيد فيها وتركه لا ينقص شيئا منها، فأي فائدة في الدعاء.

٤. أنه سبحانه علام الغيوب يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور، فأي حاجة بالداعي إلى الدعاء؟

٥. أن المطلوب بالدعاء إن كان من مصالح العبد فالجواد المطلق لا يهمله وإن لم يكن من مصالحه لم يجز.

٦. أن أجل مقامات الصديقين وأعلاها الرضا بقضاء الله تعالى والدعاء ينافي ذلك لأنه اشتغال بالإلتماس وترجيح لمراد النفس على مراد الله تعالى وطلبه لحصة البشر.

٧. أن الدعاء يشبه الأمر والنهي وذلك من العبد في حق المولى الكريم الرحيم سوء أدب.

(٢) ابن عدي، والحاكم وتعقب، والخطيب عن عائشة.

(٣) البيهقي في الشعب، والطبراني في الكبير عن ثوبان.

قال: هو سؤالهم عن الكيفية، وهي تعني البحث عن أمور لا طاقة للعقل بفهمها أو للخيال بتصورها، فلذلك كان الكمال في التسليم للخبير لا معارضته.

قلت: ولكن هؤلاء يقعون في خطأ عظيم، فهم يمارسون في حياتهم العادية خلاف ما يقتضيه تصورهم لمسألة الدعاء.

قال: أجل.. فهم يأكلون إذا جاعوا، ويشربون إذا عطشوا، ويتداوون إذا مرضوا، ولا يقول أحد منهم: إن ذلك معارضة للمقادير، ولو شئنا لقلنا لهم: لماذا تفرون من الموت بأسباب الحياة التي تتفننون في الحرص عليها، ألا تعارضون بذلك المقادير التي حددت آجالكم؟

قلت: فالدعاء سبب من الأسباب، لا يختلف عن سائر الأسباب التي يمارسها كل البشر في جميع الأحوال.

قال: أجل.. هكذا أخبرت النصوص.

رأيت رجلين في تلك القاعة، قد التف حولهما جمع من المرضى، سألت المعلم عنهما، فقال: هذان ابن القيم، والغزالي، فكلاهما ــ كما تعلم ــ من أطباء هذا المستشفى.

اقتربنا من ابن القيم، فسمعته يقول بحماسة، وكأنه يرافع في محكمة من المحاكم ــ وهو يشير إلى بعض المرضى الجدد ــ:(وهؤلاء مع فرط جهلهم وضلالهم متناقضون، فإن اطرد مذهبهم لوجب تعطيل جميع الأسباب، فيقال لأحدهم: إن كان الشبع والري قد قدرا لك فلا لا بد من وقوعها أكلت أو لم تأكل، وإن لم يقدرا لم يقعا أكلت أو لم تأكل.. فهل يقال هذا عاقل أو آدمي، بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته، فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا)[1]

اقتربنا من حلقة الغزالي، فسمعته يقول ردا عليهم:(فإن قيل: فما فائدة الدعاء مع أن القضاء لا مرد له؟ فاعلم أن من جملة القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء ووجود الرحمة، كما أن الترس سبب لدفع السلاح، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء، وليس من شرط الاعتراف بالقضاء ألا يحمل السلاح، وقد قال تعالى:﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾(النساء: من الآية١٠٢)، فقدَّر الله تعالى الأمر وقدَّر أسبابه)[2]

قلت: لقد اتفق ابن القيم والغزالي على هذا.

---

(١) زاد المعاد: ٤٨١/٣.

(٢) الإحياء: ٣٢٨/١.

قال: هم متفقون في كل شيء، ولكن أعينكم المصارعة لا ترى إلا التناقض.

رأيت شيخا مهيبا يدخل، فيلتف حوله الجميع، سألت المعلم: من هذا؟

قال: هذا شيخ العارفين في وقته عبد القادر الجيلاني، فهيا لتسمع له.

اقتربت منه، فسمعته يقول: الناس إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي روزنة، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والعارف من يكون منازعاً للقدر لا واقفاً مع القدر.

قلت: لكأنه استلهم هذا المعنى من قول عمر بن الخطاب ﷺ ــ عندما قرر عدم دخول دمشق من أجل الطاعون ــ إجابة لأبي عبيدة ﷺ لما قال له:(أفرارا من قدر الله؟) فقال له عمر ﷺ:(لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله)

قال: لقد تحقق هذا المعنى في منتهى كماله في رسول الله ﷺ فقد كان يعطي لكل مقام حقه من العبودية، ولعل أدل مثال على ذلك ما وقع منه في غزوة بدر، فقد أراه الله مصارع المشركين حتى أنه أخذ يرها للصحابة ﷺ كما قال أنس ﷺ: أخذ عمر ﷺ يحدثنا عن أهل بدر فقال: إن كان رسول الله ﷺ ليرينا مصارعهم بالأمس يقول:(هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله، وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله)، فجعلوا يصرعون عليها، قال عمر ﷺ:(والذي بعثك بالحق ما أخطأوا تيك)

ومع ذلك لم يكف ﷺ من الإلحاح على ربه في الدعاء، عن علي ﷺ قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول اللّه ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح.

وفي يوم المعركة نام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ فزعا، وهو رافع يديه يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول:(اللهم إن تظهر على هذه العصابة يظهر الشرك ولا يقم لك دين) وأبو بكر ﷺ يقول:(والله لينصرنك الله وليبيض وجهك)

الدعاء والتعبد:

قلت للمعلم: لكن بعض سالكي طريق المعرفة تأدبوا، فقالوا بشرعية الدعاء، ولكنهم قصروه على المعنى التعبدي المحض الذي يطلب به العبد مجرد الثواب من غير أن يكون له أي تأثير في تحقيق المطلوب.. فلا فرق عند هؤلاء بين الدعاء والامساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب.. بل إن ارتباط الدعاء عندهم بتحقيق المطلوب كارتباط السكوت، لا فرق بينهما.

قال: هذا الرأي يتناقض مع ما صرحت به النصوص من جعل الله ﷻ الدعاء سببا في تحقيق المطالب، بل هو يتناقض أصلا مع تشريع الدعاء، بل يعتبر قوله ﷻ:﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(غافر: من الآية٦٠) قولا لا معنى له.. بل يعتبر كل ما ورد من النصوص الحاثة على الدعاء، والمخبرة عن إجابة الله ﷻ دعاء الداعين وتضرع المتضرعين لا حقيقة لها.

الأمارة والسبب:

قلت للمعلم: ذهب آخرون إلى اعتبار الدعاء علامة جعلها الله ﷻ أمارة على قضاء الحاجة، فمتى وفق العبد للدعاء كان ذلك علامة له على أن حاجته قد قضيت، وشبهوا ذلك بدلالة الغيم الأسود في الشتاء على أنه يمطر.

وعمموا هذا القول على جميع الطاعات والمعاصي، فهي أمارات محضة عندهم لوقوع الثواب والعقاب، لا أسباب حقيقية له.

بل عمموا ذلك في جميع ما يحدث في الكون من آثار، فكلها أمارت فالكسر مع الانكسار ليس سببا، بل لا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه إلا مجرد الاقتران، لا التأثير السببي.

قال: فهل يمنع هذا القول الداعين من رفع أيديهم لله بالدعاء؟

قلت: لا..

قال: فلا حرج في هذا القول ما دام لا يمنعهم من رفع أيديهم إلى الله بالدعاء.

قلت: لقد أنكر ابن القيم وابن تيمية هذا القول، واشتدا في الإنكار، بل اعتبراهم مخالفين لـــ (الحس والعقل والشرع والفطرة وسائر طوائف العقلاء، بل أضحكوا عليهم العقلاء)[1] مرجحين القول بالسببية عل كونه أمارة.

قال: لا نرى صحة هذا الإنكار، بل نرى أن الاختلاف فيها مجرد اختلاف نظري لا مبرر له، ولا حاجة إليه، أو هو اختلاف تنوع، أو هو اختلاف في التفسير لا أثر له، فسواء قلنا بأن الدعاء أمارة أو سبب لا يختلف الأمر بالنسبة للداعي، ولا يقعده ذلك عن الدعاء.

قلت: ولكن القول بالسببية له تأثيره الخاص.

قال: لا.. بل إن القول بكون الدعاء أمارة قد يكون أكثر تأثيرا في الدعوة إلى استعمال الدعاء من القول بالسببية.

قلت: كيف هذا؟

---

(١) انظر: مدارج السالكين: ٤٠٩/٣.

قال: لأن الداعي إذا عرف أن الدعاء علامة على استجابة الله قد يجعله أكثر إقبالا عليه من اعتقاده سببا، فالسبب قد يقصر عن تحقيق المطلوب بخلاف جعله علامة.. ألم تسمع قول عمر ﷺ:(إني لا أحمل هم الاجابة، ولكن هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه)

قلت: بلى، وقد اقتبس الشاعر هذا، فأحسن، فقد قال:

لو لم ترد نيل ما أرجوه وأطلبه   من جود كفيك ما علمتنى الطلبا

قال: وهناك ناحية أخرى أهم من هذه.

قلت: وما هي؟

قال: هي الأثر الروحي الذي يتركه اعتقاد كون الدعاء أو العبادة أمارة لا سببا في حد ذاته.

قلت: أإلى هذه الناحية أشار العارفون عند حديثهم عن الدعاء، فقد نبه أبو الحسن الشاذلي إلى الاشتغال بمناجاة الله قبل الاشتغال بتحقيق المطالب، قال:(لا يكن همك في دعائك الظفر بقضاء حاجتك فتكون محجوباً، وليكن همك مناجاة مولاك)

وقال ابن عطاء الله:(لا يكن طلبك تسبباً إلى العطاء منه، فيقل فهمك عنه. وليكن طلبك لإظهار العبودية، وقياماً بحقوق الربوبية)

ثم علل كون الطلب لا يكون سبباً للعطاء بثلاث علل:

أما العلة الأولى، فعبر عنها بقوله:(كيف يكون طلبك اللاحق سبباً في عطائه السابق؟)، فعطاء الله للعبد عطاء أزلي سابق، وهو السبب في العطاء الحادث، والسبب لا بد من تقدمه على المسبب، وهو كما قال الواسطي: أقسام قسمت، وأحكام أجريت، كيف تستجلب بحركات أو تنال بسعايات؟

أما العلة الثانية، فعبر عنها بقوله:(جل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل)، أي أن حكم الله يتنزه ويتقدس أن يؤثر فيه أي مؤثر.

أما العلة الثالثة، فعبر عنها بقوله:(عنايته فيك لا لشيء منك، وأين كنت حين واجهتك عنايته، وقابلتك رعايته؟ لم يكن في أزله إخلاص أعمال، ولا وجود أحوال. بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال، وعظيم النوال)

قال: هذا صحيح.. وهو لا يتناقض مع ما سبق ذكره، بل يكمله ويضفي على الدعاء من المعاني الجميلة والارتباط بالله ما يرفعه إلى مستويات عالية من العبودية.. فإن معرفة كون عناية الله الأزلية هي السبب في كل نعمة يشعر القلب بمحبة الله واصطفائه على الكثير من خلقه، وهو ما يجعله يعبد الله مستشعرا منته عليه، وإحسانه السابق إليه.

قلت: أهذا هو مقصود العارفين من ذكر التوحيد بجانب الدعاء؟

قال: أجل.. الدعاء سبب شرعي معتبر، ولكن الشرع الذي شرع الدعاء وبين تأثيره في قضاء الحوائج هو الذي بين سبق عناية الله بعبده، فيفنى العارف في الفضل السابق، وينشغل الغافل بالسبب اللاحق.

وهم النقص

سرنا إلى القاعة التي يعالج فيها وهم النقص، فقرأت على بابها مكتوبا:(هذا الوهم ناشئ من سوء فهم لكلام الأولياء[1])

قلت: ما هذا الوهم ــ يا معلم ــ؟

قال: هو ما كتب على الباب.

قلت: ولكنه لم يحدد الموضوع الذي أسيء فهمه.

قال: الأولياء والمقربون ربما تركوا الدعاء رضى بالقسمة الإلهية.

قلت: لقد عبر على موقفهم هذا ابن عطاء الله بقوله:(ربما دلهم الأدب على ترك الطلب ؛ اعتماداً على قسمته ؛ واشتغالاً بذكره عن مسألته)

قال: فهذه الحكمة لا تدل على تركهم الدعاء مطلقا، بل يدل على أنهم ربما تركوا الدعاء في بعض الأحيان لاشتغال بعبادة أو رضى بما قسم لهم.

قلت: ولكن مع ذلك.. أليس فيه مخالفة للنصوص، فإنها تحث على الدعاء مطلقا؟

قال: لا.. ليس الأمر بهذه الصورة، فإن ما ذكروه في هذا الباب صحيح لا مشاحة فيه، وقد ورد ما يؤيده من النصوص كقوله ﷺ في الحديث القدسي:(من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)[2]

ألم نقل في بداية هذا القسم: إن الاستعانة بالله قد تتحقق بالسؤال، وقد تتحقق بالعمل الصالح؟

قلت: بلى، وقد ضربنا المثل على ذلك بالفقير المتسول، والمسكين المتعفف.. ولكن أنتعفف مع الله، وهو الذي أمرنا بالسؤال؟

قال: ليس الأمر كذلك.. بل إن الأمر لا يعدو مجرد رضا بقسمة الله، وانشغالا بطاعته.

قلت: ولكني قد قرأت للواسطي قولا يجعل العلة غير هذا.. فقد قال:(أخشى إن دعوت أن يقال لي: إن سألتنا مالك عندنا فقد اتهمتنا، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسأت الثناء علينا، وإن رضيت أجرينا لك من الأمور ما قضينا لك في الدهور)

---

(١) ذكرنا في هذه الرسائل كثيرا أن دور العارفين التربوي هو الحديث عن الجوانب المعرفية المتعلقة بالتكاليف الشرعية، وجمع القلوب على حقائق التوحيد، تكسيلا لدور الفقهاء، لا مناقضة لهم، لهذا تحدثوا في هذا الباب عن جانب مراعاة العبودية في الدعاء مع الاعتقاد بالمنة لله في الدعاء أو في تحقيقه.

(٢) البخاري في خلق أفعال العباد، وابن شاهين في الترغيب في الذكر، وأبو نعيم في المعرفة، والبيهقي عن ابن عمر.

قال: هذا القول من الواسطي تعبير عن حالة وجدانية معينة، وليس تعبيرا عن مذهب أو فكرة كما قد يتصور.

قلت: ولكنه قد يكون معارضا للدعاء، أو يكاد يعتبره نقصا.

قال: لا.. سوء الفهم هو الذي جر إلى هذا المعنى.. لم يحتقر أحد من الأولياء ما عظمه الله، ولكن هذا تعبير عن أحوال معينة.

قلت: ولكن كلامه واضح.. فلماذا نتعسف في تأويله.. وهو ليس قرآنا حتى ندافع عنه.

قال: القرآن الكريم أعظم من أن يحتاج للدفاع عنه.. ولكنا ندافع عن الحقيقة التي أسيء فهمها.. فلا ينبغي أن نقول: أخطأت، إلا لمن أخطأ.

قلت: فلماذا لا نقول لهذا: أخطأت؟

قال: ألم يكن سعد بن أبي وقاص مستجاب الدعوة؟

قلت: بلى، فقد دعا له ﷺ، فقال:(اللهم استجب لسعد إذا دعاك)[1]، ويروى من استجابة الله لدعائه أن أهل الكوفة حين شكوه إلى عمر بن الخطاب ﷺ فعزله واستعمل عليهم عماراً، فشكوا حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلي، فأرسل إليه فقال لسعد: يا أبا إسحاق إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي، فقال: أما أنا والله فإني كنت أصلي بهم صلاة رَسُول اللَّهِ ﷺ لا أخرم عنها.. فقال عمر ﷺ: ذلك الظن بك يا أبا إسحاق، وأرسل معه رجلاً أو رجالاً إلى الكوفة يسأل عنه أهل الكوفة، فلم يدع مسجداً إلا سأل عنه ويثنون معروفاً، حتى دخل مسجداً لبني عبس فقام رجل منهم يقال له أسامة بن قتادة يكنى أبا سعدة، فقال: أما إذ نشدتنا فإن سعداً كان لا يسير بالسرية ولا يقسم السوية ولا يعدل في القضية. قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً قام رياءً وسمعة فأطل عمره وأطل فقره وعرضه للفتن! وكان بعد ذلك إذا سئل يقول: شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد.

قال عبد الملك بن عمير الراوي عن جابر بن سمرة: فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجواري في الطرق فيغمزهن[2].

قال: لقد كانت شهرته باستجابة الدعاء أعظم من ذلك.. وهذا الذي ذكرت مثال فقط.

قلت: أجل.. فلا يمكن للمحدثين أن ينقلوا التفاصيل الكثيرة.. بل يكتفون بالنماذج.. ولكن ما علاقة هذا بهذا الباب؟

---

(١) الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب سعد بن أبي وقاص رقم (٣٥٧١) وابن حبان، والحاكم عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) البخاري ومسلم.

قال: ألم يصب ﷺ بالعمى؟

قلت: بلى..

قال: فكان قادرا على أن يدعو الله أن يشفيه؟

قلت: ربما دعا..

قال: لا.. لم يدعو، فقد روى المحدثون أنه لما قدم إلى مكة، وقد كان كف بصره، وجاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعو لهذا ولهذا، وكان مجاب الدعوة، قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتعرّفت إليه فعرفني وقال: أنت قارىء أهل مكة؟ قلت: نعم، فذكر قصة قال في آخرها: فقلت له: يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك فتبسم، وقال: يا بني قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري.

قلت: أسعد على دين الواسطي؟

قال: لا.. سعد والواسطي على دين محمد ﷺ.. ألم يمر رسول الله ﷺ بمواقف كثيرة كان يكتفي فيها بتصاريف الأقدار عن الإلحاح في الدعاء.

قلت: بلى.. ويكفي من ذلك أنه ﷺ كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع.. ومع ذلك لم يسأل الله رغيفا واحدا.

قال: بل إن في القرآن الكريم ما قد يستدل به على هذا.

قلت: أين؟

قال: تأخر طلب أيوب ﵇ وصبره تلك الفترة الطويلة، كما قال ﵎:﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الانبياء:٨٣)

قلت: لقد روي أنه مكث في البلاء مدة طويلة ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له، كان يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم واللّه لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه اللّه فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل، حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب ﵇: ما أدري ما تقول غير أن اللّه عزَّ وجلَّ يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران اللّه، فارجع إلى بيتي فأكفّر عنهما كراهية أن يذكرا اللّه إلا في حق)[1]

قال: والأصرح من ذلك تأخر دعاء نوح ﵇ على قومه كل تلك السنين الطويلة.

---

(١) ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك مرفوعاً وفي رفعه نظر، كما قال ابن كثير: رفع هذا غريب جداً.

قلت: أجل، فقد ذكر الله تعالى مدة ذلك، فقال:﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً ﴾(العنكبوت: من الآية١٤)

قال: ومن ذلك تأخر دعاء إبراهيم وزكريا ـــ عليهما السلام ـــ في طلب الولد إلى أن بلغا من العمر عتيا.

قلت: أجل، فقد ذكر الله تعالى ﷻ عن زكريا عليه السلام:﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً﴾ (مريم:٤ ـــ٥)

قال: فزكريا عليه السلام مع علمه بأنه لم يكن بدعاء ربه شقيا، أي ولم يعهد من الله إلا الإجابة في الدعاء، إلا أنه لم يستعمل هذا السلاح إلا بعد أن اضطر إليه اضطرار.

قلت: فكيف نوفق بين هذا وذاك؟

قال: بأن يوضع كل شيء في محله.

قلت: كيف ذلك؟

قال: الأنبياء ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ دعوا الله في مواقف كثيرة، وتركوا الدعاء في مواضع أخرى اكتفاء بالله.. فالكمال في الجمع بين الأمرين.

قلت: ما ضوابط ذلك؟

قال: ليس لذلك ضوابط محددة، ولو كانت هناك ضوابط لما اختلف الناس في هذا الباب.

قلت: فالأمر يرجع إلام؟

قال: يرجع إلى الحالة الوجدانية.. أليس الدعاء علاقة وجدانية بين الله وعبده، فقد يدفع العبد أحيانا، وبدون شعور إلى أن يسأل الله أمرا معينا، فيسأل الله، وقد لا يشعر بذلك الدافع، فيكتفي بنظر الله.

قلت: فعلى هذا إذن يمكن حمل قول عمر رضي الله عنه.. فقد قال رضي الله عنه:(إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه)

قال: أجل.. وهذا فهم منه عن الله تعالى.

وهم اليأس

سرنا إلى القاعة التي يعالج فيها وهم اليأس، فقرأت على بابها مكتوبا:(هذا الوهم ناشئ عن علتين، إحداهما فطرية، والثانية مكتسبة)

العلة الفطرية:

قلت: فما الفطرية؟

قال: العجلة، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾(الانبياء: من الآية٣٧)، وقوله تعالى:﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾(الاسراء:١١)

قلت: بلى.. فالاستعجال صفة فطرية في الإنسان باعتبار عمره القصير، وبسببها آثر العاجلة على الآجلة، والنقد على النسيئة، كما قال تعالى:﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾(الاسراء:١٨)

وبسببها طلب المشركون العذاب ليتأكدوا من صدق رسول الله ﷺ، قال تعالى:﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (العنكبوت:٥٤)

قال: وقد أشار ﷺ إلى هذه العلة، واعتبرها حجابا بين العبد واستجابة ربه له، فقال ﷺ:(يستجاب لأحدكم ما لم يَعجَل فيقول: قد دعوت ربي فلم يستجب لي) [1]، فالله عز وجل لا يعجل بعجلة ابن آدم، ولكن لكل قضاء عنده موعد.

قلت: فما علاج هذه العلة؟

قال: هنا أربعة رقاة مختصون في علاج هذه العلة.

قلت: أيدخل لهذا المستشفى الجن أيضا؟

قال: الجن خلق من خلق الله، وفيهم الصالحون، فما الذي يمنع دخولهم؟

قلت: ويسكنون بني آدم.

ضحك، وقال: و لم يسكنونهم؟.. أضاقت عليهم الأرض حتى يسكنوا الإنسان؟.. ما مناسبة هذه الأسئلة؟

قلت: لقد ذكرت الرقاة.

قال: الرقاة هم الأطباء الذين يعالجون هذه العلل.. انظر لقد بدأوا في العلاج، فهلم نستمع إليهم.

---

(١) البخاري ومسلم.

الرقية الأولى:

قال الراقي الأول: أول ما يحرك من هذا الوهم هو تسليمك الأمر لله في تحقيق المطلوب أو عدم تحقيقه، لأن الله أعلم بمصالح العباد منهم بمصالح أنفسهم.

ويكون الإنسان في هذه الحالة كصبي صغير بين يدي والديه، يطلب منهما كل ما يلوح لبصره، وقد يكون في بعض ما يطلبه داؤه وضرره، فيمنعانه لا بخلا وشحا، وإنما حرصا ورحمة.

وهكذا، فقد يدعو الإنسان بما يتراءى له خيرا، غافلا عن الشر المنطوي في ذلك الخير، والذي أعمته العجلة عن تبصره، ولهذا قال تعالى:﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾(الإسراء:١١)

زيادة على ذلك، فإن الإنسان في مواقف الغفلة قد يدعو دون نظر لعواقب ما يدعو، ومما دعا به المشركون كما نص القرآن الكريم:﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(لأنفال: من الآية٣٢)

بل قد يدعو المؤمن في موقف من مواقف الغفلة أو الضجر، فيلعن نفسه وأهله وولده وماله، ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك، ولهذا قال ﷺ:(لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها)[1]

وإلى هذا المعنى يشير العارفون ــ كما يعبر على لسانهم ابن عطاء الله ــ بقوله:(لا يكُنْ تَأخُّرُ أَمَد العَطاء مَعَ الإلْحاح في الدّعَاء موجبَاً ليأسِك ؛ فهو ضَمِنَ لَكَ الإجابَةَ فيما يختارُهُ لكَ، لا فيما تختاره لنَفْسكَ وفي الوقْتِ الذي يريدُ، لا في الوقْت الذي تُريدُ)

وإلى ذلك أشار في الحكمة الأخرى بقوله:(ربما منعك فأعطاك وربما أعطاك فمنعك)

بل ذلك ما يدل عليه قوله ﷻ:﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة: من الآية٢١٦)

الرقية الثانية:

قال الراقي الثاني: أما الرقية الثانية، فهي أن الدعاء قد يكون مجابا، ولكنه ينتظر الحين الذي يبرز فيه، وتكون الرحمة في ذلك التأجيل.

وإلى هذا أشارت الحكمة السابقة:(لا يكُنْ تَأخُّرُ أَمَد العَطاء مَعَ الإلْحاح في الدّعَاء موجبَاً ليأسِك ؛ فهو ضَمِنَ لَكَ الإجابَةَ فيما يختارُهُ لكَ، لا فيما تختاره لنَفْسكَ وفي الوقْتِ الذي يريدُ، لا في الوقْت الذي تُريدُ)

---

(١) أبو داود عن جابر.

وقد قال الشافعي رادا على المستعجلبين اليائسين:

أتهـــــــــــزأ بالـــــــــــدعاء وتزدريـــــــــــه ولا تـــــــــدري بمـــــــا صـــــــنع الـــــــدعاءُ

ســــــــهام الليـــــــل لا تُخطـــــــي ولكـــــــن لهــــــا أمـــــــد وللأمـــــــد انقضـــــــاءُ

وقد روي في الآثار أن موسى عليه السلام حين دعا على قوم فرعون فقال:﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾(يونس: من الآية٨٨)، وقال الله تعالى له:﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ (يونس: من الآية٨٩) أربعين سنة، قال ابن جريج: إن فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة.

وقال محمد بن النضر الحارثي في قوله تعالى:﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾(الأنعام: من الآية٤٤):(أمهل هؤلاء القوم عشرين سنة)

الرقية الثالثة:

قال الراقي الثالث: أما الرقية الثالثة، فعبر عنها محمد بن علي في هذه القصة التي يرويها سفيان بن عيينة، قال: مر محمد بن علي، على محمد بن المنكدر، فقال: ما لي أراك مغموماً ؟ فقال أبو حازم: ذلك لدين فدحه، قال محمد بن علي: أفتح له في الدعاء ؟ قال: نعم، قال: لقد بورك لعبد في حاجة أكثر فيها دعاء ربه، كانت ما كانت.

وعبر عنها النورسي بقوله:(ولهذا فان عدم القبول الظاهري لدعوتي بالشفاء من مرضي طوال ثلاثين سنة لم يصرفني أبداً من أن أفكر في يوم من الأيام بتركه والتخلي عنه، ذلك لأن المرض أوان الدعاء ووقته، والشفاء ليس نتيجة الدعاء بل إذا وهب الله سبحانه – وهو الحكيم الرحيم – الشفاء فإنه يهبه من فضله وكرمه، وان عدم قبول الدعاء بالشكل الذي نريده لا يقودنا إلى القول بأن الدعاء لم يُستَجب، فالخالق الحكيم يعلم أفضل منا ونحن نجهل، وأنه سبحانه يسوق إلينا ما هو خير لنا وانفع، وأنه يدّخر لنا الأدعية الخاصة بدنيانا أحياناً لتنفعنا في

أُخرانا، وهكذا يقبل الدعاء. ومهما يكن فان الدعاء الذي اكتسب الإخلاص والنابع من سرّ المرض والآتي من الضعف والعجز والتذلل والاحتياج، قريبٌ جداً من القبول. والمرض أساس لمثل هذا الدعاء الخالص ومداره. فالمريض والذين يقومون برعايته من المؤمنين ينبغي أن يستفيدوا من هذا الدعاء)[1]

الرقية الرابعة:

قال الراقي الرابع: أما الرقية الرابعة، فهي أن تعلم ــ أيها اليائس الحزين ــ أنك في كل الأحوال لن ترجع صفر اليدين، بل الغنائم التي تنالها من عند ربك لا تعد ولا تحصى، بل هي أبلغ بكثير مما طلبته.

وقد قال ﷺ يعبر عن هذا العلاج:(ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى بدعوة إلا آتاه الله إياها.. أو صرف عنه من السوء مثلها.. ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم)، فقال رجل: إذاً نُكثر قال:(الله أكثر)[2]

العلة المكتسبة:

قلت: عرفنا العلة الفطرية وعلاجها، فما العلة المكتسبة؟

قال: هي سوء المعرفة بالله، والتي ينتج عنها سوء الظن به.

قلت: فما سبب ذلك؟

قال: سببان قد يجتمعان، وقد يفترقان.

قلت: فما الأول منهما؟

قال: الغفلة التي ترين على القلوب، فتجعلها محجوبة عن الله يائسة من فضله..

قلت: فما الثاني؟

قال: ما سبق من الإنسان من المعاصي، فيتصورها جدارا يحول بينه وبين دعوة ربه أو استجابة ربه لدعائه.

قلت: فأين الرقاة الذين اختصوا بعلاج كلا العلتين؟

قال: أما من كان سبب علته الغفلة، فإنه يرسل إلى قسم (حسن الظن بالله)، ليتعرف على الأسماء الحسنى الكثيرة التي تستدعي حسن الظن بالله، فتتراح غفلته.

قلت: والسبب الثاني؟

---

(١) اللمعة الخامسة والعشرون: ٣٣١.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

قال: بتقوية الصلة بالله، ألم يقل الله تعالى بعد الأمر بالدعاء:﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة: من الآية١٨٦)

قلت: بلى..

قال: فمن أراد أن يستجيب الله له، فليستجب هو لله.

قلت: ألا يجيب الله إلا الصالحين.

قال: تعالى الله.. فهو أكرم من ذلك، إنما الدعاء الذي يخرج من فم الخطيئة غير معطر بمسك التذلل والتضرع لا يخرج طاهرا نقيا، فإذا نزلت الإجابة لا تجد المحل الملائم لها.

قلت: لم أفهم هذا.. اضرب لي مثالا يوضحه لي.

قال: لقد استبعد ﷺ أن يستجاب لمن هذا حاله، فقد ذكر ﷺ:(الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك)[1]، وهذا استفهام على جهة الاستبعاد من قبول دعاء من هذه صفته.

قلت: لا أزال أحتاج إلى توضيح أكثر.

قال: لتمثيل حيلولة الجسم الذي نبت من حرام بين الداعي وبين الإجابة نستعير ما تسمونه بصحون الاستقبال الفضائي، فإن هذه الصحون إن حصل لها ما يشوش الصورة بانحنائها أو عدم توجيهها الوجهة المعينة، فإنها لا تستقبل البث الفضائي مع أن موجاته تملأ الأثير.

قلت: فالبخل ليس في الموجات، وإنما في المستقبل لها.

قال: فلذلك ورد في النصوص التنبيه إلى شروط الدعاء، وهي ترجع جميعها إلى الاستقامة والتأدب بين يدي الله ظاهرا وباطنا، قال تعالى مبينا أدب الدعاء:﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(لأعراف:٥٥)، أي بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً مراءاة.

وقد قال الحسن البصري ؓ مبينا هدي السلف الصالح ؓ:(إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر، فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله

---

(١) مسلم.

تعالى يقول:﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾، وذلك أن اللّه ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال:﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً﴾(مريم:٣))

قلت: لقد كان السلف ﷺ من العلماء والمربين ينبهون إلى ضرورة اتخاذ وسائل الإجابة، فمن تعرف إلى الله في الرخاء عرفه في الشدة.

فهذا علي ﷺ يقول لنوف البكالي:(يا نوف، إن اللّه أوحى إلى داود أن مر بني إسرائيل ألا يدخلوا بيتا من بيوتي إلا بقلوب طاهرة، وأبصار خاشعة، وأيد نقية، فإني لا أستجيب لأحد منهم، ما دام لأحد من خلقي مظلمة)

وهذا ابن عطاء يذكر شروط الدعاء ودعائمه التي يقوم عليها، فيقول:(إن للدعاء أركانا وأجنحة وأسبابا وأوقاتا، فإن وافق أركانه قوي، وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه أنجح. فأركانه حضور القلب والرأفة والاستكانة والخشوع، وأجنحته الصدق، ومواقيته الأسحار، وأسبابه الصلاة على محمد ﷺ)

وعندما سئل إبراهيم بن أدهم ﷺ: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ قال بقوة وصراحة:(لأنكم عرفتم اللّه فلم تطيعوه، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به، وأكلتم نعم اللّه فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس)

قال: ولكن مع ذلك، لا ييأس المؤمن من رحمة الله مهما كثرت خطاياه أو حالت الحوائل بينه وبين الإجابة، فرحمة الله أشمل وأعم، وقد قال سفيان بن عيينة ﷺ:(لا يمنعن أحدا من الدعاء ما يعلمه من نفسه فإن اللّه قد أجاب دعاء شر الخلق إبليس، قال:﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾(الحجر:٣٦ ـــ ٣٧))

قلت: فهذا هو علاج هذه العلة إذن.

قال: هذه ناحية من العلاج.

قلت: أهناك ناحية أخرى؟

قال: أجل.. فإن الدعاء يقتضي اليقين في الله وفي فضله وقدرته، فلذلك إن دعا يائسا من الإجابة كان ذلك حائلا بينه وبين استجابة دعائه.

ولهذا كان اليقين شرطا أساسيا في الدعاء، وقد ورد في الحديث، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال:(إن رجلاً أذنب ذنباً فقال: رب إن أذنبت ذنباً فاغفره لي، فقال اللّه عزّ وجلّ:

عبدي عمل ذنباً فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفره، فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفر لي، فقال عزَّ وجلَّ: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفره فقال اللّه عزّ وجلّ عبدي علم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به أشهدكم أني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء)[1]

فقد أخبر ﷺ أن سر الإجابة كان متعلقا بيقينه بالله وبمغفرته.

قلت: فاضرب لي مثالا يقرب لي هذا.

قال: إن أي أحد من الناس إن طلب منك شيئا، وهو ينظر إليك بعين الاحتقار، احتقار قدرتك أو كرمك، فإنك لا تعامله وفق ما قال بلسانه، بل وفق ما دل عليه حاله.

وكذلك الله تعالى فإنه لا يجرب، فمن دعا مجربا الله ردت عليه دعوته.

قلت: ألهذا ـــ إذن ـــ ورد في النصوص النهي عن الاستثناء في الدعاء مع كونه مرغبا فيه في كل الأحوال، كما قال ﷺ (إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ولا يقولن اللهم إن شئت فأعطني، فإنه لا مستكره له)[2]

قال: أجل، وذلك لما قد ينشره في النفس من احتمال عدم الإجابة، وذلك لأن في قوله (إن شئت) نوع من الاستغناء عن مغفرته وعطائه ورحمته، كقول القائل: إن شئت أن تعطيني كذا فافعل، لا يستعمل هذا إلا مع الغني عنه، وأما المضطر إليه فإنه يعزم في مسألته، ويسأل سؤال فقير مضطر إلى ما سأله.

***

خرجنا من هذا القسم، وفي طريقنا لقيت حلقة يجتمع فيهم قوم حول رجل، وكأن على رؤوسهم الطير، فسألت المعلم من هذا؟

قال: هذا القاص.

قلت: الذي يقص القصص.

قال: أجل..

قلت: هلم بنا إليه.. فإن في طبعي ولعا عظيما بالقصص.

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) البخاري ومسلم.

قال: ذلك طبع جميع بني جنسك.. فاستخدموه في طاعة الله.

اقتربنا من القاص، فسمعناه يقول: أيها اليائس الذي ينظر بعينه الكئيبة إلى الكون ورب الكون، تخلص من قنوطك وارفع يديك بالدعاء، فإن رحمة الله الشاملة ستشملك ما دمت مادا يدك إلى الله، وقل ما قال عمر ﷺ:(إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه)

قالت الجماعة المحيطة به: حدثنا عن تضرعات الصالحين لتكون نبراسا يطفئ نيران أوهامنا.

سكن القاصا قليلا، وقلب صفحات كتاب بجانبه، ثم قال: يروى عن طاووس، قال: إني لفي الحجر ذات ليلة، إذ دخل علي بن الحسين ــ عليهما السلام ــ فقلت: رجل صالح من أهل بيت الخير، لأستمعن إلى دعائه الليلة، فصلى، ثم سجد، فأصغيت بسمعي إليه، فسمعته يقول: عبيدك بفنائك، مسكينك بفنائك، فقيرك بفنائك، سائلك بفنائك. قال طاووس: فحفظتهن، فما دعوت بهن في كرب، إلا فرج الله عني.

قلت للمعلم: هذا لم يدعو.. بل وصف حاله.

قال المعلم: أعظم الدعاء هو الفقر والمسكنة.

قال القاص: ويروى عن عبد الله بن جعفر: أن رجلاً أصابه مرض شديد، منعه من الطعام والشراب والنوم، فبينا هو ذات ليل ساهراً، إذ سمع وجبة شديدة في حجرته، فإذا هو كلام، فوعاه، فتكلم به، فبرأ مكنه، وهو: اللهم أنا عبدك، وبك أملي، فاجعل الشفاء في جسدي، واليقين في قلبي، والنور في بصري، والشكر في صدري، وذكرك بالليل والنهار- ما بقيت- على لساني، وارزقني منك، رزقاً غير محظور ولا ممنوع.

وعن الحكم بن هشام الثقفي، قال: أخبرت أن رجلاً، أخذ أسيراً، فألقي في جب، وألقي على رأس الجب صخرة، فتلقن فيه: قل: سبحان الله الحي القدوس، سبحان الله وبحمده، فأخرج من غير أن يكون أخرجه إنسان.

وأتي الحجاج بن يوسف، برجل كان جعل على نفسه، إن ظفر به، أن يقتله، قال: فلما دخل عليه، تكلم بكلام، فخلى سبيله.

فقيل له: أي شيء قلت ؟ فقال: قلت: يا عزيز، يا حميد، يا ذا العرش المجيد، اصرف عني ما أطيق، وما لا أطيق، واكفني شر كل جبار عنيد.

وعن أبي سلمة عبد الله ابن منصور، قال: حزن رجل حزناً شديداً، على شيء لحقه، وأمر أهمه وأقلقه، فألح في الدعاء، فهتف به هاتف: يا هذا، قل: يا سامع كل صوت، ويا بارىء النفوس بعد الموت، ويا من لا تغشاه الظلمات، ويا من لا يشغله شيء عن شيء.

قال: فدعا بها، ففرج الله عنه، و لم يسأل الله تلك الليلة حاجة، إلا أعطاه.

***

قلت للمعلم: أليس في الدعاء بهذه الأدعية ابتداعا في الدين؟

قال: قد يصبح الدعاء بها ابتداعا في الدين.

قلت: وابتداعا محرما.

قال: ابتداع ضلالة.

قلت: متى؟

قال: إذا تعامل مع هذه الأدعية كما يتعامل مع أدعية المصطفى ﷺ، فيلزمها، ويخاف من تبديل ألفاظها، أو يتخذ لها أوقاتا محددة، أو يغفل بها عن أدعية المصطفى ﷺ.. وأشياء أخرى كثيرة سنرى ضوابطها في (سراديب الاعتراض)

قلت: فإن خلا الداعي من كل ذلك.

قال: الحكم يدور مع علته وجودا وعدما.

قلت: فهل لهذا من أصل.. فمن قومي من يبالغون في الحكم على الأشياء بالبدعة.

قال: لقد نقل المحدثون الكثير من أدعية السلف الأول، و لم يحرجوا في الدعاء بها.

قلت: فمثل لي لذلك.

قال: سنرى تفاصيل ذلك في (سراديب الاعتراض).. أما قومك الذين يناقشون في مثل هذا.. فسنناقشهم بمثله في حصن الاستعاذة.

٢ ــ العمل الصالح

اقتربنا من الباب الثاني من أبواب الاستعانة، وقد كتب عليه بحروف من نور قوله تعالى:﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة:٤٥)

فقال لي المعلم: المفتاح الثاني من مفاتيح الاستعانة العمل الصالح، فبه تطرق أبواب الجود، وتمد أيدي العون، وترسل أمداد الإغاثة.

قلت: ولكن الآية التي كتبت على الباب لم تتحدث عن المستعان عليه، بل اكتفت بإطلاق الاستعانة، ومثل ذلك قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(البقرة:١٥٣)

قال: لقد جاء لفظ الاستعانة مطلقا ليبين دور الصبر والصلاة في كل شيء، فهما عون في الدين كما أهما عون في الدنيا، وعون في الأمراض النفسية كما أهما عون في الأمراض الجسدية.

قلت: ولكن الله تعالى قد رتب على الأعمال أجورها المعلومة، كما ورد في الحديث القدسي:(إذا هم عبدي بحسنة و لم يعملها كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسيئة و لم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة)[1]

قال: إن الله شكور حليم، فلذلك يمن على عباده بأجور الدنيا وأجور الآخرة.

قلت: كيف ذلك؟

قال: سنعرف تفاصيل هذا في محلها من:(أسواق التجارة الرابحة)[2].. ولكن أ لم تسمع قوله ﷺ:(تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)[3]

قلت: بلى.. وقد روي في أخبار الأنبياء أن يونس عليه السلام حين بدا له أن يدعو الله بالكلمات حين ناداه وهو في بطن الحوت، فقال:﴿ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الأنبياء: من الآية٨٧)، فأقبلت الدعوة نحو العرش فقالت الملائكة: يا رب! هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة، فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب! من هو؟ قال:

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) من رسائل المجموعة الثالثة.

(٣) الترمذي، وقال حسن صحيح.

ذلك عبدي يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة، قالوا: يا رب! أفلا ترحم من كان يصنع في الرخاء فتجيبه في البلاء، قال: بلى! فأمر الحوت فطرحه بالعراء[1].

قال: فلذلك يكون العمل الصالح شفيعا لصاحبه عند الله.

قلت: ولهذا إذن توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة إلى الله بأعمالهم الصالحة، فنجاهم الله، فقد قال ﷺ:(بينما ثلاثة رهط من بني إسرائيل يسيرون، إذ أخذهم المطر، فأووا إلى غار، فانطبقت عليهم صخرة، فسدت الغار، فقالوا: تعالوا فليسأل الله تعالى كل رجل منا بأفضل عمله.

فقال أحدهم: اللهم إنه كانت لي ابنة عم جميلة، وكنت أهواها، فدفعت إليها مائة دينار، فلما جلست منها مجلس الرجل من المرأة، قالت: اتق الله يا ابن عم، ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها، وتركت المائة دينار، اللهم إن كنت تعلم، أني فعلت هذا خشية منك، وابتغاء ما عندك، فأفرج عنا، فانفرج عنهم ثلث الصخرة.

وقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت أغدو عليهما بصبوحهما، وأروح عليهما بغبوقهما، فغدوت عليهما يوماً، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أنصرف عنهما، فيفقدا غداءهما، فوقفت حتى استيقظا، فدفعت إليهما غداءهما، اللهم إن كنت تعلم أني إنما فعلت ذلك ابتغاء ما عندك، وخشية منك، فأفرج عنا، فانفرج الثلث الثاني.

وقال الثالث: اللهم إن كنت تعلم، أني استأجرت أجيراً، فلما دفعت إليه أجره، قال: عملي بأكثر من هذا، فترك علي أجره، وقال: بيني وبينك يوم يؤخذ فيه للمظلوم من الظالم، ومضى، فابتعت له بأجره غنماً، ولم أزل أنميها وأرعاها، وهي تزيد وتكثر، فلما كان بعد مدة، أتاني، فقال لي: يا هذا إن لي عندك أجراً، عملت كذا وكذا في وقت كذا وكذا، فقلت: خذ هذه الغنم، فهي لك، فقال: تمنعني من أجري، وتهزأ بي، فقلت: خذها فهي لك، فأخذها ودعا لي، اللهم إن كنت تعلم أني فعلت هذا خشية منك، وابتغاء ما عندك، فأفرج عنا، فانفرج عنهم باقي الصخرة، وخرجوا يمشون)[2]

قال: هذا الحديث لا يدل فقط على جواز التوسل لله بالأعمال الصالحة، وإنما يدل على أن الأعمال الصالحة شافعة لصاحبها، سأل أو لم يسأل.

---

(١) ابن أبي الدنيا.

(٢) البخاري ومسلم.

***

رأيت بابين مفتوحين، وكأنهما يطلبان منا الدخول منهما، فقلت للمعلم: ما هذان البابان اللذان ينفتحان لنا طالبين منا الدخول؟

قال: هذان البابان يشيران إلى أركان العمل الصالح الذي يرضي الله تعالى، ويمد صاحبه بالعون.

قلت: الأعمال الصالحة كثيرة، فكيف يشير إليهما هذان البابان؟

قال: هذان البابان يجمعان شتاتهما.

قلت: فما الأول منهما؟

قال: هو النوع الذي يجعل العبد متصلا بالله، ذاكرا له، متوجها إليه، مناجيا له، جالسا معه.

قلت: فما دليل تأثيره في الاستعانة؟

قال: لقد كان ﷺ إذا اشتدت به الأمور هرع إلى الصلاة، فعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: رآني رسولُ الله ﷺ وأنا نائم أشكو مِن وجعِ بطني، فقال لي:(يا أبا هُرَيْرَة ؛ أشِكَمَتْ دَرْدْ[2]؟)، قال: قلتُ: نعم يا رسولَ الله، قال:(قُمْ فَصَلِّ، فإنَّ في الصَّلاةِ شِفَاءً)[3]

قلت: وما الباب الثاني؟

قال: هو باب إغاثة الملهوف، ورحمة الخلق، وقضاء حوائجهم.

قلت: فما دليل تأثير هذا النوع من الأعمال الصالحة؟

قال: وردت النصوص الكثيرة في تأثير ذلك في رفع البلاء، فقد قال ﷺ:(الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء).. فمن رحم الخلق استعد لرحمة الله، ومن أغاثهم استعد لغوثه، فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

قلت: فهل هما بابان على الخيار أم يجبر على الدخول من كليهما؟

قال: ألا تعلم أن السلام يتنافى مع الجبر؟

---

(١) أبو داود، وقد رُوي هذا الحديثُ موقوفاً على أبي هُرَيرةَ، وأنه هو الذي قال ذلك لمجاهد، وهو أشبهُ.

(٢) معنى هذه اللفظةِ بالفارسي: أيوجعُكَ بطنُكَ؟

(٣) ابن ماجه.

قلت: أقصد أن كلا الركنين أساسيان بحيث لا يغني أحدهما عن الآخر.

قال: أجل، فمن قصر في أحدهما كان له تأثيره في قضاء حاجته.. ولهذا يجمع الله كلا الوصفين للمؤمنين الصالحين، كما قال تعالى:﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(المائدة:٥٥)، فقد وصفهم بإقامة الصلاة التي تدعم صلة العبد بربه، ووصفهم بإيتاء الزكاة، وهي التي تنمي علاقتهم بربهم.

قلت: ألهذا إذن اقترنت الصلاة بالزكاة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

قال: أجل.. فلا يمكن أن يصل القلب إلى الله بالصلاة، وفي قلبه قسوة على الخلق.

قلت: لقد ذكرتني بقوله ﷺ في المرأة التي قيل له: إنها تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها، فقال:(هي في النار)

قال: وأذكرك بقوله ﷺ في المرأة التي قيل له: إنها تصلي المكتوبة وتصدق بالأثوار من الأقط ولا تؤذي جيرانها:(هي في الجنة)[1]

قلت: فهل ندخل لكلا البابين.. فقد عرفنا ما فيهما؟

قال: لا مناص لنا من ذلك.. ألا ترى انفتاحهما لنا، وترحيبهما بنا؟

---

(١) ابن النجار في حقوق الراكب والمركوب.

الصلة بالله

دخلنا قاعة الصلة بالله، وكانت أشبه بمحراب للعبادة، وقد فوجئت بوجود مرضى في هذه القاعة، ولكن لا كالمرضى، فإن كل واحد منهم يفترش سجادته، ثم يختلفون.. منهم من يمد يديه بالدعاء والمناجاة، ومنهم من هو قائم أو راكع أو ساجد.

قلت للمعلم: ما يفعل هؤلاء في هذا المستشفى؟.. أأخطأوا الطريق، أم تصوروا المستشفى مسجدا؟

قال: لا.. هؤلاء يتدربون على تقوية الصلة بالله.

الصلاة:

قلت: يتدربون؟!.. أراهم يصلون ويدعون.

قال: هناك من يدربهم على الصلاة الموصلة والدعاء المجاب.

قلت: أليس كل صلاة موصلة؟

قال: لا.. ألم تسمع قوله ﷺ:(إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها، وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها)[1].. ألم يتفق الصالحون على عدم اعتبار الصلاة الخالية من الحضور مع الله؟

قلت: أجل.. فقد قال سفيان الثوري ﷺ:(من لم يخشع فسدت صلاته)، وقال الحسن ﷺ:(كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع)

قال: بل قال معاذ بن جبل ﷺ:(من عرف من على يمينه وشماله متعمدا وهو في الصلاة فلا صلاة له)

قلت: فكيف يدربونه على الخشوع؟

قال: ألستم تدربون المرضى على أشياء معينة لينسجموا مع حياتهم؟

قلت: أجل.. لدينا أقسام كثيرة خاصة بالتدريب في مستشفياتنا.

قال: وقد لاحظ هذا المستشفى أهمية الصلاة في العلاج.. ولاحظوا في نفس الوقت التقصير في القيام بها.. حيث صارت مجرد حركات، وصار الدعاء مجرد تمتمات، فلذلك قررت إدارة المستشفى وضع هذا القسم لتدريب المرضى على الصلاة النافعة المؤثرة.

قلت: لقد ظفرت ببغيتي.. كم أشتاق لأتعلم صلاة الخاشعين.

---

(١) أبو داود والنسائي وابن حبان.

قال: لا.. لن نبحث ذلك هنا.. لذلك محله الخاص من دروس السلام.

***

فجأة دخل ابن القيم هذه القاعة.. فاجتمع جميع المرضى حوله، فقال لي المعلم: هيا، فقد جاء ابن القيم ليبين للمرضى دور الصلة بالله في إحلال الشفاء.

جلسنا مع الجموع، فسأل احد المرضى ابن القيم قائلا: ما أثر الصلاة في الإمداد بالعون الإلهي؟

قال ابن القيم: شأن الصلاة عظيم في تفريح القلب وتقويته، وشرحِه وابتهاجه ولذّته أكبرُ شأن.. وفيها من اتصالِ القلب والروح بالله، وقربه والتنعم بذكره، والابتهاجِ بمناجاته، والوقوفِ بين يديه، واستعمالِ جميع البدن وقُواه وآلاته في عبوديته، وإعطاء كل عضو حظَّه منها، واشتغالِهِ عن التعلُّق بالخَلق وملابستهم ومحاوراتهم، وانجذاب قُوى قلبه وجوارحه إلى ربه وفاطره، وراحتِه من عدوِّه حالةَ الصلاة ما صارت به من أكبر الأدَوية والمفرِّحات والأغذية التى لا تُلائم إلا القلوبَ الصحيحة، وأمَّا القلوبُ العليلة، فهي كالأبدان لا تُناسبها إلا الأغذية الفاضلة[1].

***

بينما أنا كذلك إذ أخذ بيدي أحدهم، وقال: إن أرادت دوام الصحة والعافية، فعليك بقيام الليل، فقد جربت فوائده العلاجية.

قلت: وما أدلة اعتبار قيام الليل دواء، والمريض مرخص له في النوم والراحة، فكيف يطالب بقيام الليل؟

فقال: أما الدليل، فقد قال ﷺ وهو يعدد فضائل قيام الليل:(عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ومقربة لكم إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم ومطردة للداء عن الجسد)[2]، فقد أخبر ﷺ أنه مطردة للداء عن الجسد.

قلت: ولكنه مريض يعجز عن صلاة الفرض، فكيف تطلب منه القيام؟

قال: القيام يتحقق بأي صورة، فإن كان المريض لا يستطيع أن يصلي التهجد قائماً يتهجد قاعداً أو مضجعاً والأجر يكتب له كاملاً.

---

(١) الطب النبوي: ١٦٣.

(٢) الإمام أحمد في مسنده و الترمذي و البيهقي و الحاكم في المستدرك عن بلال وابن عساكر عن أبي الدرداء.

زيادة على ذلك، فإنه لو طلب الطبيب من المريض أن ينهض ساعة في جوف الليل ليتحرك حركات معينة، ألا يؤخذ قول الطبيب الخبير بثقة ويقين بدون أن يجادله أحد؟

قلت: بلى، وكيف يجادل الخبير؟

فقال: فقد أخبر المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى بهذا، فخذ بما يقول وسلم.

تدخل رجل عليه سيما الخبراء، وقال:دعه لي، فإني أعرف اللغة التي يفهم بها.

قلت: فحدثني بلساني.

قال: لقد جاء في كتاب (الوصفات المترلية المجربة وأسرار الشفاء الطبيعية)، وهو كتاب بالإنكليزية لمجموعة من المؤلفين الأمريكيين[1] أن القيام من الفراش أثناء الليل، والحركة البسيطة داخل المترل والقيام ببعض التمرينات الرياضية الخفيفة، و تدليك الأطراف بالماء، والتنفس بعمق له فوائد صحية عديدة، وهذه النصائح تماثل تماماً حركات الوضوء والصلاة عند قيام الليل.

وسر علاقة هذه الأمور بالصحة أنها تؤدي إلى تقليل إفراز هرمون الكورتيزون[2]خصوصاً قبل الاستيقاظ بعدة ساعات، وهو ما يتوافق زمنياً مع وقت السحر، مما يقي من الزيادة المفاجئة في مستوي سكر الدم، والذي يشكل خطورة علي مرضي السكر، و يقلل كذلك من الارتفاع المفاجئ في ضغط الدم، ويقي من السكتة المخية والأزمات القلبية في المرضى المعرضين لذلك، كما يقلل من مخاطر تخثر الدم في وريد العين الشبكي، الذي يحدث نتيجة لبطء سريان الدم في أثناء النوم، وزيادة لزوجة الدم بسبب قلة تناول السوائل، أو زيادة فقدانها. أو بسبب السمنة المفرطة وصعوبة التنفس مما يعوق ارتجاع الدم الوريدي من الرأس.

ويؤدي قيام الليل إلى تحسن وليونة عند مرضى التهاب المفاصل المختلفة، سواء كانت روماتيزمية أو غيرها نتيجة الحركة الخفيفة والتدليك بالماء عند الوضوء.

كما أن قيام الليل علاج ناجح لما يعرف باسم (مرض الإجهاد الزمني) لما يوفره من انتظام في الحركة ما بين الجهد البسيط والمتوسط، الذي ثبتت فاعليته في علاج هذا المرض.

ويؤدي قيام الليل إلى تخلص الجسد من ما يسمي بالجليسيرات الثلاثية (نوع من الدهون) التي تتراكم في الدم خصوصاً بعد تناول العشاء المحتوي علي نسبه عالية من الدهون والتي تزيد من مخاطر الإصابة بأمراض شرايين القلب التاجية بنسبة ٣٢% في هؤلاء المرضي مقارنة بغيرهم.

---

(١) انظر: مقالة لــ د. صلاح أحمد حسين أستاذ بطب أسيوط،جريدة الأهرام ٢٠٠٤/٧/٢٧ بتصرف.

(٢) وهو الكورتيزون الطبيعي للجسد.

ويقلل قيام الليل من خطر الوفيات بجميع الأسباب، خصوصاً الناتج عن السكتة القلبية والدماغية وبعض أنواع السرطان.

ويقلل قيام الليل من مخاطر الموت المفاجئ بسبب اضطراب ضربات القلب لما يصاحبه من تنفس هواء نقي خال من ملوثات النهار، وأهمها عوادم السيارات ومسببات الحساسية.

وقيام الليل ينشط الذاكرة وينبه وظائف المخ الذهنية المختلفة لما فيه من قراءه و تدبر للقرآن و ذكر للأدعية و استرجاع لأذكار الصباح و المساء. فيقي من أمراض الزهايمر وخرف الشيخوخة والاكتئاب وغيرها.

الاستغفار:

جاء آخر، وقال: عليك بالاستغفار، فقد جربت التداوي به، فوجدته علاجا ناجعا لا تقف أمامه الأدواء.

قلت: فكيف وصلت إلى هذا النوع من العلاج؟

قال: لقد قرأت قوله ﷺ:(من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب)[1]، فدلني هذا على البحث في سر هذه الوصفة، فوجدت نصوصا كثيرة تدل عليها، فقد قال تعالى على لسان نوح u:﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾(نوح:١٠ ـــ ١١)، وقال على لسان هود u:﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً[2] وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾(هود:٥٢)، فقد ذكر الله تعالى في هذه الآية جوامع النعم[3]، واعتبر الاستغفار سببا لها.

قلت: فما السر الذي وجدته لذلك؟

قال: لقد لقيت ابن القيم ذكر لي سر ذلك.

---

(١) أحمد والحاكم.

(٢) متتابعا مرة بعد أخرى.

(٣) وقد فصل الفخر الرازي سر اجتماع النعم في هذه الآية، فقال:« ثم إنه u قال: «إنكم متى فعلتم ذلك فالله تعالى يكثر النعم عندكم ويقويكم على الانتفاع بتلك النعم» وهذا غاية ما يراد من السعادات، فإن النعم إن لم تكن حاصلة تعذر الانتفاع وإن كانت حاصلة، إلا أن الحيوان قام به المنع من الانتفاع بها لم يحصل المقصود أيضا، أما إذا كثرت النعمة وحصلت القوة الكاملة على الانتفاع بها، فهنا تحصل غاية السعادة والبهجة فقوله تعالى:﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ إشارة إلى تكثير النعم لأن مادة حصول النعم هي الأمطار الموافقة، وقوله:﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ إشارة إلى كمال حال القوى التي بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة، ولا شك أن هذه الكلمة جامعة في البشارة بتحصيل السعادات، وأن الزيادة عليها ممتنعة في صريح العقل »

قلت: فما قال لك؟

قال: لقد ذكر لي أن جميع أهل الملل وعقلاء كُلِّ أُمة اتفقوا على أنَّ المعاصيَ والفسادَ تُوجب الهَمَّ والغَمَّ، والخوفَ والحُزن، وضيقَ الصدر، وأمراض القلب، حتى إنَّ أهلها إذا قضَوْا منها أوطارَهم، وسئمتها نفوسُهم، ارتكبوها دفعاً لما يَجِدُونه فى صدورهم من الضيق والهَمِّ والغَمِّ، كما قال شيخُ الفسوق:

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وإذا كان هذا تأثير الذنوبِ والآثام في القلوب، فلا دواءَ لها إلا التوبةُ والاستغفار.

قلت: ففصل لنا علل ذلك وأسبابه.

قال المعلم: لذلك قسم خاص في هذا المستشفى، سنمر عليه في قسم الفرار.

الصلاة على رسول الله ﷺ:

بينما كنت مع المعلم في هذه القاعة نتأمل الصلوات الخاشعة، ونستمع إلى الأدعية الرقيقة مر رجل بنا هو يقول:(صلوا على رسول الله.. صلوا على رسول الله)

قلت: من هذا؟

قال: هذا ممرض بهذا القسم يسقي المرضى دواء الصلاة على رسول الله ﷺ.

قلت: أعلم أن الصلاة على رسول الله ﷺ عبادة.. ولكني لا أعلم أنها دواء.

قال: كل عبادة دواء.. والصلاة على رسول الله ﷺ خصوصا أعظم دواء.. ألم تقرأ حديث أبي بن كعب رضي الله عنه حين قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال:(يا أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه)، قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي، قال: ما شئت، قلت: الربع؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير، قلت: فالنصف؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير، قلت: فالثلثين؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير، قلت أجعل لك صلاتي كلها، فقال ﷺ:(إذا تكفى همك، ويغفر لك ذنبك)[1]، فقد أخبره ﷺ بأنه يكفى كل ما أهمه.

قلت: وقد روي حديث آخر يقارب هذا، فعن حبان بن منقذ أن رجلا قال: يا رسول الله أجعل ثلث صلاتي عليك؟ قال نعم إن شئت، قال: الثلثين؟ قال: نعم إن شئت، قال فصلاتي كلها؟، فقال ﷺ:(إذا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك)[2]

---

(١) أحمد وعبد بن حميد وابن منيع والروياني والحاكم والبيهقي.

(٢) الطبراني في الكبير وأبو النعيم.

قال: فقد وصف رسول الله ﷺ الصلاة عليه علاجا لهموم الدنيا والآخرة.

قلت: فهمت هذا.. ولكن ما سر ذلك؟

قال: سر ذلك يسير، فالصلاة على رسول الله ﷺ تربط المؤمن برسول الله ﷺ وتملأ قلبه محبة له وشوقا إليه.

قلت: وما في ذلك من العلاج؟

قال: المحبة تحرق كل من عداها.. فتحرق الهم والغم.. وتملأ صاحبها بالبشر والسرور.

قلت: لقد ورد في النصوص الإخبار أن الصلاة على رسول الله ﷺ تجعل صاحبها أهلا لصلاة الله عليه، كما ورد في الحديث عن ابن أبي طلحة ﷺ: أن رسول اللّه ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه، فقالوا: يا رسول اللّه إنا لنرى السرور في وجهك، فقال:(إنه أتاني الملك فقال: يا محمد أما يرضيك ربك عزَّ وجلَّ يقول: إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً) قلت:(بلى)[1]..

قال: بل روي أكثر من ذلك، فعن عبد اللّه بن عمرو ﷺ قال:(من صلى على رسول اللّه ﷺ صلاة صلى اللّه عليه وملائكته لها سبعين صلاة، فليقلَّ عبد من ذلك أو ليكثر)[2]

قلت: فما سر ذلك؟ وهل له علاقة بالاستشفاء بالصلاة على رسول الله ﷺ؟

قال: أجل.. له علاقة عظيمة، فقد ورد في القرآن الكريم الإخبار بالتأثير العظيم الذي تحدثه صلاة الله على عبده، كما قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ (الأحزاب:٤٣)

قلت: لقد أخبر الله تعالى بأن صلاة الله على عباده تخرجهم من الظلمات إلى النور.

قال: وهل الهموم والأحزان والمصائب إلا ظلمات، وهل النور إلا الفرج والعافية وانشراح الصدر.. ألم تسمع قوله ﷺ:(إن النور إذا دخل الصدر انفسح)[3]

ذكر الله

دخل ممرض آخر على المرضى، وهو يقرأ قوله تعالى:﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ (الأحزاب: من الآية٤١).. اذكروا الله يشرح الله صدوركم وينور قلوبكم)

قلت للمعلم: أهذا الممرض مكلف بدواء الذكر؟

---

(١) أحمد ورواه النسائي بنحوه.

(٢) أحمد.

(٣) الحاكم، وتعقب، عن ابن مسعود.

قال: أجل.. فهو يحضهم في كل حين، لا على الذكر فقط.. بل على كثرة الذكر.. فالذكر لا يؤتي أكله إلا بكثرته، ألم تسمع الحق تعالى وهو يقول:﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾(الأحزاب: من الآية٣٥)

قلت: بلى إن الله تعالى لم يقرن أي عمل صالح بالكثرة ما عدا الذكر، وفي هذه الآية قال تعالى:﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾(الأحزاب:٣٥)، فجعل الذكر وحده مخصوصا بالكثرة.

قال: أتدري علة ذلك؟

قلت: لطرد الغفلة.. فالغفلة تعتري الإنسان كل لحظة، فيحتاج إلى مقاومتها بالذكر.

قال: أجل.. والغفلة عن الله هي التي تجر إلى اليأس، وتملأ القلب ظلمة، فلا يعرف الله ولا يشاهد أفضاله، فإن سمع باسمه كان كسماعه أي اسم لا علاقة له به، ولا صلة بينه وبينه.

قلت: ألهذا كان من أسباب انشراح الصدر وطمأنينته الإكثار من ذكر الله؟

قال: أجل.. فإن له تأثيراً عجيباً في انشراح الصدر وطمأنينته، وزوال همه وغمه، وامتلائه أملا وثقة بالله، ألم تسمع الحق تعالى، وهو يقول:﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨)، أي تطيب وتركن إلى جانب اللّه وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً.

قلت: بلى، فما سر ذلك؟

قال: لقد جعل الله تعالى القلب محلا لمعرفته، ولا يكون كذلك إلا إذا كان طاهرا نظيفا منورا بنور الإيمان، وإلا أثرت فيه الأنجاس التي يحملها، فتجعله معرفته بالله معرفة مشوهة تؤدي إلى إساءة الظن بالله، كما قال تعالى:﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(فصلت:٢٣)

قلت: فما دور الذكر في هذا؟

قال: دور الذكر هو أنه جلاء القلوب وصقالتها، كما قال أبو الدرداء ﷺ:(لكل شئ جلاء، وان جلاء القلوب ذكر الله عز وجل)

وقد ورد في الحديث عن عبد الله بن عمر ﷺ، عن النبي ﷺ أنه كان يقول:(لكل شئ صقالة، وان صقالة القلوب ذكر الله عز وجل وما من شئ انجى من عذاب الله عز وجل من

ذكر الله عز وجل) قالوا:(ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل)، قال:(ولو أن يضرب بسيفه حتى ينقطع)[1]

قلت: ألهذا نهي عن مصاحبة أهل الغفلة، كما قال تعالى:﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾(الكهف: من الآية٢٨)؟

قال: أجل، لما يملأون به القلوب من وساوس.

قلت: ولهذا إذن وردت النصوص الكثيرة تصف الأذكار الرافعة للهم والحزن، كقوله ﷺ:(من قال في كل يوم أربع مرات: أشهد أن الله هو الحق المبين، وأنه يحي ويميت، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، صرف الله عنه السوء)[2]

وقوله ﷺ:(كلمات الفرج: لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع، ورب العرش الكريم)[3]

وقوله ﷺ:(من قال لا إله إلا الله، قبل كل شيء، ولا إله إلا الله بعد كل شيء ولا إله إلا الله يبقى، ويفنى كل شيء، عوفي من الهم والحزن)[4]

وقوله ﷺ:(لا حول ولا قوة إلا بالله دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم)[5]

قال: أجل، وكلها تضمنت المعارف الإلهية التي تنزع الهم والغم، وتبشر بالفرج، ومن أيقن بالفرج حصل له، فالله لا يخلف ظن عبده.

قراءة القرآن الكريم:

دخل ممرض آخر على المرضى، وهو يقرأ قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٥٧)، وقوله تعالى:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(الإسراء: من الآية٨٢)

قلت: هذا الممرض يرشد المرضى إلى الاستشفاء بالقرآن الكريم.

قال: نعم، فهو الكتاب الوحيد في العالم الذي يعرف الله المعرفة الصحيحة، لأنه كلام الله.. ولا يعرف الله إلا الله.

---

(١) البيهقي.
(٢) الحاكم في تاريخه عن أنس.
(٣) ابن أبي الدنيا عن ابن عباس.
(٤) الطبراني في الكبير عن ابن عباس.
(٥) ابن أبي الدنيا في الفرج عن أبي هريرة.

قلت: إن قومي خبراء بالعلاج بالقرآن الكريم ولهم تجارب كثيرة في هذا تمتلئ بها كتب الرقية.

قال: أولئك يتاجرون بالقرآن الكريم، ولا يعالجون به.. القرآن الكريم يعالج بالحقائق لا بالدجل.

قلت: كيف؟.. هم يستخدمون القرآن الكريم في العلاج.

قال: سنعرف دجلهم في محله من أقسام هذا المستشفى.. ولكن القرآن الكريم يعالج بالتعريف بالله، وإحسان الظن به، ولهذا كان شفاء لما في الصدور.

قلت: ألهذا كان ﷺ يرشد من أصابه الهم والحزن بهذا الدعاء، قال ﷺ:(ما أصاب عبدا هم ولا حزن، فقال اللهم إني عبدك، وابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هم لك سمّت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحدا من خلقك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي وغمّي، إلا أذهب الله همّه وغمّه، وأبدله مكانه فرحا)، قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلّمهن؟ قال:(بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلّمهن)[1]..؟

قال: أجل.. فالقرآن ربيع القلوب، وفي الربيع يكون الأنس والفرحة والسرور والابتسامة، ولهذا كان مالك بن دينار ؓ يقول:(ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن، إن القرآن ربــــيع المؤمن كما أن الغيث ربــــيع الأرض)

---

(١) أحمد والبيهقي في الشعب، والحاكم، والطبراني في الكبير عن ابن مسعود.

الإحسان إلى الخلق

دخلنا قاعة الإحسان إلى الخلق، وقد كتب على بابها قوله ﷺ:(الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)

قلت للمعلم: لم كان الإحسان إلى الخلق قرينا للصلة بالله؟

قال: لأنه ثمرة أساسية من ثمار الصلة بالله، فيستحيل على القلب المنور بنور الذكر، المؤدب بتأديب القرآن الكريم أن يقعد عن إغاثة الملهوف أو إجابة المحتاج أو الإحسان إلى الضعفاء.

ويستحيل على القلب المنور بنور الإيمان أن يؤذي إخوانه، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع فقال:(يا معشر من أسلم بلسانه و لم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله)[1]

وقال ﷺ:(يا معشر من آمن بلسانه و لم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في بيته)[2]

قلت: عرفت صلة الصلة بالله بالاستعانة بالله، فما صلة الإحسان إلى الخلق بالاستعانة؟

قال: الله تعالى يعامل عباده بحسب ما يعامل به بعضهم بعضا، ألم تقرأ ما كتب على لافتة الباب؟

قلت: بلى.

قال: فقد أخبر ﷺ عن معاملة الله لعباده بجنس ما يعامل به بعضهم بعضا، وقد أخبر في الحديث القدسي عن صلته لمن وصل رحمه وقطعه لمن قطعها، فقال:(أنا الرحمن خلقتُ الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته)[3]

وأخبر ﷺ أن (من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[4]

---

(١) الترمذي، وقال: حسن صحيح.

(٢) أبو داود.

(٣) الترمذي وصححه.

(٤) مسلم وأبو داود واللفظ له والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه.

وأخبر ﷺ أن (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة)[1]

وأخبر ﷺ أنه (لا يستر عبد عبدا في الدنيا إلا ستره يوم القيامة)[2]

قلت: أمن هذا الباب ما ورد من علاج المرضى بالصدقة، فقد قال ﷺ:(حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع)[3]

قال: هذا الحديث يؤخذ على ظاهره، ويسلم لقائله.

قلت: فما السر في ذلك؟

قال: إن لم يدع لك لسان الفقير دعا لك قلبه، فإن جحد قلبه دعت لك الملائكة، فإن لم يدع لك أحد، فالله شاكر حليم، يعطيك ما عجز الكل عن إعطائه لك، فسلم لقول نبيك، ولا تسأل عن الكيفية.

قلت: ليطمئن قلبي.

قال: سأورد لك ما يطمئن به قلبك، قال ابن شقيق سمعت عبد الله بن المبارك ﷺ، وسأله رجل عن قرحة خرجت في ركبته منذ سبع سنين، وقد عالجها بأنواع العلاج، وسأل الأطباء فلم ينتفع به، فقال عبد الله بن المبارك:(اذهب فاحفر بئراً في مكان الناس بحاجة إلى الماء فإني أرجوا أن ينبع هناك عينً ويمسك عنك الدم) ، ففعل الرجل فبرأ.

فهكذا يفعل الصالحون والربانيون، فأنبئني لو أن هذا الرجل جاء لقومك من الرقاة، بماذا سيشيرون عليه؟

قلت: يخبرونه ــ بعد رقية التشخيص ــ بأن الشيطان ركضه ركضة يحتاج معها إلى التجول على الرقاة جميعا ليجد من يحرق له شيطانه، وقد يموت قبل ذلك.

قال: وسأزيدك أخرى لترى منهج السلف ﷺ في التسليم للنصوص المقدسة، قال أبو طاهر السلفي: سمعت أبا الحسن علي بن أبي بكر أحمد بن علي الكاتب الميتري بدمشق يقول سمعت أبا بكر الخبازي بنيسابور يقول: مرضت مرضا خطرا، فرآني جار لي صالح، فقال استعمل قول رسول الله ﷺ:(داووا مرضاكم بالصدقة)، وكان الوقت ضيقا، فاشتريت بطيخا كثيرا،

---

(١) أبو داود واللفظ له والترمذي وقال حديث حسن صحيح غريب.

(٢) مسلم.

(٣) أبو داود في المراسيل ورواه الطبراني والبيهقي وغيرهما عن جماعة من الصحابة مرفوعا متصلا والمرسل أشبه.

واجتمع جماعة من الفقراء والصبيان، فأكلوا ورفعوا أيديهم إلى الله عز وجل، ودعوا لي بالشفاء، فوالله ما أصبحت إلا وأنا في كل عافية من الله تبارك وتعالى) [1]

قلت: تلك أزمنة الصالحين.

فقال: كل الأزمة أزمنة الصالحين ، ولا زمان للصالحين، وأزيدك من المعاصرين، فقد أخبر الشيخ محمد بن صالح السحيباني قاضي محكمة البدائع بالقصيم:(أن رجلاً من أهل القصيم أصيب بالسرطان، فتصدق على أم أيتام، فبدأت تدعو له فشفاه الله من هذا المرض)

وإن شئت أن أزيدك، فانشر إعلانا في الصحف، تطلب فيه استعمال هذا الدواء بيقين وتسليم، لترى آلاف الرسائل تنهال عليك تخبرك بمدى جدواه، فمن وصفه لا ينطق عن الهوى.

---

(١) معجم السفر: ٢٥١.

رابعا ــ حصن الاستعاذة

دخلنا الحصن الرابع من حصون الروح.. كان مهيبا مخيفا.. لست أدري كيف شعرت بقشعريرة تسري في أوصالي.. كنت أتشبث بمعلم السلام، وكأني لا أتشبث بشيء.. خالطني رعب لست أدري ما سببه.. قف شعري.. اختلطت في خيالي صور كثيرة مرعبة.. وزاد من رعبي انطفاء الأضواء وامتلاء القاعة بظلمة شديدة.. فازداد رعبي.

فجأة لاحت أنوار عظيمة بددت مخاوفي، كانت الأنوار تكتب بحروف من نور سورة الفلق.

ضحكت مع نفسي، وقلت: عجبا لك يا نفس.. كيف تخافين.. وسورة الفلق موجودة !؟

قال: لقد عرفت سر هذا الحصن.

قلت: ما عرفت.. لم أر شيئا بعد.. إن هو إلا رعب بسيط سرى في أوصالي.. ولكني بحمد الله وجدت الحصن الذي أتحصن به.

قال: ما وجدت؟

قلت: الله.. فالله رب كل شيء.. وما دام كذلك فلم أخاف؟.. ومن أخاف؟.. ألم يقل الله تعالى وهو يعلمنا التحصن به:﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾(الفلق:٢)؟

قال: ما دمت قد علمت هذا.. فاعلَم أن هذا الحصن الذي تمثله سورة الفلق يحفظك من كل الأعداء ما يختفون، وما يبرزون.

قلت: عرفت الأعداء الظاهرين، فمن الأعداء المتسترين بستار الغيب؟

قال: كثيرون.. وهم يتربصون بك.. وما وجدته من وحشة كان نوعا من تلك الأنواع المتسترة.

قلت: فاذكر لي ما ورد في النصوص من هؤلاء الأعداء لأتقيهم.

قال: سأذكر لك ثلاثة.. ورد في النصوص ذكرهم.. وورد في النصوص الحث على الاستعاذة منهم.

قلت: من هم؟

قال: الشياطين، والسحرة، والحسدة.

قلت: لا أكتمك ــ يا معلم ــ فإن النصوص، وإن وردت بالاستعاذة من هذه الأمور.. وضمنت تحصين الله لمن التجأ إليه منها إلا أن من قومي من يفتت قلوبهم الخوف منها، وكأن ما وعدهم الله به لغو من القول أو مواعيد عرقوب.

قال: فابتدعوا لذلك بدعا كثيرة.

قلت: لست أدري هل يصح إطلاق هذا اللفظ في هذا المحل، أم لا؟

قال: بل لا يصلح هذا اللفظ إلا في هذا المحل.. فإنهم هجروا كلام الله الذي أمرنا بالاستعاذة به، وهجروا سنة رسول الله ﷺ، وملأوا الكتب والمصنفات بخرافاتهم.. فرموا دين الله بالخرافة، وملأوه بالشعوذة.

قلت: يا معلم.. أنت تشتد في النكير عليهم.

قال: غيرة على دين الله.. فلم أر قوما يحرفون الكلم عن مواضعه كما رأيت هؤلاء.

قلت: فهل قامت إدارة المستشفى بعلاج هذه الظاهرة؟

قال: ليست إدارة المستشفى وحدها.. بل إدارة المستشفى، ووزارة الحياة.. ووزارة الحزم.

قلت: أكل هذه الجنود المجندة من أجل هذا؟

قال: ألم أقل لك: إن مدائن السلام تهتم بسلام الإنسان كاهتمامكم بسلام العمران؟

قلت: بلى..

قال: فوزارات الحرب عندكم تشهر دباباتها من أجل مصالح بسيطة، ولكنها لا تقف وقفة حزم واحدة للإنسان، وهو يخرب، ويحارب، ويكذب عليه.

قلت: أهؤلاء يكذبون؟

قال: أبشع الكذب.. ألم تسمع الحق تعالى وهو يقول:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام:٢١)

قلت: أهؤلاء يفترون على الله كذبا؟

قال: ويكذبون بآياته.

قلت: لا.. إنهم مؤمنون.

قال: يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

كان الغضب باديا على معلم السلام، وهو يتحدث.. لست أدري هل يصيب جنسه من الخطأ حين الغضب مثلما يصيب جنسنا.. أم أنه معصوم الغضب، معصوم الرضا؟

قال لي، وكأنه قرأ ما في عيني: لقد عجبت لغضبي.

قلت: كنت أراك هادئا كصفحة الماء التي لم تعكر.

قال: الغضب لله سنة رسول الله ﷺ.. ولا ينبغي أن نميت سنة رسول الله ﷺ، فقد كان ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول: صبحكم مساكم[1].

---

(١) ابن ماجة، وابن حبان والحاكم عن جابر.

قلت: أجل.. وقد غضب ﷺ في مواضع.. ولم يكن غضبه إلا لله.. ففي الحديث الصحيح أن رسول اللّه ﷺ قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال لا إله إلا اللّه فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول اللّه ﷺ، فقال لأسامة:(أقتلته بعدما قال لا إله إلا اللّه؟ وكيف تصنع بلا إله إلا اللّه يوم القيامة؟)، فقال: يا رسول اللّه إنما قالها تعوذاً، قال:(هلاّ شققت عن قلبه) وجعل يقول ويكرر عليه:(من لك بلا إله إلا اللّه يوم القيامة؟) قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ[1].

قال: وهو سنة أصحابه ﷺ كلما رأوا التحريف يسري إلى دين الله.

قلت: أجل، فعن أم الدرداء ــ رضي الله عنها ــ قالت: دخل علي أبو الدرداء وهو غضبان فقلت له: ما أغضبك؟ فقال: والله ما أعرف منهم من أمر محمد ﷺ شيئا غير أنهم يصلون جميعا[2].

رأيت جماعة من المرضى تبدو عليهم الكآبة يدخلون من أربعة أبواب في ذلك الحصن، سألت المعلم عنهم، فقال: هؤلاء مساكين.. أصابهم رقاتكم بأنواع من الكآبة.. ولكن الله هداهم، فجاءوا إلى هذا المستشفى ليغسلوا ما أصابهم من سوء الفهم.. وما ملأ قلوبهم من العلل.

قلت: فهل ندخل معهم؟

قال: لا مناص لنا من ذلك.. فلا ينبغي أن تعود إلى قومك بعلم لا تعرف تفاصيله.

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) ابن عساكر.

١ ـــ الاستعاذة من الشياطين

دخلنا الباب الأول من أبواب الحصن الغيبي، وقد كتب على بابه قوله تعالى:﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً﴾(فاطر: من الآية٦)

قلت للمعلم: ما سر تحذير النصوص من الشياطين؟

قال: الشيطان هو العدو الأول للإنسان، ألم يأب السجود لأبيكم آدم عليه السلام؟

قلت: ليس الشيطان وحده.. بل من معه من ذريته.. فإن قومي يحذرون منه ويحذرون.. ولذلك تمتلئ بيوتهم بالمعوذات، ويكثرون بين الحين والحين من زيارة الرقاة.

قال: أخطأتم.. أنتم تخافون الشيطان على دنياكم لا على دينكم.. تخافون منه أن يصيبكم بالأمراض، أو يصيب أموالكم بالمحق.. أو يصيب ذراريكم بالفقر.. وكأنه إله يوزع الأرزاق، لا شيطان يعلم المروق.

قلت: أصدقك.. فإن قومي لا يقصدون الرقاة إلا لأجل هذا.

قال: هذا كيد من كيد الشيطان، وأحبولة من أحابيله.. الشيطان لا يهمه غناكم، أو فقركم، بل إنه قد يحب غناكم الذي يصرفكم عن الله أكثر من حبه لفقركم الذي يقربكم إلى الله.

قلت: فلماذا نستعيذ من الشيطان؟

قال: لما قاله تعالى في الآية المعلقة على لافتة الباب، فقد قال:﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(فاطر:٦)، فقد ذكر علة واحدة لاتخاذه عدوا، وهي كونه يدعو إلى السعير.

قلت: قومي لا ينكرون هذا..

قال: ولكنهم يتيهون عنه.. يجعلونه أمرا هينا بجانب ما يتصورونه من أباطيل.

قلت: لا أفهم قصدك.

قال: في أي موضع يستدل قومك بقوله ﷺ:(إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)[١]؟

قلت: يستدلون به على قدرة الشيطان على استعمار جسد الإنسان، واضطراره إلى الرقاة ليخلصوه.

قال: وهل هذا الحديث الشريف ورد في هذا الموضع؟

---

(١) النسائي عن جابر.

قلت: لا.. لقد ورد في مواضع مختلفة، منها قوله ﷺ:(لا تدخلوا على هؤلاء المغيبات، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)، قيل: يا رسول الله ومنك؟ قال: ومني إلا أن الله أعانني عليه فأسلم.

قال: فهم يحرفون الحديث إن فهموا منه ما فهموا.. فلا ينبغي صرف ألفاظ النصوص عن السياق الذي وردت فيه.

قلت: ولكنهم يستدلون بهذا من باب العموم، لا من باب الخصوص.

قال: أي عموم، وأي خصوص.. لم يكن رسول الله ﷺ ليغفل عن هذا حتى نذكره.. و لم يكن ليجهل حتى نعلمه.. و لم يكن ليترك دينه ناقصا حتى نكمله.

***

بينما نحن كذلك إذ دخل شيخ مهيب ممتلئا وقارا، فرنت عيون المرضى إليه، فقلت للمعلم: من هذا المهيب الذي امتلأ قلبي هيبة له.

قال: هذا ولي صالح.. وعالم جليل.. وهو خبير بعالم الشياطين.

قلت: إذن هو راق ناجح.. ولكني لا أرى الغنى يبدو عليه؟!..

قال: هو راق للقلوب، وبالحقائق.. لا ما يفعله قومك من الدجل.

قلت: ولكنهم يستندون للقرآن الكريم والسنة المطهرة.

قال: فهذا الرجل المهيب لم يكتسب هيبته إلا من القرآن الكريم، فاستمع إليه ليبين لك موقف القرآن الكريم من هذا العالم.. فهو الكتاب الوحيد الذي يمدنا بالحقائق.

قلت: وما شأن هؤلاء المساكين بهذا الرجل؟

قال: هؤلاء المساكين أقنعهم رقاتكم أنهم مستعمرون بعوالم من الجن والشياطين.. ثم استلوا كل ما في جيوبهم.. يحرقون كل يوم جنا بمال من مالهم وعرق من عرقهم.. فلما فرغت جيوبهم لجأوا إلى الله.. فدلهم على هذا المستشفى.. فأرسلتهم إدارة هذا المستشفى لهذا القسم ليصححوا ما أوقعهم فيه قومك من أخطاء ومن كآبة.

عم القاعة سكون مهيب، بعده تكلم الرجل المهيب بصوت يكاد يكون من السماء، قال، وكأنه يواصل كلاما قديما: لتقرير هذه الحقائق[1] ـــ الغائبة للأسف ـــ نسوق هنا أكثر ما ورد في القرآن الكريم من ذكر الشيطان وعلاقته بالإنس، باختصار، لنفهم المسألة على ضوء القرآن الكريم لا على ضوء ما يشرعه الرقاة المشعوذون:

فالله تعالى يقرر أن المس الذي يمس به الشيطان لا يعدو هذه الوساوس التي يلقيها، فتملأ القلوب هما وحزنا، وقد يمتد تأثيرها إلى الجوارح مرضا وأنينا، وقد يكون محل الوسوسة مريضا مستعدا لحصول الصرع، فيصرع ويتخبط، لتأثير تلك الوساوس على نفسه، بل هو يتخبط لأي وساوس من الجن أو من الإنس.

وهذا التأثير الذي يحدثه الشيطان في القلوب والنفوس، وقد يمتد إلى الجوارح والأعضاء، لا يكون إلا لأوليائه المقترنين به، قال تعالى:﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران:١٧٥)، وقالتعالى:﴿ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً﴾ (النساء: من الآية٣٨)، وقالتعالى:﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً﴾ (النساء: من الآية١١٩)، وقالتعالى:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾(لأعراف:١٧٥)، وقالتعالى:﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(النحل:٦٣)

أما المؤمنون، فلا يضرهم الشيطان، قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾(لأعراف:٢٠١)، وقالتعالى:﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(المجادلة:١٠)

وذلك لأن معهم أسلحة مقاومته، قال تعالى:﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(ص:٨٣)، وقالتعالى:﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(لأعراف:٢٠٠)

وذلك لأن كيده ضعيف مثل ضعفه، قال تعالى:﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾(النساء: من الآية٧٦)، وقالتعالى:﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(لأنفال:٤٨)

---

(١) خصصنا لتفاصيل هذه المسألة كتابا اسمه:« القرآن والجن والخرافة »

والشيطان يخوف معتنقي وساوسه من الفقر، ويأمرهم لذلك بالفحشاء، قال تعالى:﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٦٨)

والغاية الكبرى من وساوس الشيطان هي الإضلال وتوابعه، قال تعالى:﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾(النساء: من الآية٦٠)، وقالتعالى:﴿ وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(الزخرف:٦٢)، وقالتعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾(لقمان:٢١)، وقالتعالى:﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(فاطر:٦)

قلت للمعلم: صدق الرجل، فضحايا هذه الحروب كما يصورها هؤلاء الرقاة ليست كما ورد في القرآن الكريم من تزيين المنكر والغواية وأصناف الوساوس الصارفة عن الله، وإنما هي حروب متصلة بالحياة المادية التي تلتصق التصاقا شديدا بمصالح الناس ورغباتهم.

قال: أتدري ما الدافع إلى اختصار هؤلاء الرقاة علاقة الجن بالإنس في هذه الناحية، أو تضخيمها على حساب غيرها من النواحي؟

قلت: ما سر ذلك؟

قال: لأنهم رأوا ذلك هو الاهتمام الوحيد للمجتمع، فهو لا يهمه أن يعرف مسالك الغواية أو مداخل الشيطان أو ضروب الوسوسة مادام ذلك لا يصيبه بصرع أو تخبط أو فقر أو حاجة، ولا يصيب مصالحه بأي نوع من الأذى سحرا أو مسا أو عينا أو تابعة أو غيرها من مصادر البلاء التي وكل بها الجن وتسلطوا على بني آدم في تصور هؤلاء.

واصل الشيخ يقول: وهو لذلك يبهرج لهم الوساوس ليتبعوه، قال تعالى:﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾(النساء:١٢٠)، وقالتعالى:﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الأنعام:٤٣) وقالتعالى:﴿)فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾(لأعراف:٢٠)، وقالتعالى:﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾(طــه:١٢٠)، وقالتعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(الحج:٥٢)

وهو يبحث عن كل الوسائل المؤدية إلى الإضلال، قال تعالى:﴿)إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ

بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾(المائدة:٩١)، وقالتعالى:﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾(الاسراء:٥٣)، وقالتعالى:﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾(الاسراء:٦٤)، وقالتعالى:﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾(لأعراف:٢٧)، وقالتعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(النور:٢١)

وبعد هذا كله، فإن الشيطان يخون من اتبعه، ويتركه في أهم مواضع الحاجة، قال تعالى:﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً﴾(الفرقان:٢٩)، وقالتعالى:﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾(الحشر:١٦)

قال: أسمعت هذا العرض لكثير مما ورد في القرآن الكريم من ذكر الشيطان.

قلت: أجل..

قال: الأمر أخطر من هذا.. فهؤلاء الرقاة لا يقصرون خطر الجني أو الشيطان على الصرع، بل يتعدونه إلى أشياء كثيرة تدل النصوص القطعية على أنها من خصوصيات الله.

قلت: أوصل بهم الأمر إلى هذه الدرجة؟

قال: أجل.. ماذا يقول الله تعالى في الأولاد؟

قلت: يعتبرهم نعمة من الله تعالى على عباده يجب شكرها، فالله تعالى يقول:﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ (الشورى: من الآية٤٩)

قال: إلا أن التفسيرات التي يتولاها رقاتكم تجعل الأولاد هبة من الشياطين لا هبة من الله.

قلت: لم أسمع هذا.

قال: هم يجعلون العقم وليدا لتصرف جني يستقر في الرحم ليحول بين البويضة وحصول التلقيح، أو (ينفث في الجنين بعد تخلقه فيموت وتسقط المرأة حملها)[1]

---

(١) الحاج خليفة معامرة،تجربتي الواقعية في الرقية الشرعية،عنابة:مطبعة الريام،١٩٩٧،ص٤٥.

أو أن الجن (يترك الإخصاب يتم ويكتمل الحمل، ولكن بعد عدة شهور من الحمل يركض الشيطان عرقا في رحم المرأة، فيترل الدم فيحدث الإجهاض)[1]

قلت: نعم.. هم يقولون هذا، ويتفقون عليه، ويرقون من به عقم على هذا الأساس.. أو على أسس أخرى قريبة.

قال: هذا التفسير الغريب الذي يكاد يجمع عليه الرقاة وبه يجتذبون كل من لديهم مشاكل في العقم أو حنين للأولاد يحمل ظلالا كثيرة من الشرك.

قلت: الشرك؟! هذه تهمة خطيرة.

قال: ولكنها واقع.. فإن قولهم ذلك يؤدي إلى اعتبار الجني هو الواهب للأولاد بكف أذاه عنهم، وبتركهم يخرجون من أرحام أمهاتهم بسلام، وكأن الملك الموكل بالرحم والوارد في الأحاديث الصحيحة الإخبار عنه، وهو يؤمر بنفخ الروح فيه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقي وسعيد يقف عاجزا أمام تسلط الجني المارد الذي وصلت قوته وجبروته إلى أن يتحدى وجود كائن أذن الله له بالتخلق.

قلت: هذا صحيح.. ولقد لاحظت هذا.

قال: وهذا التفسير وما يحمله من خرافة وشرك هو الذي يشير إليه قوله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(لأعراف: ١٨٩ ـــ ١٩٠)

فالقرآن الكريم يذكر في هاتين الآيتين حالة حمل خاف الزوجان خلالها أن يسقط الحمل أو يولد على غير الخلقة البشرية، ويمكن أن يكونا قد التجآ إلى أي وسيلة من والوسائل لحفظ الحمل، ولكن بعد أن من الله عليهما بالولد السوي نسباه لغير الله، وقصراه على تلك الوسائل.

قلت: لم أفهم علاقة الآيات الكريمة بواقع الرقاة عندنا.

قال: إن الشبه بين الشرك المنصوص عليه في تينك الآيتين والشرك الذي تعيشونه قريب، فالراقي وزبناؤه يعتقدون أن تلك الرقية التي خلص بها الرحم من الجن المارد هي السبب المباشر لحصول نعمة الولد مع أنه هبة ربانية لا ارتباط لها بالراقي ولا بالجن، وكان يجب أن يولد ذلك الولد مادام مقدرا له أن يولد، ولو ذهبت أمه لساحر أو كاهن أو مشعوذ.

---

(١) وحيد عبد السلام البالي، الصارم البتار في التصدي للسحرة الأشرار، ص١١٢.

وبهذه التصورات الشركية تمكن كل مشعوذ ودجال من السيطرة على عقول الناس وقلوبهم وجيوبهم، لأن الله تعالى شاء أن يبسط عليهم من فضله وهم في صحبة ذلك المشعوذ، فيعتقد العامي الساذج أن تلك الصحبة هي السبب والواسطة والمحل والمؤثر.

قلت: نعم.. هذا شرك واضح.. وكثيرا ما أراهم ينسبون حصول الولد لراق معين.

قال: وهم لا يكتفون بهذا.. بل يضيفون لهذا تحريفات أخرى للقرآن الكريم.

قلت: فماذا يقولون؟

قال: هم يستندون إلى تفاسير عجيبة للقرآن تتنافى مع المسلمات الشرعية، فهم مثلا يفسرون قوله تعالى:﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْأِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْأِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(الأنعام:١٢٨) بالاستمتاع الجنسي بين الجن والإنس[1].

قلت: سمعت هذا.. وهو من المسلمات عند العامة والخاصة.. بل لعلهم ينقلون عليه الإجماع.

قال: مع أنه لم يدل أي دليل نصي على ذلك، وإنما هي أخبار تتلقى عادة من المرضى النفسيين والمجانين لتبنى منها قضايا عقدية يحتاج التسليم لها إلى نصوص صريحة قطعية.

قلت: نعم.. هذه حقيقة عشتها.. فهم يصدقون كل ما يقال.. المهم أن يصب فيما يرونه.

قال: ليس هذا فقط.. بل إنهم يتنازلون كذلك عن كل مواقفهم من البدعة، فيضعون الأوراد الطويلة التي يبحث بها عن الجن أو التي يحرق بها، أو التي يعاهد على أساسها الجني، أو التي يفك بها السحر.

قلت: من العجيب ــ يا معلم ــ أن توظف الآيات الكريمة بواسطة هذه الفهوم توظيفا لا يليق بقدسيتها، فبعضهم مثلا يذكر من أوراد فك الربط قوله تعالى:﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾(الكهف: ٧١)

قال: الأمثلة عن ارتباط الخرافة بالعالم الغيبي واستغلالها في العبث بمشاعر الناس وصحتهم كثيرة، وخطرها لا يكمن في كونها خرافة أو شعوذة، ولكنه في استعمال القرآن الكريم في إشاعتها ونشرها واعتبارها علاجا شرعيا، وهو ما ينذر بخطر عظيم، فهؤلاء لا يكتفون بالقراءة، بل قد يلجئون إلى الضرب المبرح أو الكي أو الكهرباء أو غيرها من وسائل التعذيب لأنهم في

(١) انظر:محمد الصايم،حوار مع الشياطين،ص٦١.

تصورهم لا يعذبون المريض وإنما يعذبون الجن الذي يتلبسه، وقد يأتي يوم يسقون فيه مرضاهم السم ليقتلوا الجن، وما ذلك منهم ببعيد[1].

قلت: ولكنهم ــ يا معلم ــ يستدلون لذلك بنص من القرآن الكريم لا ينبغي تجاوزه.

قال: قوله تعالى:﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ (البقرة: من الآية٢٧٥)

قلت: أجل.. ففي هذه الآية تصريح بأن الشيطان يتخبط الإنسان من المس.

قال: في أي سياق وردت الآية.. ألم تعلم أنه لا ينبغي فصل الآية عن سياقها؟

قلت: وردت في سياق تحريم الربا، تشبه المرابين بهذه الصورة، قال تعالى:﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة:٢٧٥)

---

(١) لم يعد الضرب هو الوسيلة الوحيدة التي يعامل بها الجن عند هؤلاء الرقاة، بل إنهم كل يوم يطورون المزيد من الطرق، ويستفتون العلماء الذين لا يجدون منهم إلا التشجيع، وقد أورد بعض الرقاة هذه الطرق من أنواع الأذى والتي عنونها بقوله: « لحاق الأذى بالجن المعتدي الساكن بالجسد »، ومن هذه الطرق:

١. استخدام الماء الساخن المقروء عليه في تعذيب الجن وابعاده عن مكان أذاه بالجسم بوضع الماء الساخن على العضو المراد

٢. استخدام الموجات الصوتية بواسطة سماعات عالية التردد موصلة بجهاز تسجيل عليه آيات الرقية والحرق والحفظ وبعض السور والآيات ووضع السماعة على مكان وجود الجن أو مكان تأثيره في عضو من الأعضاء فيبدأ الجن في ترك العضو غير السليم.

٣. استخدام الثلج المقروء عليه آيات معينة ووضعه على وجه الشخص المصاب وخاصة في حالة الجن المجوسي عابد النار.

٤. استخدام جلسات الكهرباء على الدماغ أو على أي عضو من أعضاء الجسم لصرف الجني المسبب للألم أو المرض.

٥. غمر الجسد أو جسم المصاب في حوض به ماء مقروء عليه (برميل ماء مثلا)مع تغطيس الجسم كله بالرأس صعودا وهبوطا لخنق الجن.

٦. كتابة آيات قرآنية على جسم المصاب أو أماكن وجوده لحبس الجني العارض وتكتفيه.

٧. صرفه من الرحم وخاصة في سحر التريف بواسطة الأعشاب (شرب مغلي نبات البرداقوش واليانسون والحرمل) وينفع كذلك شرب مغلي الشبت والبقدونس ويحلى المشروب بالعسل المقروء عليه .

٨. هناك مأكولات تضر بالجن اليهودي مثل ان يحرص المريض على أن يأكل لحم الأرانب لأن اليهود لا يأكلون الأرانب.

٩. الحجامة أثناء القراءة وأثناء وضع حقنة الجلوكوز في وريد المريض

١٠. استخدام العطس، ويتم باستنشاق النشوق في الأنف عدة مرات وتحميد الله فإن ذلك يؤذي الجن وخاصة إذا كان النشوق مقروءا عليه.

١١. إنزال الجن الساكن بالدماغ والمقارن للحالة (حاضر على الحالة طوال الوقت) بواسطة جلسات الكهرباء على الدماغ وعمل الحجامة اللازمة والضرب بقوة على أعلى الظهر ونقرة القفا.

قال: فأنتم حرفتم هذه الآية تحريفا شنيعا.. انشغلتم بالتشبيه عن الحقيقة.. تركتم بنوككم وجيوبكم وحياتكم تمتلئ بالربا.. ورحتم للتشبيه تملؤون عيونكم وقلوبكم وحياة الناس به.

قلت: ولكن مع ذلك فهو قرآن كريم، وهو ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(فصلت:٤٢)

قال: فما يقول قومك في هذه الآية؟

قلت: هم يتشددون في تفسيرها.. ويرون من خالف ما ذهبوا إليه مخالفا للسنة ولأهل السنة وشاذا عن جماعة المسلمين.. وهم ينقلون أقوال المفسرين في ذلك كدليل على هذا الإجماع.

قال: فأخبرني بما قالوا؟

قلت: نقلوا عن الطبري قوله:(فقال جلّ ثناؤه للذين يأكلون الربا الذي وصفنا صفته في الدنيا لا يقومون في الآخرة من قبورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، يعني بذلك: يتخبطه فيصرعه من المس، يعني من الجنون، وبمثل ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل[1].

قال: صدق الطبري.. وهو لم يعدو ما ورد في الآية.

قلت: كيف هذا.. فأنت توافقهم إذن.

قال: لقد قال الطبري:(فيصرعه من المس) وهو لم يخالف نص الآية بذلك.

قلت: كيف هذا؟

قال: اذكر لي أولا ما قالوا.. ثم نشرح هذا.

قلت: نقلوا عن أبي إسحاق الزجاج قوله:(المعنى: الذين يأكلون الربا لا يقومون في الآخرة إلا كما يقوم المجنون من حالة جنونه، يقال بفلان مس، وهو أَلْمَسَ وأَوْلَقَ: إذا كان به جنون) [2]

قال: صدق أبو إسحاق.. بل وقف إلى جنب أهل الحق.

قلت: ونقلوا عن الماوردي قوله:(لا يقومون يوم القيامة من قبورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، يعني الذي يخنقه الشيطان في الدنيا من المس، يعني الجنون) [3].

قال: هو لم يعدو ما ذكر أصحابه.

قلت: ونقلوا عن البغوي قوله:(لا يقومون: يعني يوم القيامة من قبورهم ﴿ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي يصرعه الشيطان، أصل الخبط: الضرب والوطء، وهو ضرب على

١- الطبري: ١٠١/٣.

٢- الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: ٣٥٨/١.

٣- الماوردي: النكت والعيون: ٣٤٨/١.

غير استواء، ﴿ مِنَ الْمَسِّ ﴾ أي الجنون، يقال مس الرجل فهو ممسوس إذا كان مجنوناً، ومعناه آكل الربا يبعث يوم القيامة وهو كمثل المصروع[1].

قال: لا حرج فيما قال.. وهو لا يتنافى مع الحق.

قلت: ونقلوا عن عبد الرحمن بن الجوزي قوله:(قال ابن قتيبة: لا يقومون أي يوم البعث من القبور، والمس: الجنون، يقال رجل ممسوس: أي مجنون) [2].

قال: أراهم يكررون نفس الكلام.. فما الحاجة إلى كل هذه التطويلات؟

قلت: ليؤكدوا ما قالوا.. وليستدلوا على الإجماع بسبب ذلك.

قال: فليفهموا ــ أولا ــ ما يقولون قبل أن ينقلوه.. فإن كل ما قالوه صحيح لا يختلف فيه المسلمون جميعا سنتهم وشيعتهم سنيهم ومعتزليهم.

قلت: لا.. المعتزلة يختلفون اختلافا شنيعا مع أهل السنة في هذا، وقد جروا أنفسهم إلى سهام أهل السنة ورميهم لهم بالبدعة.

قال: فما يقولون؟

قلت: ذهبوا إلى القول بعدم قدرة الجن على التأثير في بدن الإنسان وصرعه له[3].

قال: أهذا ما ذهبوا إليه؟

قلت: لم يكتفوا بهذا، بل جروا إليهم نفرا من أهل السنة.

قال: ومن هؤلاء المغفلون من أهل السنة الذين تركوا أنفسهم في أيدي المعتزلة ليجروهم إلى البدعة؟!

قلت: كثيرون.. كثيرون جدا.

قال: مساكين.. فاذكر لي من هم لعلي أشفع لهم.

قلت: من الأقدمين: محمد بن علي القفال الشافعي المذهب، والبيضاوي وأبو السعود، وكلاهما من أصحاب التفاسير الذين اختصروا كتاب الكشاف للزمخشري المعتزلي، ومن المحدثين الشيخ محمود شلتوت، والشيخ طنطاوي جوهري، والشيخ أحمد مصطفى المراغي، والشيخ محمد الغزالي.

قال: هؤلاء من فحول العلماء، فكيف يتسلط المعتزلة على عقولهم؟!

١- البغوي: ٢٩٧/١.

٢- زاد المسير: ٢٨٦/١.

٣- انظر مقالات الإسلاميين: ١٣٣/١.

قلت: اسمع ما قالوا لتدرك ذلك.. يقول القفال في تفسيره للآية السابقة:(إن الناس يضيفون الصرع إلى الشيطان وإلى الجن، فخوطبوا على ما تعارفوا من هذا، وأيضاً من عادة الناس إذا أرادوا تقبيح شيء أن يضيفوه إلى الشيطان كما في قوله تعالى:﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ (الصافات:٦٥)) [1].

قال: هذا رأي ذهبوا إليه.. ولهم في اللغة ما يدل عليه.. ولو أني أرى أن القرآن الكريم أعظم من أن ينقل خرافة جاهلية..

قلت: فأنت مع المؤيدين إذن؟

قال: لأي شيء؟

قلت: لدخول الجني في الإنسي وصرعه له.

قال: وهل نص القرآن الكريم على ما ذكرت.. وهل قال من قال من المفسرين الذي ذكرت أقوالهم ذلك؟

قلت: أجل.. وهو ما يستند إليه الرقاة في جهادهم لتخليص الإنس من استعمار الجن.

قال: وهل ذكر القرآن الكريم الدخول.. أم ذكر المس؟

قلت: ذكر المس.

قال: فهل المس في لغة القرآن الكريم ولغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم يعني الدخول.

قلت: لا.. ولكنه قد يعنيه على سبيل المجاز.

قال: والأصل في اللغة الظاهر لا المجاز.. هل ورد هذا اللفظ مرتبطا بالشيطان في غير هذا الموضع؟

قلت: بلى، فقد قال تعالى عن حال المتقين إذا تعرضوا لمس الشياطين:﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾(لأعراف:٢٠١)

قال: فلم لم يقل الله تعالى:(إذا مسهم طائف من الشيطان ذهبوا إلى الرقاة ليخرجوه منهم) وهل تتصور أن هؤلاء الأتقياء الذين ذكرهم الله تعالى يتخبطون من المس الذي أصابهم به الشياطين.

قلت: لا.. بل أرى أنهم أعظم شأنا من ذلك.

قال: قل لي: أنتم تدرسون خصائص الأنبياء.

قلت: أجل.. فمن صفاتهم الأمانة والصدق والتبليغ والفطانة، ومن خصائصهم..

---

[1] الرازي: ٨٩/٧.

قاطعني، وقال: هل يمكن أن يكون النبي مجنونا؟

قلت: هذا عظيم.. كيف تقول هذا، فهذا من المنفرات.. والنبي أذكى الأذكياء وأعظم العباقرة، فكيف يكون مجنونا؟

قال: رقاتكم يقولونه.

قلت: كيف.. لم أسمعهم يقولون هذا.. ولو قالوه لرماهم الناس بالحجارة.

قال: ألم يقل الله تعالى:﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾(صّ:٤١).. فقد ذكر أن الشيطان مسه.. والمس عند رقاتكم يعني الدخول والصرع والتخبط.. وقد فسرتموه بالجنون.

قلت بيني وبين نفسي: هذا صحيح.. فكيف غاب عن بالهم هذا؟ ولكن كيف تفسر علاقة المس بالتخبط الذي ورد في القرآن الكريم؟

قال: ذلك شيء بسيط.. وسأضرب لك مثالا لتوضيحه.

قلت: هات.. فبالمثال يتضح المقال.

قال: سمعتكم تتحدثون عن مرض تسمونه (الحساسية)

قلت: أجل.. فبعض الناس لا يطيقون أشياء معينة، فتصيبهم لأجل ذلك علل قد لا تصيب سائر الناس.

قال: مثل ماذا؟

قلت: لعل أقرب مثال لذلك القطط.

قال: ما بها؟

قلت: فمع أنها من الطوافين علينا والطوافات[1]، إلا أن بعض الناس تصيبهم بالحساسية.

قال: أي أنهم يصيبهم التخبط كلما رأوا القطط.

قلت: ليست الرؤية وحدها.. هناك أشياء أخرى فقد أوردت وكالات الأنباء أن فريقا من الباحثين الفرنسيين نجح فى عزل الجين المسئول عن الحساسية التى تسببها القطط المترلية لأصحابها..

قال: ألهذه الدرجة تهتمون بهذا؟

---

(١) نص الحديث:« إنها ليست بنجس إنها من الطوافين عليكم والطوافات » رواه مالك وأحمد وابن حبان والترمذي، وقال: حسن صحيح.

قلت: وأكثر من ذلك.. فلبعض الناس ولع شديد بالقطط قد لا تساعدهم عليه الحساسية التي تصيبهم جراء احتكاكهم بها.

قال: فما الرقية التي وضعتموها لهذا؟

قلت: لا.. هذا ليس ميدان الرقاة.. ولكن الباحثين في الولايات المتحدة يسعون أن ينجزوا في المستقبل مشروعا للتكييف الجيني يهدف إلى إنتاج قطط خالية مما يثير الحساسية عند البعض ممن يواجهون مشاكل باقترابهم من القطط.

وقد تدخلت الشركات في هذه البحوث، حيث أن شركة ترانسجينيك بيتس، وهي شركة للتكنولوجيا الحيوية تعتزم بيع هذا النوع الجديد من القطط بأسعار تصل إلى ألف دولار للقط.

قال: دعنا من شذوذكم.. قل لي: كيف تؤثر القطط في الحساسية التي تصيب هؤلاء.. هل تدخل في هؤلاء الممسوسين بها؟

قلت: لا.. ــ يا معلم ــ بل هي بما فيها من روائح تسبب لهم تلك النوبات.

قال: فهل السبب منهم أم من القطط؟

قلت: منهم.. بدليل أن القطط من الطوافين علينا والطوافات، ومع ذلك لا يصيبنا منها شيء.

قال: فإذا أراد المريض أن يتجنب ما تثيره القطط فيه من حساسية ماذا يفعل؟

قلت: هناك حلان: إما أن يجتنبها تماما، وإما أن يستعمل من الأدوية ما يخفف أو يزيل تأثيرها عنه.

قال: فإذا صادف وأصيب أحد بنوبة حساسية جراء رؤيته لقط هل تستقدمون الرقاة ليقول له:(اخرج أيها القط)

قلت: نحن لا نفعل هذا.. بل نعطيه الأدوية التي تعيد له هدوءه.. ولكن ما علاقة هذا بما نحن فيه؟

قال: نفس المثال الذي ذكرته عن القطط ينطبق على المس الشيطاني.

قلت: كيف؟

قال: في بعض الناس أمراض عضوية، سنعرفها من الأطباء في هذا القسم.. وهذه الأمراض تجعل لهم حساسية تجاه وساوس معينة.

قلت: مثل ماذا؟

قال: كأن يخوفوا مثلا خوفا شديدا.. فإن ذلك الخوف يتسبب لهم في حصول هذه النوبات.

قلت: فالخوف هو الجنين المسؤول عن هذه الحالة؟

قلت: ليس وحده، فهناك جينات أخرى.. ولكنا نقتصر على مثال التخويف.. فهذا الذي يصرع لأجل الخوف لو لاقاه أي مخلوق وخوفه ألا تصيبه نوبة الصرع؟

قلت: أجل.. فهو لا يختلف عن الحساسية.. يظهر بظهور السبب، ويختفي باختفائه.. ولكن ما دور الشيطان في هذا؟

قال: الشيطان خبير ماهر بطبيعة من يوسوس له.. فإذا علم من قرينه هذا.. راح يوسوس له بالمخاوف إلى أن يتخبطه من المس، كما قال تعالى:﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران:١٧٥)

قلت: فأنت تفسر المس بالتخويف.

قال: التخويف بعض المس.. فمن الناس من لا يخاف.. ولكن يغضب، فيأتيه الشيطان.. وينفخ فيه من الوساوس ما يملؤه غضبا.. ألم تقرأ قوله ﷺ:(إنما الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ)[1]

قلت: بلى.. ولهذا سن لنا النبي ﷺ أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في هذه الحال، فعَنْ سليمان بن صرد ﷺ قال: كنت جالسا مع النبي ﷺ ورجلان يستبان، وأحدهما قد احمر وجهه وانتفخت أوداجه فقال رَسُول اللَّهِ ﷺ:(إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عَنْه ما يجد، لو قال أعوذ باللَّه مِنْ الشيطان الرجيم ذهب عَنْه ما يجد)، فقالوا له إن النبي ﷺ قال: تعوذ باللَّه مِنْ الشيطان الرجيم[2].

قال: فالشيطان يوسوس لكل الناس، كما أن القطط تخالط جميع الناس، ولكن بعض الناس لهم استعدادات معينة كالحساسية والصرع، فيصيبهما ما يصيب.

قلت: فأنت تقر أن للشيطان دورا.

قال: صحيح.. وما كان لي أن أخالف القرآن الكريم.. ولكن: أجبني إن حصلت الوساوس من الإنسان بأن كان هو المتسبب في التخويف أو الغضب، فلماذا ننسب الصرع حينها للشيطان؟

---

(١) أحمد وأبو داود عن عطية السعدي.

(٢) البخاري ومسلم.

قلت: ولكن القرآن الكريم ذكر الشيطان.

قال: ولكن القرآن الكريم لم يقصر الشيطان على إبليس، بل قال:﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْأِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾(الأنعام: من الآية١١٢)، وأمرنا بالاستعاذة منهم جميعا، فقال:﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾(الناس:١)إلى قوله تعالى:﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾(الناس:٦)

قلت: فما العلاج في رأيك؟

قال: علاجان: أحدهما لأهل الله يملؤون قلب الخائف طمأنينة، وغضبه سكينة، والآخر للأطباء يستأصلون مكامن الداء.. هو نفس علاجكم لوساوس القطط.. ألستم تعزلونها، أو تحاولون استنساخ السليم منها، أو تعالجون العليل بالمراهم، لا بأمر القطط بالخروج.

***

قلت: ولكن الأمر مخوف.

قال: لماذا؟

قلت: أخشى أن أخرج عن إجماع المفسرين، فهم يتفقون على أن المس يرتبط بالتخبط.

قال: هذا صحيح، وقد شرحنا ذلك.

قلت: والتخبط يكون عن دخول.. لا عن مجرد وسواس.. وهم يتشددون في المخالف لهذا ويرمونه بالبدعة، فقد قال القرطبي:(وفي هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن، وزعم أنه من فعل الطبائع، وأن الشيطان لا يسلك في الإنسان، ولا يكون منه مس)[1]

ويقول بن جزي الكلبي:(أجمع المفسرون أن المعنى لا يقومون من قبورهم في البعث إلا كالمجنون، ويتخبطه يتفعله من قولك: خبط يخبط، والمس: الجنون)[2]

ويقول محمد الطاهر بن عاشور:(والذي يتخبطه الشيطان هو المجنون الذي أصابه الصرع، فيضطرب به اضطرابات، ويسقط على الأرض إذا أراد القيام.. وإنما احتيج إلى زيادة قوله ﴿من المس﴾ ليظهر المراد من تخبط الشيطان، فلا يُظن أنه تخبط مجازي بمعنى الوسوسة)[3]

قال: فهل تترك ما فهمت إلى ما قالوا لمجرد خوفك أن تخرج عن قومك؟

قلت: صعب جدا أن يخالف المرء قومه.

---

(١) القرطبي:٣/٣٥٥، وانظر نفس القول في تفسير الشوكاني:١/٢٩٥.

(٢) ابن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل: ١/٩٤.

(٣) التحرير والتنوير: ٣/٨٢.

قال: فمن قومك من ذهبوا إلى ما فهمت واقتنعت.. واسمع لهذا المتخصص في آراء الرجال يخبرك ويخبر هؤلاء المرضى المساكين الذين حرف لهم كلام ربهم بكلام الرجال.

دخل رجل القاعة، وبمجرد دخوله بادره المرضى يقولون: نخشى أن نخالف الإجماع.

قال لهم بنبرة الواثق: ومن قال بالإجماع حتى تخالفوه؟

قالوا: أقوامنا.

قال: أليس القفال، والبيضاوي وأبو السعود، ومحمود شلتوت، وطنطاوي جوهري وأحمد مصطفى المراغي، ومحمد الغزالي من أقوامكم؟

قالوا: بلى.. بل هم من خيارنا.. وبنو خيارنا.

قال: فهم، وغيرهم كثير يقولون بهذا.

فهذا محمود شلتوت يقول:(ليس للجن مع الإنسان شيء وراء الدعوة والوعد والوسوسة والإغراء والتزيين)[1].. وهو ينفي أن تكون للجن مقدرة على أن يلبس جسم الإنسان، فينطق على لسانه، ويتحرك الإنسان بحركته وقال:(هذا من أوهام الناس، ومصدره خارج عن المصادر الشرعية، ذات القطع واليقين)

وهذا محمد الغزالي، فقد ذهب إلى أن عداوة الشيطان للإنسان لا تعدو سوى الوسواس والخداع والاستغفال، وأنكر تلبس الجن بالإنسان، واعتبر هذا الاعتقاد من الأوهام والخرافات التي شاعت بين الناس[2].

وغيرهم كثير..

قال أحد المرضى: ولكن أحمد بن حنبل ونعله.

قال: ما تقصد؟

قال المريض: لقد جاء في طبقات الحنابلة.. وآكام المرجان في أحكام الجان.. ولقط المرجان في أحكام الجان.. و.... الجان

قال العالم: ووساوس الشيطان في أحكام الجان.. قل قولك ولا تبالغ في التوثيق.

قال المريض: هم يقولون لنا هذا.

قال: ليملأوا قلوبكم رعبا.

---

(١) الفتاوى، دار الشروق، الطبعة العاشرة ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ص ٢٤.

(٢) انظر كتابه: السنة النبوية بين أهل الفقه والحديث، دار الشروق -القاهرة، بيروت- الطبعة الرابعة ١٩٨٩م ص٩٣.

قال المريض: رووا أن أحمد بن حنبل ﷺ كان يجلس في مسجده، فأنفذ إليه الخليفة العباس المتوكل صاحباً له يعلمه أن جارية بها صرع، وسأله أن يدعو الله لها بالعافية، فأخرج له أحمد نعلي خشب بشراك من خوص للوضوء فدفعه إلى صاحب له، وقال له: امض إلى دار أمير المؤمنين وتجلس عند رأس الجارية وتقول له، يعني الجن: قال لك أحمد: أيما أحب إليك تخرج من هذه الجارية أو تصفع بهذه النعل سبعين.

فمضى إليه، وقال له مثل ما قال الإمام أحمد، فقال له المارد على لسان الجارية: السمع والطاعة، لو أمرنا أحمد أن لا نقيم بالعراق ما أقمنا به، إنه أطاع الله، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء، وخرج من الجارية وهدأت ورزقت أولاداً، فلما مات أحمد عاودها المارد، فأنفذ المتوكل إلى صاحبه أبي بكر المروذي وعرفه الحال، فأخذ المروذي النعل ومضى إلى الجارية، فكلمه العفريت على لسانها: لا أخرج من هذه الجارية ولا أطيعك ولا أقبل منك، أحمد بن حنبل أطاع الله، فأمرنا بطاعته.

ضحك العالم وقال: لا شك أن هذه الرواية من اختلاق المتعصبين للإمام أحمد، فقد كان أورع من ذلك.

قال المريض: كيف هذا.. وقد رويت في تلك المصادر.

قال العالم: الإسناد المظلم يبقى مظلما، ولو طبعوه في نسخة واحدة مع القرآن الكريم.

قال المريض: وكيف ترد هذا؟

قال: أما الأول، فما فائدة النعل؟.. ألم يكن في إمكانه أن يدعو الله لها في مكانه؟

والثاني: هل كان أبو بكر المروذي من الغباء بحيث يحمل نعل ابن حنبل.. فهل كانت النعل هي الشافية؟!..

ثم إن هؤلاء ينكرون التبرك بآثار الصالحين، فكيف يتبركون بنعل ابن حنبل؟!..

ثم ألم يكن في الدنيا جميعا من الصالحين إلا الحنابلة، بحيث لم يجد المتوكل إلا أبي بكر المروذي الذي هو تلميذ ابن حنبل؟

ومع ذلك.. فإني أرى أن للقصة أصلا صحيحا.

قال المريض: كيف هذا، وقد فندها بهذه الوجوه؟

قال: لقد فطن ابن حنبل إلى أن الجارية ربما كانت تتلاعب بذلك التصرف.. فلذلك اكتفى بإخافتها لترتدع..

ثم بعد هذا: من روى هذه القصة: هل مالك في الموطأ، أم البخاري في الصحيح؟

قال المريض: لا هذا ولا ذاك، فهذه الرواية ليست حديثا.

قال: فهل ادعى أحمد في يوم من الأيام أنه رسول مشرع؟

قال المريض: لا ... كان أروع من ذلك.

قال: فهل تدعون له العصمة؟

قال المريض: نحن لا نقول بعصمة الأئمة.

قال: فهل كان أحمد أو من عاصره راقيا يجلس الناس إليه كما يجلسون إلى رقاتكم؟

قال المريض: ما في مسنده، وما رواه عنه تلاميذه لا يدل على هذا.

قال: فلماذا تزجون بهذا الإمام العظيم في هذه المتاهات؟

قال مريض آخر: هم يروون أيضا مثل هذا عن ابن تيمية.

قال: لقد كان عالما صالحا.. فما قال؟

قال المريض: لقد قال:(إن دخول الجني بدن الإنس، وتكلمه على لسانه بأنواع الكلام وغير ذلك أمر قد علمه كثير من الناس بالضرورة..)[1]

بل قد عالج ابن تيمية الإنسان المصروع بسبب الجني مرات كثيرة، وحدَّث عن نفسه في ذلك فقال:(كما قد فعلنا نحن هذا وجربناه مرات كثيرة يطول وصفها بحضرة خلق كثيرين)[2]

قال: لقد كان ابن تيمية متأثرا بالحنابلة لهذا قال ما قال، ولو أنه طبق المقاييس التي دافع عليها في كتبه ورسائله، وتعرض بسببها لما تعرض لما قال بهذا.

قلت: وما مقاييسه؟

قال: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدي السلف الصالح ﷺ.. فهي وحدها مصادر التشريع.. أما آراء الرجال، فتبقى آراء قد تؤخذ وقد ترفض.. بل يجب رفضها إن خالفت النصوص.

تركنا الرجل يتحدث مع المرضى، وهم يذكرون له ما قيل، فيرد أو يصحح أو يدافع.. قال لي المعلم: دعنا من الرجال.. ولنذهب إلى سيد الرجال.

قلت: تقصد سيد الأولين والآخرين محمدا ﷺ.

قال: أجل.

قلت: أنخرج الآن من المستشفى لنزور المدينة المنورة.

---

(١) الرد على المنطقيين ص ٤٠٧.

(٢) مجموع الفتاوى: ٦٠/١٩.

قال: رسول الله ﷺ أعظم شأنا من أن ينحصر في المدينة المنورة.

قلت: فأين نذهب إذن؟

قال: إلى سنته.. ألم يأمر الله بالرد إلى رسول الله عند التنازع؟

قلت: بلى.

قال: فلنترك آراء الرجال، ولنذهب إلى السنة.

قال المعلم: أقرأت الأصول الكبرى للسنة.

قلت: وكيف لا أقرؤها، وهي أصول الإسلام.. ولكني لا أكتمك بأني اكتفيت منها بالمصادر الصحيحة أو السنن، أما المعاجم وغيرها، فقد اكتفيت منها بما كتب النقلة عنهم.

قال: ففي تلك المصادر توجد أبواب خاصة بالرقى.

قلت: أجل.. توجد أبواب خاصة بالطب والرقى.. وهي تختلف في تصنيفها باختلاف المصنفين.

قال: فهل تجد الرقية من العين؟

قلت: أجل.. العلماء ينقلون التفاصيل المرتبطة بذلك، فالنبي ﷺ تحدث عن العين وبين خطرها، وعلمنا كيف نستعيذ منها.

قال: وقد أثبت المحدثون ذلك في تلك الأبواب؟

قلت: أجل.

قال: فهل فيها حديث واحد فيه الرقية من الجن، وكيفيتها؟

قلت: لا أذكر أني قرأت حديثا في هذا المعنى.

قال: بل لم تقرأ.. فلا يوجد نص فيما يمارسه قومك من أنواع الشعوذة.. ولم يرد نص صحيح واحد يخبر بما يدعيه الرقاة من استعمار الجني للإنسي.

قلت: ولكن العين تختلف عن المس؟

قال: ما الفرق بين أذى العين، وأذى الجن؟ أليس كلاهما أذى؟..

قلت: أجل.. هذا صحيح، بل إن قومي يزعمون أن العين بسبب الجن.. والمس على كل حال أخطر من العين.

قال: وأزيدك شيئا آخر.. ألم تسمع حديث المرأة التي تصرع؟

قلت: المرأة التي روى حديثها عطاء بن أبي رباح؟

قال: أجل.

قلت: لقد قال: قال لي ابن عباس ﷺ:(ألا أريك امرأة مِنْ أهل الجنة؟ فقلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع اللّه تعالى لي. قال:(إن

شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت اللّه تعالى أن يعافيك)، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع اللّه أن لا أتكشف، فدعا لها[1].

قال: في هذا الحديث دليل على أن الصرع مرض من الأمراض التي يجازى الصابر عليها.. وليس مرضا شيطانيا كما يزعمون.

قلت: إنهم يستدلون به على عكس ذلك، فقد ذكر ابن حجر العسقلاني عدة طرق لهذا الحديث ثم قال:(وقد يؤخذ من الطرق التي أوردتها أن الذي كان بأم زفر كان من صرع الجن لا من صرع الخلط)[2]، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب وابن الأثير في أسد الغابة في ترجمة أم زفر أنها هي التي كان بها مس من الجن[3]، وقال ابن القيم:(ويجوز أن صرع هذه المرأة السوداء من جهة الأرواح الخبيثة)[4]

قال: لا.. هذا تحريف خطير للحديث.. فأين ذكر الشياطين هنا، لقد طلبت المرأة الدعاء، ولم تطلب الرقية، وقد كان التفريق بينهما مشهورا لا شك في ذلك بدليل ما سنعرفه من نصوص، فقد ذكرت فيها الرقية بكونها مرخص فيها بخلاف الدعاء الذي هو عبادة من العبادات.

ثم إن الرسول ﷺ أرشدها إلى الصبر، ولا نرى أن رسول الله ﷺ يتركها للشيطان يسيمها سوء العذاب.

***

بينما نحن كذلك إذ دخل رجل مهيب يظهر عليه وقار السنة، كان يشبه الإمام مالك في تعظيمه للسنة، وكانت الروائح العطرة تفوح منه، قلت للمعلم: لا شك أن هذا هو الإمام مالك ؓ، فقد اشتهر بين العلماء بتعظيم الحديث، وقد كان مجلسه لذلك مجلس وقار وحلم وعلم.

قال: لا.. هذا عالم من علماء الحديث..

قلت: فلم جاء هنا؟

قال: ليجيب عن الشبهات التي امتلأت بها نفوس هؤلاء المرضى.

---

(١) البخاري.

(٢) فتح الباري: ١١٥/١٠.

(٣) انظر ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ٣٣٣/٦.

(٤) زاد المعاد:١٨١/٣.

سأل بعض الحاضرين هذا العالم، فقال: ولكنهم يروون في هذا أحاديث، وقد عرفناك معظما لها.

قال المحدث: وما يروون؟ إني أتحدى أي واحد منهم محدثا كان أو فقيها أن يأتيني بحديث واحد يبرهن على ما يأتونه من الدجل.

ارتعد القلم في يدي، وأنا أسمع تحديه، فتوقفت عن الكتابة، فقال لي:(ما بالك؟، ألم نتفق على كتابة كل ما يقال؟

قلت: ولكن التحدي صعب.

قال: ولكنا لا نتحدى لنظهر عجز غيرنا، وإنما نتحدى لطلب الحق ونصرة الحق، وقد قال تعالى متحديا بني إسرئيل:﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرائيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(آل عمران:٩٣)

قال أحد الحاضرين: لا.. يا شيخ، فقد رووا في الباب أحاديث.

قال المحدث: فما رووا؟

الحديث الأول:

قال: ما رواه البخاري ومسلم وأبو داود عن صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته، ثم قمت لأنقلب، فقام ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ:(على رسلكما، إنها صفية بنت حيي)، فقالا:(سبحان الله يا رسول الله!) فقال ﷺ:(إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً، أو شيئاً)

فقد استدل بهذا الحديث على قدرة الجن سلوك بدن الإنسان جماعة من العلماء منهم القرطبي في تفسيره[١]، وابن تيمية في فتاواه[٢]،وابن حجر الهيثمي وردَّ به على المعتزلة منكري ذلك[٣]، والبقاعي في تفسيره[٤]، وابن حجر العسقلاني في بذل الماعون[٥]، والعلامة موفق الدين بن عبد اللطيف البغدادي[٦]، والقاسمي في تفسيره[١] و....

(١) انظر تفسير القرطبي ٥٠/٢.
(٢) انظر مجموع الفتاوى ٢٧٧/٢٤
(٣) انظر الفتاوى الحديثية: ٧٢.
(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:٥٣١/١.
(٥) بذل الماعون في فضل الطاعون: ٨٣.
(٦) الطب من الكتاب والسنة: ٢٣١.

قال المحدث: هذا حديث صحيح لا شك فيه.. ولا علاقة له بهذا.

قال: كيف؟.. وكل هؤلاء استدلوا به.

قال المحدث: أليس معك عقلك.. وهو لا يختلف عن عقول الذين استدلوا به؟

قال: بلى..

قال المحدث: لقد ذكر النبي ﷺ أن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم.. فهل الإنسان إنسان مخصوص، أم كل الناس؟

قال: بل كل الناس.

قال المحدث: وهل ذلك خاص بوقت من الأوقات؟

قال: نص الحديث يدل على عدم الخصوص.. أي أنه يجري دائما.

قال المحدث: وهل يجوز التخصيص بدون مخصص؟

قال: لا..

قال المحدث: فلم يخصصون المصروع بدخول الشيطان إليه وحده من دون سائر الناس.

قال: فما تقول في هذا الحديث؟

قال المحدث: هذا الحديث يذكر قرب الشيطان من الإنسان وسرعة تأثيره فيه بدليل قوله:(وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً، أو شيئاً)

قال: فأنت تؤول الحديث إذن، أو تنفيه، أو تقول بما قال من استدل بقول الشاعر:

وقد كنت أجري في حشاهن مرة كجري معين الماء في قصب الآس

قال المحدث: أنا لا أقول بكل هذا.. بل إن لي نزعة ظاهرية مع النصوص، ولكني أرفض أن يحمل القائل غير ما أراده، فكيف إذا كان القائل هو المعصوم ﷺ.. ثم لماذا لم يهرع ﷺ لهؤلاء الذي خشي عليهم من الشيطان يرقيهم.. بل اكتفى بما يبعد الوساوس عنهم؟!

الحديث الثاني:

قال آخر: فقد روى ابن ماجه وابن أبي عاصم وغيرهما عن عثمان بن أبي العاص قال: لما استعملني رسول الله ﷺ على الطائف جعل يعرض لي شيء في صلاتي حتى ما أدري ما أصلي، فلما رأيت ذلك رحلت إلى رسول الله ﷺ، فقال: ابن العاص؟ قلت نعم يا رسول الله، قال: ما جاء بك؟ قلت: يا رسول الله عرض لي شيء في صلاتي حتى ما أدري ما أصلي، قال: ذاك الشيطان، أدنه، قال: فدنوت منه، فجلست على صدور قدمي، قال: فضرب صدري بيده وتفل

---

(١) محاسن التأويل ٣/٣٦٠.

في فمي، وقال: اخرج عدو الله، ففعل ذلك ثلاث مرات، ثم قال: الحق بعملك، فقال عثمان: فلعمري ما أحسبه خالطني.

فالحديث صحيح الإسناد، فرجاله ثقات وإسناده صحيح، كما قال البوصيري[1]، وصححه الحاكم في المستدرك، ومحمد ناصر الدين الألباني[2]، ودلالة الحديث على تلبس الجن بالإنسان ظاهرة، فقوله ﷺ:(اخرج عدو الله) تدل على وجود الشيطان داخل بدن الإنسان، فلذا أَمَرَه ﷺ بالخروج منه.

قال المحدث: مع أن الحديث فيه مقال من جهة السند.

قال: لا.. ليس فيه أي مقال.

قال المحدث: انفراد ابن ماجة به يجعل فيه ألف مقال.. ثم إن صحة السند وحدها لا تكفي.. فقد يكون الحديث معلولا.. وما فيه من العلل هو الذي صرف كبار المحدثين ممن التزموا الصحة أو الحسن عن قبوله.

قال:.. !؟

قاطعه، وقال: لا.. لن أناقشك في هذا الباب، ولكني أسألك: لقد مات رسول الله ﷺ كما قال تعالى:﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾(الزمر:٣٠).. ولا يزال يعترينا ما اعترى هذا الرجل من الوساوس في الصلاة.. فلمن نلجأ؟ وهل ترضون أن يتفل هؤلاء الرقاة في أفواهكم ليبعدوا عنكم وساوس الشياطين؟.. ومن من الرقاة يفعل هذا مع أنه هو الوارد عن رسول الله ﷺ على حسب ما تذكرون؟.. وهل انتفت الوساوس عن هذا الرجل بهذا، وصار من الخاشعين.. وبذلك يصير الخشوع شيئا سهلا، لن نحتاج فيه إلى أي مجاهدة، بل يكفي أن يبصق في أفواهنا الصالحون والرقاة لنصير ربانيين خاشعين.. وبذلك نضمن الفردوس الأعلى من غير أ ي مجاهدة.

قال: فما تقول؟

قال المحدث: لقد أخبر القرآن الكريم بأن المحل الذي يوسوس فيه الشيطان هو صدور الناس، كما قال تعالى عنه:﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾(الناس:٥)، وكما ورد في الحديث:(إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس)[3]

---

(١) مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة:٣٦/٤.

(٢) انظر سلسة الأحاديث الصحيحة:٢٧٣/٢.

(٣) أخرجه الموصلي.

فلذلك ــ إن صح الحديث ــ فقد زجر رسول الله ﷺ الشيطان عن صدره ليكف عن وسوسته.. ولكن ذلك مرتبط بحالة معينة، وفي وقت معين.. لأن الشيطان لا ييأس من ابن آدم.. وإلا فأجبني: هل صار عثمان بن أبي العاص معصوما بما فعل معه رسول الله ﷺ؟

قال: لم يكن العشرة المبشرون بالجنة معصومين فكيف بهذا، وقد وفد على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف.

قال المحدث: فقد أجبتني.. لقد كان ــ كما يقول المؤرخون ــ حدثا، وأسلم عام أسلمت ثقيف، أي في آخر حياة رسول الله ﷺ.. أي أنه ــ بموقفه هذا ولجوئه إلى رسول الله ﷺ لأجل هذا ــ لم يكن يعلم بما حض عليه الشرع في هذا الباب من الاكتفاء بالاستعاذة وذكر الله، كما قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾(لأعراف:٢٠١).. وإلا، فكيف لم يصدر هذا من الصحابة الكبار.. بل والصغار !؟

قال: فما تقول في ضرب رسول الله ﷺ يده على صدره.. أليس ذلك من السنة؟

قال المحدث: لا.. لقد نبع الماء من بين أصابعه ﷺ، فهل كان ذلك من السنة.

قال: تلك معجزة له ﷺ.

قال المحدث: فقد وضع رسول الله ﷺ يده على الجذع لما حن فسكن، وأمسك بلسان بعض المنافقين، ودعا له فأصبح مؤمنا، كما في حديث حرملة بن زيد الأنصاري حين جلس بين يديه، وقال: يا رسول الله، الإيمان هاهنا، وأشار بيده إلى لسانه، والنفاق هاهنا، ووضع يده على صدره، ولا نذكر الله إلا قليلاً، فسكت رسول الله ﷺ، وردد ذلك حرملة، فأخذ رسول الله ﷺ لسان حرملة، وقال:(اللهم اجعل له لساناً صادقاً وقلباً شاكراً وارزقه حبي وحب من أحبني، وصير أمره إلى خير)، فقال له حرملة: يا رسول الله، إن لي إخواناً منافقين، وكنت رأساً فيهم، أفلا أدلك عليهم، فقال رسول الله:(من جاءنا كما جئتنا استغفرنا له كما استغفرنا لك، ومن أصر على ذلك فالله أولى به، ولا تخرق على أحد ستر)[1]

الحديث الثالث:

قال آخر: فقد روى أحمد وأبو داود والنسائي والطبراني والحاكم عن أبي اليسر كعب بن عمرو السَّلمي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول:(اللهم إني أعوذ بك من التردي والهدم، والغرق والحريق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً وأعوذ بك أن أموت لديغاً)

---

(١) ابن منده وأبو نعيم.

والحديث صحيح الإسناد، صححه الحاكم ووافقه الذهبي[1]، والألباني[2] وقال الشيخ عبد القادر الأرناؤوط: وإسناده حسن[3]

قال المحدث: فما موضع الاستدلال في هذا الحديث؟

قال: قوله ﷺ:(أن يتخبطني الشيطان عند الموت)، ففيه دلالة واضحة على المس الحقيقي.. وقد استدل بهذا الحديث على إثبات صرع الشيطان للإنسان غير واحد من أهل العلم[4].

قال المحدث: فهل كان ﷺ يخاف أن يصيبه الصرع عند الموت، فلهذا استعاذ بالله من ذلك؟

قال: معاذ الله.. فرسول الله ﷺ أعظم شأنا من أن يتسلط عليه الشيطان.

قال المحدث: فما وجه استدلالهم بالحديث؟

قال: هم يستدلون بقوله:(يتخبط)

قال المحدث: ولكن رسول الله ﷺ قال:(يتخبطني)، و لم يقل:(يتخبط)، فلم يحرفون الكلم عن مواضعه؟

قال: لقد ذكر رسول الله ﷺ ذلك لنذكره نحن.. ومنه استغفاره ﷺ مع عصمته، ومع أن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال المحدث: فلم خص رسول الله ﷺ الموت بالاستعاذة من تخبطه.. وهل يخاف الإنسان على صحته وهو مقبل على الموت؟

قال: فما تقول أنت؟

قال المحدث: التخبط الذي يريده ﷺ في هذا الحديث هو الوساوس التي يلقيها في قلب الإنسان..

قاطعه، وقال: فلماذا لم يستعذ من الوساوس مطلقا.. و لم خص ذلك بالموت؟

قال المحدث: لأن الشيطان يدخر أعظم وساوسه للحظة الموت، ولهذا كان ﷺ يسأل الله حسن الخاتمة..

---

(١) المستدرك ٧١٣/١.

(٢) صحيح الجامع الصغير وزياداته: ٢٧٥/١.

(٣) هامش جامع الأصول ٣٦١/٤.

(٤) انظر تفسير القرطبي ٣٥٥/٣، فتح القدير للشوكاني ٢٩٥/١، برهان الشرع ص ١٢٩، وحيد الدين بالي: وقاية الإنسان من الجن والشيطان، دار البشير -القاهرة- ص ٦١.

وقد ورد في الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول اللّه ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع:(باسم اللّه، أعوذ بكلمات اللّه التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون)[1] " قال: فكان عبد اللّه بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه.

و لم يكن السلف ﷺ يخافون شيئا كما يخافون سوء الخاتمة، وكان سهل ﷺ يقول:(خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة)

ولما احتضر سفيان ﷺ جعل يبكي، ويجزع، فقيل له: يا أبا عبد الله عليك بالرجاء، فإن عفو الله أعظم من ذنوبك، فقال:(أو على ذنوبي أبكي لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا)

قال:..؟!

قال المحدث: وأزيدك شيئا آخر: إن هذا الحديث الذي ذكرت تصحيحه يفسر معنى التخبط في الآية من غير أن نضطر لتأويلها.

قال: كيف؟

قال المحدث: التخبط لا يعني فقط ما نراه من المصروع من حركات.. بل قد يكون الإنسان هادئا سليم الجسم.. ومع ذلك فإنه يتخبط من داخله بالوساوس.. وهذا الحديث يشير إلى هذا المعنى.

قال: كيف؟

قال المحدث: لقد ذكر ﷺ التخبط وربطه بالموت، ولا نرى في العادة المحتضر ـــ سواء كان صالحا أو غير صالح ـــ إلا هادئا ساكنا لضعفه الشديد عن أي حركة.. فالتخبط في ذلك الحين ليس تخبط الحركات، وإنما تخبط الوساوس.

الحديث الرابع:

قال آخر: فقد روى أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبَّر، ثم يقول:(سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك)، ثم يقول: الله أكبر كبيراً ثم يقول:(أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه، ونفخه ونفثه)

---

(١) أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن غريب.

قال المحدث: فما محل الشاهد من الحديث؟

قال: استعاذته ﷺ من همز الشيطان، فقد قال أهل اللغة: نفثه: الشعر، ونفخه: الكبر، وهمزه: الموتة، قال ابن الأثير: والموتة: الجنون، لأن المجنون ينخسه الشيطان، والهمز والنخس أخوان[1]، وقال ابن كثير:(فهمزه الموتة، وهو الخنق الذي هو الصرع)[2]

قال المحدث: إن أصل الهمز في اللغة هو الغَمْزُ ، والضَّغْطُ ، والنَّخْسُ ، والدَّفْعُ ، والضَّرْبُ ، وهذه جميعا فسرت في النصوص بالوساوس، ولا حرج عليها بعد ذلك إذا فعلت ما فعلت في صاحبها المستعد لتقبلها.

.. ثم هل تتصورون أن رسول الله ﷺ ـــ وهو يقوم الليل خاشعا منيبا ـــ يلتفت إلى ما تلتفتون إليه من المخاوف؟

الحديث الخامس:

قال الخامس: روى أحمد والطبراني وابن عبد البر وغيرهم عن يعلى بن مرة ؓ قال:(لقد رأيت من رسول الله ﷺ ثلاثاً ما رآها أحد قبلي ولا يراها أحد بعدي، لقد خرجت معه في سفر حتى إذا كنا ببعض الطريق مررنا بامرأة جالسة معها صبي لها، فقالت يا رسول الله هذا صبي أصابه بلاء وأصابنا منه بلاء، يؤخذ في اليوم ما أدري كم مرة، قال: ناولينه، فرفعته إليه، فجعلته بينه وبين واسطة الرَّحل ثم فغر فاه فنفث فيه ثلاثاً، وقال: بسم الله، أنا عبد الله، اخسأ عدو الله، ثم ناولها إياه، فقال: ألقينا في الرجعة في هذا المكان فأخبرينا ما فعل، قال: فذهبنا، ورجعنا، فوجدناها في ذلك المكان معها شياه ثلاث، فقال ﷺ: ما فعل صبيك؟ فقالت: والذي بعثك بالحق ما حسسنا منه شيئاً حتى الساعة، فاجترر هذه الغنم، قال: انزل فخذ منها واحدة ورُدَّ البقية)

والحديث صحيح الإسناد، وقد ذكر الحافظ ابن كثير عدة طرق لهذا الحديث، ثم قال:(فهذه طرق جيدة متعددة، تفيد غلبة الظن أو القطع عند المتبحرين أن يعلى بن مرة حدّث بهذه القصة في الجملة)[3]

قال المحدث: فما وجه الاستدلال بالحديث؟

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٧٣/٥، جامع الأصول ١٨٦/٤.

(٢) البداية والنهاية: ٦١/١.

(٣) البداية والنهاية: ١٣٩/٦-١٤٠.

قال: هذا الحديث هو الحجة الكبرى في هذا الباب، بل هو حديث هذا الباب، ووجه الدلالة في الحديث واضحة، فقول الراوي:(ثم فغر فاه، فنفث فيه ثلاثاً)، ثم قوله ﷺ:(بسم الله، أنا عبد الله، اخسأ عدو الله) دليل على أن الصبي كان يعاني المسّ الشيطاني الذي سبب له بلاء وغماً.

قال المحدث: سنبدأ مناقشة الحديث من مبدئه.. لقد ذكر يعلى بن مرة ثلاثة أمور اختص برؤيتها.. أتستطيع ذكرها لي؟

قال: لقد وردت في الحديث.. أما الأولى، فهي ما ذكره، وأما الثانية، فقال: وخرجت ذات يوم إلى الجنان، حتى إذا أبرز قال:(انظر ويحك هل ترى شيئا يواريني؟) قلت:(ما أرى إلا شجرة، ما أراها تواريك)، قال:(فما قربها؟) قلت:(شجرة مثلها أو قريب منها) قال:(اذهب إليهما، فقل أن رسول الله ﷺ يأمركما أن تجتمعا بإذن الله)، قال: فاجتمعتا، فبرز لحاجته، ثم رجع، قال: اذهب إليهما فقل: إن رسول الله ﷺ يأمركما أن ترجع كل واحدة منكما إلى مكانها، فرجعت.

قال المحدث: وما الثالثة؟

قال: ما ذكره بقوله: وكنت معه جالسا ذات يوم، إذ جاء جمل يخبب حتى ضرب بجرانه بين يديه، ثم ذرفت عيناه، فقال:(ويحك انظر لمن هذا الجمل، إن له لشأنا)، فخرجت ألتمس صاحبه، فوجدته لرجل من الأنصار، فدعوته إليه، فقال:(ما شأن جملك هذا؟) قال:(وما شأنه؟) قال:(لا أدري والله ما شأنه، عملنا عليه ونضحنا عليه حتى عجز عن السقاية فأتمرنا البارحة أن ننحره ونقسم لحمه) قال:(لا تفعل، هبه لي، أو بعنيه) قال:(بل هو لك يا رسول الله) قال: فوسمه بميسم الصدقة، ثم بعث به.

وفي رواية أنه قال لصاحب البعير:(البعير يشكوك زعم أنك سناته حتى كبر تريد أن تنحره) قال:(صدقت والذي بعثك بالحق قد أردت ذلك والذي بعثك بالحق لا أفعل)

وفي رواية:(ثم سرنا ونزلنا منزلا فنام النبي ﷺ فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيته، ثم رجعت إلى مكانها، فلما استيقظ ذكرت له، فقال:(هي شجرة استأذنت ربها عز وجل أن تسلم على رسول الله ﷺ فأذن لها)

قال المحدث: أترى كل هذه المعجزات التي ذكرها تمر على صحابة رسول الله ﷺ ولا أحد يهتم بها أو يرويها ما عدا يعلى بن مرة، ثم يرويها ولا يهتم لها التابعون، ولا من بعدهم.. ولا أئمة الحديث الذين التقطوا أقل شيء مما يتعلق بدلائل النبوة..

قال: ولكن السند صحيح؟

قال المحدث: ليس كل سند صحيح يقبل، فلولا أن في الحديث عللا لذكره الذين اهتموا بالصحيح.. ألا تعلم عدد الذين رووا نبع الماء بين أصابعه الشريفة؟

قال: بلغوا مبلغ التواتر.

قال المحدث: وأحاديث انشقاق القمر؟

قلت: كذلك.. هي أحاديث متواترة.

قال المحدث: حتى حنين الجذع ــ مع كونه أقل بكثير مما ذكرت ــ إلا أنه روي بالتواتر.

قال: لا يشترط التواتر لصحة الأحاديث.

قال المحدث: أنا لا أشترط التواتر لصحة الأحاديث، ولكني أعجب أن يمر هذا الحديث على الصيارفة، ثم لا يروونه مع كون الحاجة إليه ماسة..

قال: ولكن مع ذلك..

قال المحدث: نحن في مستشفى السلام نكره الجدل.. فلذلك سأسلم لك جدلا بأن الحديث صحيح ومقبول، بل ومتواتر.. في أي محل يورد هذا الحديث: هل في باب دلائل النبوة أم في باب الرقى؟

قال: هم يوردونه في باب الدلائل.

قال المحدث: ولماذا يطبقونه في باب الرقى.. أيزعمون لأنفسهم ما كان لرسول الله ﷺ من النبوة؟

قال: حاشا لله.

قال المحدث: فهل قال رسول الله ﷺ:(إذا رأيتم صبيا حصل له ما حصل لهذا، فافعلوا مثلما فعلت)؟

قال: لا يشترط أن يقول هذا.

قال المحدث: ولكنه قال مثله في الصلاة والحج.. طلب منهم أن يقلدوه في أفعاله.

قال:....؟!

قال المحدث: لا بأس.. سأسلم جدلا بأن هذا من السنة التي يمكن العمل بها.. ما فعل رسول الله ﷺ مع الصبي؟

قال: فغر فاه فنفث فيه ثلاثاً، وقال: بسم الله، أنا عبد الله، اخسأ عدو الله، ثم ناولها إياه.

قال المحدث: أهذا كل ما فعله؟

قال: هذا ما ورد به النص.

قال المحدث: فكيف عرف رسول الله ﷺ أن ما به من الشيطان؟

قال: هو رسول الله، فكيف لا يعرف؟

قال المحدث: فهل رقاتكم رسل لله يميزون بين الشياطين وغيرهم؟

قال:....؟!

قال المحدث: فهل حاور رسول الله ﷺ هذا الشيطان؟!.. وهل دعاه إلى الإسلام؟!.. وهل أجرى مسامرة معه كالمسامرات التي تجرونها؟!

قال: هم يستدلون بهذا على جواز استعمار الشيطان للإنسان.

قال المحدث: لقد قال ﷺ في الحديث: اخسأ عدو الله.. فمن قال بأن هذا العدو هو الشيطان، ومن قال بأن (اخسأ) تدل على الدخول.

قال: يمكن أن يقال ذلك.

قال المحدث: لا بأس.. سأسلم جدلا بصحة ذلك.. لقد تفل رسول الله ﷺ في عيون بعض الصحابة فبرئت، فلماذا لا تفتحون عيادات للعيون يعالج بها رقاتكم العيون المريضة بالبصاق؟

قال: ولكن ذلك من دلائل النبوة.. لا من الرقية.

قال المحدث: ولكن كلا الحديثين يوضعان في دلائل النبوة.. فكيف جوزتم العمل بأحدهما وخصصتم الآخر؟

قال:....؟!

قال المحدث: الصحابة أحيوا سنة رسول الله ﷺ.. فمن من الصحابة ﷺ فتح عيادة يخرج فيها الجان؟

قال: لا يشترط أن يذكر هذا.

قال المحدث: أنتم تشترطونه، فمع أنه ﷺ قال:(ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)[1]، وظاهر الحديث يدل على جواز القراءة جماعة إلا أنكم تنكرون العمل بذلك، بل وتعتبرونه بدعة بحجة أنه لم يؤثر عن السلف العمل به.

سكت قليلا، ثم قال: فماذا تقول أنت في هذا الحديث؟

---

(١) أبو داود عن أبي هريرة.

قال المحدث: أنا يراودني شك كبير في مدى صحة الحديث.. بل إن فيه من الغرابة ما يحيل صحته، فرسول الله ﷺ الذي لم ترو عنه الخوارق إلا في مواضع محددة، وللمصلحة العامة تتحرك له الأشجار لأجل ستره في قضاء الحاجة.. ثم لا يكون هو الآمر، بل يكلف صاحبه بأن يأمر الأشجار بالتقدم والتأخر؟!

ورسول الله ﷺ الذي قال له ربه:﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنعام: من الآية٩٠)، وقال له:﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾(الشورى: من الآية٢٣) كيف يقبل من المرأة عرضها عليه ما عرضت.

وما لم أستطع فهمه هو البعير الذي لا يشكو المجاعة، ولكن يشكو هم أهله بذبحه، ونهيه لهم ﷺ عن ذبحه.. أذبح البعير بعد انتهاء العمل به جريمة؟.. أو من السنة أن لا يذبح، وماذا يفعل به في ذلك الحين؟

قال:....؟!

قال المحدث: أتدري ما الذي رغب رواتكم في هذا الحديث.. فحفظوه عن ظهر قلب؟

قال: ما هو؟

قال: قول المرأة، وهي تشير إلى غنمها:(انزل فخذ منها واحدة، ورُدَّ البقية)[1].. فلولا هذا الكلمة ما عبئوا بالحديث كما لم يعبأوا بغيره.

(١) وفي رواية:: فبرأ، فأهدت له كبشين وشيئا من إقط وسمن، فقال رسول الله ﷺ:« يا يعلى خذ الإقط والسمن، وخذ أحد الكبشين ورد عليها الآخر »

تركنا المحدث مع أولئك المرضى يناقشهم ويناقشونه.. وسرت مع المعلم إلى محل آخر لعلاج هؤلاء المرضى الذين تلاعب بهم الرقاة، قلت للمعلم: إلى أين نذهب الآن؟

قال: إلى الخبراء.. ألم يكن رسول الله ﷺ تصيبه الأمراض، فيسأل عنها الأطباء.

قلت: بلى، وقد قال:(أنتم أعلم بأمور دنياكم)[1]

قال: فهؤلاء الأطباء والخبراء الذين شرحوا الإنسان عضوا، وعرفوا وظائف أعضائه عضوا عضوا لا يصح أن نعزلهم.

قلت: ولكن هؤلاء الرقاة يعزلونهم.

قال: لولا جهلهم ما عزلوهم.. فلا يعرف أهل الفضل إلا أهل الفضل.

قلت: ولكني أرى أنهم في بعض الأحيان قد يتعاونون.

قال: كيف؟!

قلت: الأطباء يرسلون المرضى إلى الرقاة، والرقاة يرسلون بعض من يأتيهم للأطباء.

قال: تلك تجارة محرمة.. فلا تحل التجارة في بني آدم.

دخلنا القاعة، رأينا فيها مرضى وأطباء، والمرضى يسألون، والأطباء يجيبون، اقتربنا من بعض الأطباء[2]، فسمعنا هذا الحديث:

قال بعض المرضى: هل يسبب الشيطان المرض النفسي؟

قال الطبيب: بحكم عملي في الطب النفسي فان نسبة لا تقل عن ٧٠% من المرضى يذهبون في البداية إلى المعالجين الشعبين أو المشعوذين قبل أن يفكروا في زيارة الطبيب النفسي.

ورغم أنه لا يوجد دليل واحد على علاقة الشيطان بالأمراض النفسية فإن بعضا من المتعلمين إلى جانب البسطاء لا يستطيع فهم الحقائق العلمية التي تؤكد أن غالبية الأمراض النفسية الرئيسية قد تم التوصل إلى معرفة أسبابها، وأنها نتيجة تغييرات كيميائية في الجهاز العصبي يمكن علاجها عن طريق تعديل الخلل الذي يعاني منه المريض باستخدام الأدوية النفسية الحديثة.

قال مريض آخر: إن سلوك الجن في بدن الإنسان وصرعه له ونطقه على لسان المصروع أمر مشاهد محسوس، تكاد حوادثه تقع في كل عصر ومصر، ويعد منكره معانداً مكابراً للمشاهدة

---

(١) مسلم.

(٢) انظر: أضواء على بعض الجوانب الخفية للأمراض النفسية: المرض النفسي وأعمال الشيطان، د.لطفي الشربيني، استشاري الطب النفسي.

والمحسوس، وأخبار ذلك كثيرة جداً، شاهدها ورواها العلماء الثقات المشهورون بعلمهم وتقواهم، مما يوجب معه القطع بهذا الاعتقاد.

قال الطبيب، وكأنه لم يلتفت لما قال، أو لم يفهم ما قال: من الحالات الغريبة التي يتناقل الناس الحديث حولها في المجتمعات العربية حالات لمرضى يغيبون عن الوعي ويبدأ الشيطان أو الجن في الحديث من داخلهم !!! فالكلام يصدر عنهم لكنه بنبرات وأسلوب يختلف عن طريقتهم المعتادة في الحديث، والكل هنا يؤكد أن المتحدث هو المخلوق الغريب بداخلهم، وربما يذكر هذا المتحدث اسمه وديانته والمكان الذي حضر منه، فهناك الجن الكافر، وهناك الشيطان الصغير، والفتاة المثقفة، والمرأة التي تبدي رغبتها في الزواج من المريض، أو الرجل الذي يؤكد أن يحب ضحيته ولن يتركها، وكل هذه نماذج من الشياطين الذين يتحاورون مع المحيطين بالمريض، وكثيرا ما يقدم الواحد منهم بعض المطالب حتى يتخلى عن المهمة التي يقوم بها مع هذا المريض ويتركه وشأنه.

قال آخر: هذا صحيح.. وقد روى عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: قلت لأبي: إن قوماً يقولون: إن الجن لا يدخل في بدن المصروع من الإنس، فقال: يا بني يكذبون، وهو ذا يتكلم على لسانه)[1]

وقال ابن تيمية:(إن دخول الجني بدن الإنس، وتكلمه على لسانه بأنواع الكلام وغير ذلك أمر قد علمه كثير من الناس بالضرورة)[2]

قال آخر: بل قد عالج ابن تيمية الإنسان المصروع بسبب الجني مرات كثيرة، وحدَّث عن نفسه في ذلك فقال:(كما قد فعلنا نحن هذا، وجربناه مرات كثيرة يطول وصفها بحضرة خلق كثيرين)[3]

وقد ذكر مقالة الإمام أحمد في الرد على استفسار ابنه، ثم قال:(وهذا الذي قاله أمر مشهود، فإنه يصرع الرجل، فيتكلم بلسان لا يُعرف معناه، ويُضرب على بدنه ضرباً عظيماً لو ضُرب به جمل لأثر به أثراً عظيماً، والمصروع مع هذا لا يحس بالضرب ولا بالكلام الذي يقوله)[4]

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٢/١٩، ٢٧٧/٢٤.
(٢) الرد على المنطقيين ص ٤٠٧.
(٣) مجموع الفتاوى: ٦٠/١٩.
(٤) مجموع الفتاوى: ٢٧٧/٢٤.

قال آخر: ومن أدلة الحس والمشاهدة على دخول الجن بدن الإنسان وتسببه له بالصرع ونحوه من الأمراض أن كثيراً من العلماء والمشايخ المعاصرين المشهورين قاموا بمعالجة مرضى المس الشيطاني بالطرق الشرعية، ومنها قراءة القرآن على المصروع، ومن هؤلاء الشيخ أحمد القطان[1]، والشيخ عبد العزيز بن باز مفتي السعودية[2]، والشيخ محمد الصايم[3]، والشيخ وحيد الدين بالي[4].. وغيرهم كثير.

واصل الطبيب حديثه دون أن يلتفت لهم: هذا الكلام مؤكد وتسمعه من مصادر كثيرة لدرجة أن بعض الناس يقول لك: إن لديه تسجيلات لهذه الوقائع بصوت الشيطان نفسه حتى يصدق الجميع ذلك.

خشيت أن يتدخل المرضى ليغيروا مجرى الحديث، فصحت: فما تفسير هذا من وجهة نظر الطب النفسي؟

التفت إلي، وقال: الواقع أنني شخصيا قد استمعت إلى مثل هذه الأشياء في حياتي العملية عدة مرات، لكن هذه الحالة أيضا لا علاقة لها بالشيطان نهائيا، والمتحدث هنا هو المريض النفسي.

قلت: كيف هذا؟

قال: هي في حالة نطلق عليها التحول الهستيري يغيب فيها عن الوعي مؤقتا، وتظهر بعض محتويات عقله الباطن، فيقوم بالتنفيس عن بعض رغباته المكبوتة، ويهرب من الواقع والضغوط التي لا يحتملها، فيتصور الجميع أن بداخله شيطان يتكلم، وهذه الحالات لا تحتاج إلى جلسات الزار أو الذهاب إلى الدجالين، أو ضرب المريض بقسوة لإخراج الجن، كل ما في الأمر هو تهدئة المريض وبحث حالته النفسية والتعامل مع الضغوط التي يتعرض لها، وهنا تتحسن الحالة دون تعامل مع الشيطان.

قال أحد المرضى، وكأنه يصف حالته: والأصوات، والخيالات والوساوس أأمراض هي أم مس شيطاني؟!

---

(١) انظر تجاربه حكاية عنه: مجدي محمد الشهاوي: العلاج الرباني للسحر والمس الشيطاني، مكتبة القرآن –مصر– ص ٦٣–٦٦.

(٢) انظر مجموع فتاوى ومقالات متنوعة ٣/٢٩٩.

(٣) انظر تجاربه في كتابيه: المنقذ القرآني لإبطال السحر وعلاج المس الشيطاني، حوار مع الشياطين وتجربتي العملية في إخراج الجان وإبطال السحر.

(٤) انظر تجاربه في كتابه: وقاية الإنسان من الجن والشيطان.

قال: مرض الوسواس القهري هو أحد الأمراض النفسية الشائعة بصورة لم نكن نحيط بها من قبل، حيث اعتقد الأطباء النفسيون أنه من الحالات النادرة لكن الدراسات الحديثة تؤكد أنه يصيب ٣ بالمائة من الناس.. وقد ارتبط هذا المرض في الأذهان بوساوس الشياطين بسبب التشابه بين مسمى (الوسواس القهري) ووصف الشيطان بالوسواس الخناس الذي ورد في القرآن الكريم، لكن إذا علمنا أن الوسواس القهري قد أصبح من الأمراض التي تم كشف النقاب عن الكثير من أسرارها، وأن هذه الحالات لها علاقة ببعض المواد الكيميائية في المخ مثل مادة (السروتونين) التي يتسبب اختلالها في أعراض الوسواس القهري وهي تشمل أعراضا كثيرة.

قلت: مثل ماذا؟

قال: مثل أعمال وسواسية في صورة تكرار أفعال وطقوس لا معنى لها، مثل غسل الأيدي أو الطهارة عند ملامسة أي شيء، أو التمتمة بكلمات، أو أعداد معينة قبل بدء أي عمل، أو إعادة الوضوء عدة مرات قبل الصلاة.

قال أحد المرضى: أنا مريض بهذه الحالة، وقد اكتشف الراقي أن سبب ما أصابني جن خطير لم يكشف عن اسمه.

قال الطبيب مازحا: قل لراقيك لقد عرفته إنه (السروتونين)، فغيابه هو الذي سبب لك ما سبب.

قلت: اذكر لنا أمثلة أخرى على هذا؟

قال: من أمثلتها الأفكار الوسواسية، كالانشغال والاستغراق في التفكير في موضوعات تافهة وقضايا لا حل لها مثل مسألة البيضة والدجاجة ومن الذي أتى أولا؟ أو البحث في شكل الشيطان وماذا يأكل وكيف يعيش؟ أو أفكار دينية لا معنى لها تشغل التفكير وتعوق الشخص عن مزاولة حياته..

ومن أمثلتها: مخاوف وسواسية لا أساس لها من أشياء ليست مصدر خوف على الإطلاق.

قلت: فكيف يتعامل الطب النفسي مع هذه الحالات؟

قال: الطب النفسي يتعامل حاليا مع هذه الحالات بالعلاج الدوائي الذي يعيد الاتزان النفسي ونسبة الشفاء عالية حاليا باستخدام أجيال الأدوية الحديثة ولا علاقة للشيطان بكل هذه الوساوس المرضية.

قال بعض المرضى: ولكني أرى أشباحا، وأسمع أصواتا تتحاور معي، بل وتهددني أو تأمر بأن يفعل أشياء معينة.

قلت: فماذا قال لك الرقاة؟

قال: وهل هناك غير المردة من العفاريت؟

قلت: فما فعلوا؟

قال: ظلوا يرقونني إلى أن نفذ ما في جيبي، فطردوني، وقالوا: جنك طيار، لا نقدر على إمساكه.

قلت للطبيب: بم تفسر هذا؟

قال الطبيب: من جهة نظر الطب النفسي هذا يرجع إلى وجود خلل في جهاز الاستقبال لدى المريض، يجعله يستقبل صورا وأصواتا لا وجود لها، وهذه الحالات أيضا تتحسن بالعلاج بالأدوية الحديثة، ولا دخل للشيطان في هذه الأعراض النفسية المرضية التي تحدث في مرضى الفصام والأمراض العقلية الذهنية.

***

انتقلنا إلى محل آخر من القاعة، اجتمع فيه مجموعة مرضى مع طبيب، يتحدثون عن مرض الصرع وعلاقته بمس الشيطان.

قال الطبيب: يعتبر الصرع من أكثر الأمراض العصبية انتشارا حيث يصيب ١ بالمائة من الصغار والكبار، ومن أعراضه حدوث نوبات غياب عن الوعي قد تكون شديدة أو خفيفة، وفي حالة النوبة الكبرى يسقط المريض على الأرض في حالة تشنج يهتز لها كل جسده ويغيب عن الوعي نهائيا ولا يفيق الا بعد مرور وقت طويل، وتتكرر هذه النوبات في أي وقت وأي مكان.

قلت: نعرف هذا، فما تفسيره من وجهة نظركم؟

قال: لقد ظل مرض الصرع موضوعا للكثير من الخرافات والأوهام وتعرض المرضى لكثير من الممارسات غير الطبية ظنا من الناس أن الأرواح والشياطين وراء حدوثه حتى كشف الطب الحديث حقيقة هذا المرض.. فقد تبين من خلال الأبحاث الطبية أنه نتيجة لخلل في موجات المخ الكهربائية نتيجة شحنات زائدة من بؤرة نشطة تسبب إثارة الخلايا العصبية وتحدث النوبة نتيجة لذلك.

قلت: أهذا افتراض افترضه الأطباء ليهربوا من التفسير الغيبي، أم هو حقيقة علمية دلت عليها التجارب؟

قال: إن العلم الحديث يؤكد هذا المعنى الذي ذكرته، فقد ذكر أن كلمة صرع لا تعني شيئا سوى القابلية للتعرض لنوبات تشنّج متكرّرة، وهو يتم على مستوى الدماغ الذي يتحكم

بحركاتنا وأحاسيسنا وأفكارنا وعواطفنا، فهو مقر الذاكرة، وهو الذي يقوم بتنظيم الأعمال الداخلية اللاإرادية في الجسم كوظائف القلب والرئتين.. وتعمل خلايا الدماغ معا وتتصل ببعض من خلال إشارات كهربائية.. وفي بعض الأحيان يكون هناك تفريغ كهربائي غير عادي في مجموعة من الخلايا وتكون نتيجة ذلك حدوث النوبة، ويتوقف نوع النوبة على جزء الدماغ الذي حصل فيه التفريغ الكهربائي، الجزئي غير العادي.

قلت: لا أقصد هذا.. أقصد هل يمكن كشف هذا بالأجهزة كما تكشفون الأمراض بالأشعة وغيرها؟

قال: أجل.. ويمكن كشف ذلك ببساطة حاليا عن طريق جهاز رسم المخ EEG الذي يلتقط هذه الإشارات، ويحدد شدتها ومكانها.

قلت: لقد عرفتم الحقيقة.. ولكن العلاج بقي غائبا.

قال: إن الأبحاث جارية في هذا الموضوع.. والعلم الحديث يقترب يوما بعد من علاج هذا النوع من الأمراض، وقد ورد في بعض الدراسات العلمية تحت عنوان:(دور الغذاء الكيتونى[1] فى علاج الصرع المستعصى) بأن دراسات عديدة سريريه أظهرت أن من ٤١% – ٩٥ بالمائة من الأطفال الذين عولجوا بهذا الغذاء تحسنت نسبة الصرع لديهم بنسبة أكثر من ٥٠ بالمائة هذا فيما بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٣٠ م، ولكن بعد ظهور دواء الفينوتوين قل وغيره استعمال الغذاء واعتمد الأطباء على أدوية الصرع.

ثم عاد الاهتمام بهذا النوع من العلاج أى (الغذاء الكيتونى) في السنوات الأخيرة ففي عام ١٩٩٨م أجريت دراسة على مراكز متعددة لمئة وخمسين طفلاً يعانون من الصرع المستعصي وعولجوا بالغذاء الكيتونى وقلت لديهم التشنجات، وثبت أن الغذاء الكيتونى عندما يستعمل بطريقة صحيحة فإن له تأثير جيدا على نسبة تحسن التشنجات)

التفت إلي المعلم ضاحكا، وقال: لعل هذا النوع من الغذاء رشوة جيدة للجن تكف شره عن الصبيان.

قلت: هو على كل حال أفضل من الملح أو الضرب الذي يقدمه الرقاة لهم.

---

(١) هذا الغذاء محسوب بدقة ومصمم بطريقة معينة وموزونة وهو يتكون من: أربعة أجزاء من الدهون (زبدة ، قشطة ، زيوت نباتية)، جزء واحد بروتين وكربوهيرات (لحم أو فول +أرز أو بطاطس). سعرات حرارية محددة حسب حاجة المريض ووزنه ويقصد بها زيادة أو نقص الوزن حتى يصل المريض إلى الوزن النموذجى لعمره. فيتامينات وأملاح معدنية مضافة حتى يتجنب المريض فقدان هذه العناصر الهامة والإصابة بنقص الفيتامينان أو الملاح.

قال الطبيب: يجتهد العلم الحديث الآن في السيطرة على نوبات الصرع، فمعظم النوبات الصرعية تخف نتيجة استعمال الأدوية المقاومة للصرع، فحوالي (٥٠) بالمائة من الذين يتناولون هذه الأدوية تنتهي النوبات لديهم وحوالي (٣٠) بالمائة منهم تقلّ درجة تكرارها لديهم لدرجة يمكنهم معها العيش والعمل بشكل اعتيادي، أما الـــ (٢٠) بالمائة المتبقية فهي إما حالات مستعصية للعلاج، أو أنها بحاجة إلى جرعات أكبر للسيطرة على النوبات.

بالإضافة إلى أن هناك الحل الجراحي، ويتم اللجوء إليه عندما يفشل العلاج الدوائي، وفي نسبة قليلة جدا من الحالات التي يتحدد فيها الجزء الدماغي المصاب والمسبب للنوبات وتكون إزالته مأمونة، وبدون أن تترك خللاً أو ضرراً بوظائف المخ.

العلاج البديل

خرجنا من تلك القاعة، وقد تركنا المرضى مع الأطباء يفسرون لهم، ويحاولون إقناعهم، وهم يجهدون أنفسهم في ذلك جهدا عظيما، فالمسألة قد تغلغلت في قلوب وعقول المرضى، بل ربطت في أذهانهم بقضايا الإيمان والكفر، والسنة والبدعة[1]، فكان من الصعب اقتلاعها.

قلت: يا معلم.. قدرت هذا الجهد الذي يبذله هذا الحصن في وقاية الناس من هذه الشعوذة.. ولكنها على أي حال خففت على الناس كثيرا مما يعانونه.. أليس من الأجدى أن لا نترك المرضى أسارى مرضهم؟

قال: بالصدق لا بالكذب.. وبالشرع لا بالدجل.. وبالحقائق لا بالأباطيل.

قلت: فهل يضع هذا المستشفى هذا الحق الذي يواجه به الباطل.. وهل يضع البديل الذي يقي الناس شرور هؤلاء الرقاة؟

قال: أجل.. فلا ينبغي لمن نهاك عن شيء أن يتركك تعاني الحيرة.. بل إنه يعطيك من الحلول والبدائل ما يريحك، ويملأ الفراغ الذي تركه نهيه.

قلت: فأين هذا البديل؟

قال: هيا إلى القاعة المخصصة لذلك، فهي آخر قاعات هذا الحصن.

قلت: و لم لم يبدأ المرضى بها؟

قال: لا.. ألم يكن رسول الله ﷺ يفرغ أصحابه من تصورات الجاهلية، ثم يملؤهم بحقائق الإسلام؟

قلت: أجل.

---

(١) أول ما يفاجئك به من يتحدث عن هذه المسألة هو ربطها بالسنة وربط خلافها بالبدعة، فهذا أحدهم يقول في الموقع الذي خصصه لذلك:« فعلى من يُنكر دخول الجني بدن الإنسي أن يلجم فاه عن الإنكار والاستنكار ومخالفة أئمة أهل السنة والجماعة، وأن لا يشوش أفكار المسلمين بأفكاره الملوثـة بأفكار أهل البدع والفلسفة، فإن قال: هذا رأي، فإن الرأي يحتمل الخطـأ والصواب، فما تراه صوابا فإنه يحتمل الخطأ وما تراه خطأ فإنه يحتمل الصواب، ولعله يأتي اليوم الذي يتحول فيه رأيك إلى رأي غيرك... وإن العاقل إذا سمع أمرا عجبا جائزا لا دليل من الشرع ينفيه، استحسنه ولم يكذب قائله، والجاهل إذا سمع ما لم يشاهده قطع بتكذيب قائله، وتزييف ناقله.

جَهلتَ ولا تدري بأنك جاهلٌ ومن لي بأن تدري بأنك لا تدري

ثم يقول:« ولعل السبب في إنكار البعض لدخول الجان بدن الإنسان هو إتباع الهوى، والجهل وقلة العلم في أحوال الجن والشياطين، وتحجر العقول وإتباع منهج ﴿ ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾، وكذلك إبراز الشخصية وإتباع منهج خالف تعرف، و أيضا حسد طلبة العلم والأطباء الرقاة على ما آتاهم الله من فضله »

قال: أتدري لماذا؟

قلت: حتى لا يختلط الإسلام بالجاهلية.

قال: فلهذا لا يصفون العلاج البديل إلا بعد أن يملأوا قلوب المرضى وعقولهم بالقناعات الصحيحة.

اقتربنا من قاعة مهيبة كانت تمتلئ بأنوار الإيمان، سألت المعلم عنها، فقال: هذه القاعة هي التي يعطى فيه المصل الذي يحمي من وساوس الشياطين، ومن آثار الدجل الذي يزرعه الرقاة.

رأيت شخصا مهيبا.. يبدو كأولئك الأولياء الصالحين الذين غمروا الكون بعطرهم.

قلت: من هذا؟

قال: هذا نموذج الراقي البديل، وقد دربه هذا المستشفى ليميت هذه البدعة.

قلت: راق بديل.

قال: نعم.. من باب المشاكلة سميناه كذلك.

قلت: فما دوره؟

قال: يبدأ دوره بنفسه.. يربيها ويطهرها ويعمق فيها حقائق الإيمان.. ولا يكتفى بذلك، بل يضيف إليه من العلم ما يجعله فطنا يعرف كيف يواجه الأمور وكيف يتحدى الصعاب.. فإذا آنست منه إدارة المستشفى القدرة على ممارسة هذه الوظيفة أعطته الإجازة بذلك.

قلت: وما هو دوره؟

قال: بسيط جدا، وعميق جدا.. أما الأمراض الجسدية، فيرشد أهلها إلى الأطباء، أما الوساوس الشيطانية، فيضع لها من برامج التربية ما يقهر كل وسواس.

قلت: إذن هو لا يعالج في جلسة واحدة؟

قال: لا.. هو يقنع مرضاه بالبرنامج المعطى لهم.. ولا يكتفي بذلك، بل يتابعهم إلى أن يرى مدى جدوى استفادتهم.

قلت: إذن هو يحصل على أجور لا بأس بها.

قال: تشترط إدارة مستشفى السلام فيمن يتولى هذا الزهد والعفاف.

قلت: لم؟.. هو ينفع الناس ويقدم لهم خدمات.

قال: لأن المال يجر المغرضين.. أما الزهد والعفاف، فلا يبقي غير المخلصين.

قلت: ولكن رسول الله ﷺ قال:(إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله)[1]

---

(١) البخاري.

قال: ذلك في موضع مخصوص، لا يصح القياس عليه.

قلت: فبم يبدأ البرنامج التربوي الذي يمارسه هذا الراقي؟

قال: بربطهم بالله.. واسمع إلى هذا الراقي، وهو يخاطب مرضاه.

اجتمع المرضى حول ذلك الراقي، فراح يخاطبهم بقوله:.. أول ما يطهرنا به القرآن الكريم من الانحرافات العقدية المرتبطة بالعوالم الغيبية حصر تدبير الكون في الله تعالى إجمالا وتفصيلا، فالله تعالى هو المتصرف الواحد في الكون لا ينازع في تصريفه، فهو الذي يرسل الرياح وينزل المطر ويحيي ويميت ويخفض ويرفع ويبسط ويقبض ويعطي ويمنع وكل ما حدث في الكون أو يحدث فبإذنه وتقديره وتصريفه وفعله، فالله في القرآن الكريم ليس منعزلا كإله أرسطو المنشغل بكماله عن غيره، وليس كآلهة اليونان المنعزلة في جبال الألب، بل هو متصرف حاضر ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة: من الآية٧)

قلت: يشير إلى كل هذه المعاني اسمه تعالى[القيوم]،فهو القائم بنفسه المقيم لغيره، فلا قيام لشيء إلا بإقامته تعالى.

قال: ولأجل هذا كانت آية الكرسي من الآيات التي ورد في الأحاديث اعتبارها من الاستعاذات النافعة لما تحتوي عليه من التنبيه لقيومية الله تعالى لكل شيء فهو ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة:٢٥٥)

قال الراقي، وكأنه كان يسمعنا: فالتالي لهذه الآية المستغرق في معانيها يرى كل شيء من العرش إلى الفرش لا يملك شيئا ولا يقد ر على شيء ويحتاج إلى الله في كل شيء، وهو ما يشعر الضعيف بالقوة والذليل بالعزة والمريض بالشفاء، لأن الله تعالى لا يغفل عن حاله، فهو لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو تعالى الذي حفظ السماوات والأرض و لم يؤده حفظهما لن يعجزه من شيء في الأرض ولا في السماء، ثم تنفي عن الاتصال بالله كل الوسائط والشفعاء الذين كانوا في جميع الديانات الحجب بين الله وعباده، ولذلك لن يحتاج المستغرق في هذه الآية إلى السعي للبحث عن أي وسيط لأن الله تعالى أقرب إليه من الوسيط.

قلت: ما شاء الله.. أظن هذا وحده يكفي علاجا لكل داء.

صاح أحد المرضى: والجن.. والعفاريت.. والشياطين.. أليس لهم تأثير؟

قال الراقي: الجن والشياطين أضعف شأنا من أن يتسلطوا على حياة الناس ويوجهوها حيث شاءوا، فليس لهم أي سلطان على الإنسان، وليس لهم إلا بعض الطاقات المحدودة بحدود طبيعتهم وجبلتهم، فلكل شيء في الكون طبيعته وطاقاته الخاصة به.

ولهذا ورد في أكثر آيات القرآن الكريم الإخبار عن عجز الجن وعدم تسلطهم على بني آدم إلا لمن تعرض لهم،كما أن الطاقة الكهربائية لا سلطان لها إلا على من مد يده إليها.

ويبرز ذلك واضحا فيما يسمى بخطبة الشيطان التي يلقيها على أهل النار يوم القيامة لينفي عن نفسه اللوم ويبين علاقته بالبشر والسلطات الوحيدة التي مكن منها، قال تعالى:﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (ابراهيم:٢٢)

فالشيطان يتجلى في هذه الآية بمظهره الحقيقي مظهر الضعيف العاجز الذي نفخ فيه البشر وألبسوه من ثياب العظمة والكبرياء ووهبوه من أسباب التسلط ما يزاحم به الألوهية.

صحت: ما سبب هذه النظرة التي جعلت للشيطان كل تلك السلطات؟

قال: التصور الوثني..

قلت: التصور الوثني؟!

قال: أجل.. فهو الذي يجعل من الشيطان إلها قائما بذاته يتحدى الله سبحانه وتعالى مع أنه ليس إلا جنديا بسيطا ومتواضعا من جنود الله خلقه الله ليقوم بعكس الدور الذي تقوم به الملائكة، فهو لا يتحدى الألوهية وإنما يطبق إرادها وينفذ مشيئتها ليتم الاختبار.

قلت: ما هذا القول الخطير؟

قال: كونه جنديا لله لا يحمل أي صفة مدح، لأن كل شيء جندي لله يفعل ما يراد منه وقد يذم على فعله أو يحمد وقد يعاقب أو يجازى ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾(الفتح:٧)﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾(المدثر: من الآية٣١)

قلت: فتعظيم الشيطان نوع من الشرك إذن؟

قال: أجل.. ولهذا اعتبر القرآن الكريم من أعطوا الجن من السلطات ما ليس لهم أو وضعوهم كمدبرين ومؤثرين بذواقم في الكون مشركين بذلك التعظيم، قال تعالى:﴿ وَجَعَلُوا

لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(الأنعام:١٠٠)

وقد أخبرت الملائكة ــ عليهم السلام ــ أن أكثر البشر كانوا يعبدون الجن ويشركونهم بالله، ومن أساليب العبودية التعظيم والخوف والذي لا يقتصر على المشركين من عرب الجاهلية فقط، قال تعالى:﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (سـبأ:٤١)

وقد كان هذا التصور هو فهم السلف الصالح ﷺ من حقيقة العلاقة بين الجن والبشر، قال الحسن البصري ﷺ عن الشيطان:(والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شيء وما كان إلا غرورا وأماني دعاهم إليها فأجابوه)

صاح مريض آخر: يا حكيم.. فهمنا ما قلت.. ولكن لم سلط الله علينا الشياطين يسوموننا الخسف.. ويضطرونا إلى هؤلاء المشعوذين.

قال الراقي: إن تأثير الجن على الإنسان بحسب قابليته واستعداده، وتلك القابلية تتجلى في الشعور بالضعف والقصور أمامه، ولهذا كان الرهق وهو كل معاناة وأذى بسبب الخوف من الجن أو الالتجاء إليه أو الشعور بقوة تأثيره، قال تعالى على لسان الجن:﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْأِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾(الجـن:٦)

ولهذا جاءت الآيات الكثيرة تخبر عن عدم تسلط الجن أو الشياطين على المؤمنين الذين يتوكلون على ربهم ويلوذون بحفظه، قال تعالى:﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر:٤٢)، وقالتعالى:﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(النحل:٩٩)، وقالتعالى:﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾(سـبأ:٢١)

وقد حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال:أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: هذا يطول، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنع من العبور ما تصنع؟ قال: أكابده وأرده جهدي. قال: هذا يطول عليك، ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك.

قلت: ألهذا ورد النهي عن تعظيم الشيطان والجن بنسبة المصائب والنكبات إليها؟

قال الراقي: أجل.. لأن ذلك مما يعظمها في نفس الإنسان، وكلما عظم الإنسان شيئا كلما أزال من نفسه من الشعور بعظمة الله بحسبه فنهى النبيﷺ عن كل مظهر ينم عن هذا التعظيم

ولو كان في صيغة سب، قال بعض الصحابة ﷺ:(كنت رديف النبي ﷺ فعثرت دابة فقلت: تعس الشيطان، فقال: لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت ويقول: بقوتي ولكن، قل: بسم الله، فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب)[1]

فالنبي ﷺ نهاه أن يعظم الشيطان ولو بنسبة تعثر الدابة إليه، فكيف بمن يجعله متصرفا كليا وحيدا في حياة الناس؟

***

تركنا ذلك الحصن بعد طول مكثنا فيه، وقد رأيت على المرضى في قاعة العلاج البديل ارتياحا عظيما، وأنوارا تسري في وجوههم تحطم تلك الكآبة والسوداوية التي ملأهم بها الرقاة.

سألت أحد المرضى: ما حالك؟.. كيف تجد نفسك؟

قال: بحمد الله.. لقد كانت الوساوس تطاردني.. كانت العفاريت التي ملأ الرقاة عقلي بها تزاحمني وجودي.. تحطم حياتي.. أما اليوم فقد عرفت الله.

قلت: فماذا أفادتك معرفته؟

قال: نسخت كل تلك الظلمات.. وحطمت كل تلك الأساطير.. وأنا الآن أعيش في سعادة عميقة.

قلت: ما هو وردك؟

قال: ما حض عليه رسول الله ﷺ من أذكار، فأنا أسبح الله وأحمده وأكبره..

قلت: فما كان وردك؟

قال: الاستعاذة من الجن والعفاريت والمردة.. حتى أني كنت إذا قرأت القرآن الكريم لا أقرؤه لوجه الله، وإنما أقرؤه لأطرد العفاريت.

ثم تركني، وانصرف، وهو يسبح الله.. أما الشيطان.. فقد سلك فجا غير فجه، وقد عض أصابعه من الندم.. أما الرقاة.. فقد ضاع زبون من زبائنهم، ويوشك أن يضيع جميع زبائنهم.. وما ذلك على الله بعزيز.

---

(١) أبو داود وغيره.

٢ ـــ الاستعاذة من السحر

قصدنا القاعة الثانية من قاعات حصن الاستعاذة، فرأيت لافتة مكتوبا عليها قوله تعالى:﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾(يونس: من الآية٨١)

قلت: لا شك أن هذه القاعة قاعة علاج السحر.

قال: السحر.. وأوهام السحر..

قلت: وما علاقة أوهام السحر بهذا؟

قال: أوهام السحر أخطر من السحر.. بل هي نوع من أنواع السحر.

قلت: كيف؟

قال: لأن السحرة محدودون.. وأفعالهم محدودة.. وتأثيراتها أضيق من ذلك كله.. ولكن مع ذلك لا ترى أحدا إلا وهو يشكو أنه سحر في يوم من الأيام.. أو سحرت سيارته أو محله أو شواربه التي اشتعل فيها الشيب.

قلت: صدقت.. وأنا أعرف من لا يأكل أي طعام خارج بيته خشية أن يكون قد ملئ سحرا.

قال: وبسببه فرق الشيطان بين المرء وزوجه، وبين الأخ وأخيه.

قلت: هذا واقع نشكو منه.

قال: فمن ساهم فيه؟

قلت: لا شك في ضلوع الرقاة في هذه الجريمة.. فإنه ما يأتيهم أحد إلا ويصفون له أحد أقانيم هذا الثالوث: الجن والعين والسحر.

رأيت بابين داخل القاعة المخصصة للتحصين من السحر، ورأيت المرضى يدخلون منهما، فسألت المعلم عنهما، فقال: أما الباب الأول، فيؤدي إلى القاعة المخصصة لتشخيص السحر، وأما الباب الثاني، فيؤدي إلى القاعة التي يتم فيها العلاج.

قلت: فلم لا يذهبون مباشرة للقاعة الثانية للمعالجة؟

قال: إن أكثر من تراهم يتهمون السحر والسحرة مصابون بأوهام السحر.. لا بالسحر.. أو بأعراض لأمراض جسدية أو نفسية، ولكن الدجالين أوهموهم بأنهم مسحورون، فلذلك كان تخليصهم من الأوهام مقدما على علاجهم.

قلت: أمستشفى السلام يعالج المرضى في هاتين القاعتين فقط؟

قال: لا.. جميع الوزارات التي لها علاقة بالإنسان تخدم المرضى أو تقيهم من جهتها.

قلت: وما انشغال الوزارات بهذا؟
قال: إن لم تنشغل الوزارات بالإنسان، فبمن تنشغل؟

تشخيص السحر

دخلنا القاعة الأولى، فوجدنا رجلا على منصة، والدموع تنهمر من عينيه، وهو يتكلم بصوت ضعيف تظهر عليه علامات الحزن، والمرضى مقبلون عليه يسألونه، سألت المعلم عنه، فقال: هذا عيسى بن شقفى[1].

قلت: ومن عيسى بن شقفى؟

قال: كان ساحرا.. ثم تاب الله عليه.. وقد دعته إدارة هذا المستشفى ليبين للمرضى قدرات الساحر.

قلت: و لم ذلك؟ ألأجل اتقائها؟

قال: لا.. ليس ذلك فقط.. بل الغرض الأصلي هو أن يفسر لهم قوله تعالى:﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾(البقرة: من الآية١٠٢)

قلت: لم؟

قال: لأن الخوف من السحر، وتعظيم السحر، والاعتقاد بقدرات الساحر العجيبة جعلت الخلق يخافون من الساحر أكثر من خوفهم من الله.

قلت: وهذا غرض مقصود للساحر؟

قال: كما أنه غرض مقصود للشيطان.. فكما أن الشيطان يحب أن يراه الخلق مدبرا مصرفا للأمور.. فكذلك السحرة الذين اتبعوا الشيطان ومنهج الشيطان، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾(البقرة: من الآية١٠٢)؟

قلت: فالسحر من تعليم الشياطين؟

قال: هذا ما نص عليه القرآن الكريم.

قلت: فما هي الأشياء التي يطيقها الساحر.. فإني أسمع أن له قدرات هائلة.

قال: هي ــ بحسب ما ينص عليه القرآن الكريم ــ قدرتان.

قلت: ما هما؟

قال: التخييل، والتأثير.. وكلا القدرتين محدودتان، لا يستطيع الساحر مهما أوتي من علم أن يتجاوزحدودهما.

---

(١) كان عيسى بن شقفى ساحرا يأتيه الناس ويأخذ على ذلك أجرا، فجاء إلى الامام جعفر الصادق ﷺ، وتاب على يديه.

قلت: فما الحدود التي تحدهما.

قال: سنعرف ذلك من عيسى.

قلت: أي عيسى !؟

قال: ذاك التائب الذي يجتمع عليه الناس.

السحر التخييلي

اقتربنا منه، فسمعنا سائلا يسأله، قائلا: عرفنا أن الشياطين يعتمدون على استعداد الإنسان للوسوسة، فلذلك يأتونه من هذا الجانب، فعلام يعتمد السحرة؟

قال عيسى: على التخييل.. على مخيلة الإنسان[1].. فإن كان الشيطان يضع خرطومه على صدر الإنسان، فإن هؤلاء السحرة يضعون خراطيمهم على مخيلته.

قال السائل: لم؟

قال عيسى: ليرى الأشياء على غير ما هي عليه.. ألم ير الناس حبال السحرة وعصيهم حيات تسعى؟

قال السائل: بلى، فقد قال تعالى:﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾(طـــه: من الآية٦٦)

قال عيسى: فهكذا الساحر يلجأ إلى المخيلة ليتلاعب بها..

قاطعه سائل، وهو يقول:.. نعم.. لقد سمعت بعض العلماء يروي عن بعض العامة أن ساحراً أتى إلى صاحب غنم ومعه شاه يقودها بأذنها، وطلب من صاحب الغنم أن يعطيه بدلها كبشاً ليذبحه لرفقته، ففعل ذلك صاحب الغنم، فبعد أن ذهب بالكبش تبين أن تلك الشاة التي جاء يقودها كانت حشرة من دواب الأرض قد لبس بها على عين الراعي الذي ذهب في أثره حتى أدركه مع رفقته وقد ذبحوا الكبش، فسألهم عن صاحب الكبش الذي لبس عليه، فدلوه على الساحر فجعل يوبخه، ثم مد يده إليه ليبطش به، وقبض على رأسه فانقلع رأسه في يده وتعلق بحنجرته، فذهل الراعي وهرب معتقداً أنهم من الشياطين[2].

---

(١) يقول ابن خلدون:« سحر التخيل هو أن يعمد الساحر إلى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف، ويلقي فيها أنواعا من الخيالات والمحاكاة وصوراً مما يقصده من ذلك، ثم ينزلها إلى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه، فينظر الراؤن كأنها في الخارج وليس هناك شيء من ذلك» مقدمة ابن خلدون: ٤٩٨.

(٢) الحكاية حكاها الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، انظر: الصواعق المرسلة في التصدي للمشعوذين والسحرة — ص ١١٣، ١١٤.

قال عيسى: لا.. هذه حكاية ظاهرة التزوير.. وما كان للعلماء أن يقبلوا مثل هذا من العامة، ولو كان هذا في طاقة السحرة لاستولوا على أملاك الدنيا جميعا، ولكانوا أغنى الناس.

قال السائل: ولكن العامة يؤكدون مثل هذا.

قال عيسى: لا تؤخذ الحقائق من العامة، بل تؤخذ من أصحابها، وأنا أدرى بقدرات السحرة، إنهم أضعف بكثير.. أضعف مما تتصورون.

قال سائل آخر: لقد علمونا أن لسحر التخييل أنواعا.. فنرجوا أن تبين لنا مدى وقعيتها؟

قال: سل.. فستجد عندي ــ إن شاء الله ــ ما يشفي غليلك.

قال السائل: من الأمثلة التي ذكروها لما يسمى (سحر التخييلات) قلب الحقائق المتعلقة بالأفراد في نظر المسحور، فيرى الشخص على غير شاكلته كأن يرى محمدا بشكل أحمد، أو أن يرى الصغير كبيرا والكبير صغيرا، والطويل قصيرا والقصير طويلا، وهكذا في كثير من الصفات البشرية الأخرى.

قال: يمكن للساحر أن يفعل هذا.. ولكنه لفترة محدودة، وببعض التلاعبات.. هو تماما مثلما يتلاعب السحرة في نواديكم.. فإن طاقاتهم محدودة بزمن محدد لا تتجاوزه.

قال السائل: ومن الأمثلة التي ذكروها لهذا النوع قلب الحقائق المتعلقة بالحيوانات في نظر المسحور فيرى الحيوان على غير شاكلته، كأن يرى القط فأرا، أو أن يرى القط الهزيل بشكل ضخم مرعب، وقس على ذلك الكثير من الصفات الحيوانية الأخرى.

قال: هذا ممكن بحدود ضيقة جدا.. ولكنها لا تصل أبدا لما حكى عنه ذلك العامي.. وإلا لأقلع تجار الماشية عن إرهاق أنفسهم بعلف الحيوانات، واكتفوا بسحر أعين المشترين.

قال السائل: إنهم يتورعون عن ذلك..

قال: لا.. لو تورعوا عن هذا لتورعوا عن غيره.

قال السائل: من الأمثلة التي ذكروها: سحر التخييل للانتقال من صفة بشرية أو حيوانية أو عينية لصفة مضادة أخرى، فيرى المسحور من خلال هذا النوع من أنواع السحر الإنسان حيوانا، كأن يرى الزوج بشكل حمار أو قرد أو أن يرى كأحد أعمدة المنزل، وقس على ذلك الكثير للانتقال من صفة إلى صفة مضادة أخرى.

قال: من أين عرفتم أن هذا من السحر؟

قال السائل: من يصابون بمثل هذا يذهبون إلى الرقاة فيقرؤون عليهم رقية التشخيص، فيعرفون أنه سحر.

قال: وما رقية التشخيص؟
قال السائل: هي أوراد معينة يتم من خلالها كشف نوع العلة التي يعاني منها المسترقي.
قال: في أي مصادر الحديث وردت هذه الأوراد؟
قال السائل: لا.. لم ترد هذه الأوراد في السنة.
قال: فمن قال بها من السلف؟
قال السائل: لا.. لم يقل بها أحد.
قال: فمن ابتدعها من الخلف؟
قال السائل: أما الخلف المتقدمون، فلم يبتدعها أحد منهم، بل ابتدعها الخلف المتأخرون؟
قال: أهي وحي أوحي إليهم، أم علم لدني نالوه؟
قال السائل: لا هذا.. ولا ذاك.. ولكنهم مع ذلك مجمعون عليه.
قال: أي إجماع هذا.. هذا إجماع لا يختلف عن إجماع اليهود والنصارى..
قال: فكيف يعرفون أن المسترقي مسحور بهذا النوع من السحر؟
قال السائل: يذكرون لذلك علامات.. منها قلب الحقائق دائما في نظر المسحور، مما يؤدي في بعض الأحيان لاعتقاد الآخرين بإصابة الشخص بالجنون.
ومنها الشرود والنظرات غير الطبيعية، ومنها ما يلاحظ في نظرات المسحور من الدهشة والاستغراب، وذلك نتيجة لما يراه المسحور من قلب للحقائق والأمور.
ومنها محاولة الصدود عن الآخرين والعزلة عن الناس خوفا من قذفه بالجنون ونحو ذلك من أمور أخرى.
قال: فأكثر الناس قد يصاب بهذا لأي سبب من الأسباب؟!.. ومن لم يتعلم الشرود لم يتعلم التركيز..
ثم انصرف.. وهو يقول: حسبتنا ــ معشر السحرة ــ شر الناس، ولم أدر أن في الخلق من يجرؤ على كل هذه الدعاوى.
قلت للمعلم: ما بال عيسى ينصرف غاضبا؟
قال: هذا حال عيسى منذ تاب الله عليه، فهو لا يحب الكذب ولا الدجل.
قلت: لم؟
قال: لأن السحر يعتمد على الكذب والدجل.. ألا يصور الساحر الحقائق على خلاف ما هي عليه؟

قلت: بلى..

قال: فكل من فعل هذا تشبه بالساحر.

قلت: فالسحرة كثيرون إذن؟

قال: بهذا الاعتبار أكثر مما تتصور.. فالنمام الذي يفسد العلاقات شر من الساحر..

قلت: كيف هذا؟

قال: لأن الساحر ترد كيده بالمعوذتين، أما شر هذا فإنك لا ترده، ولو قرأت القرآن الكريم جميعا إلا أن تغلق أذنيك عن سماع نميمته.

قلت: يا معلم.. ما سر قدرة الساحر على التلاعب بالخيال[1]؟

قال: لن تعرف هذا حتى تعرف حقيقة بناء الإنسان[2].

قلت: والآن..

قال: لو أن أحدهم وضع نظاره محدبة أو مقعرة على عينيك.. كيف ترى الأشياء؟

قلت: أراها كما توحيها لي النظارة.. بل أستطيع أن أرى العالم كله يشع احمرارا أو يونع اخضرارا.

قال: فالسحر بما تعلمه من الشياطين يضع مثل هذه النظارة على العيون ليقلب بها الحقائق، وتظهر الأشياء على غير ما هي عليه.

قلت: ولكني لا أرى على عيون المسحورين نظارة.

قال: الساحر يتعامل مع البصيرة لا البصر[3].. والبصيرة هي التي توحي للبصر بما يراه.

قلت: صحيح هذا.. فإني قد أكون جائعا، فأرى كل ما حولي خبزا يدعوني لأكله.. وأكون عطشانا فأجري خلف السراب لأبل به ريقي.

---

(١) قال الدكتور محمد محمود عبدالله:« سحر التخييل: هو أن ترى الثابت متحركاً، والمتحرك ثابتاً، والكبير صغيراً، والعكس، والمريض صحيحاً، وعكسه، والقبيح حسناً... وخلاصته: أن الأشياء ترى على غير حقيقتها على سبيل المثال: ما رآه الناس من سحرة الزمان: الحجر طفلاً ؛ والعصا ثعباناً . فكل زمان له سحرة، لكنهم يختلفون في منهجية السحر التنفيذية: يقوم الساحر بإحضار شيء يعرفه الناس، ثم يتلو عزيمته وطلاسمه الشيطانية ؛ فيرى الناس الشيء على غير حقيقته » انظر: إعجاز القرآن في علاج السحر والحسد ومسّ الشيطان: ٨٥.

(٢) انظر رسالة:« بنيان الله »

(٣) وقد يتعامل مع البصر، فمن ألوان السحر ما كان يمارس عن طريق الاستفادة من خواص المواد الكيميائية والفيزيائية لخداع الناس، وقد ذكر أن سحرة فرعون وضعوا داخل حبالهم وعصيهم مادة كيميائية خاصة لعلها الزئبق ، كانت تتحرك بتأثير حرارة الشمس أو أية حرارة أخرى، توحي للمشاهد أنها حية.

قال: ولهذا اعتبر البيان سحرا، فالساحر لا يقدر على ما يقدر عليه من آتاه الله لسانا.

قلت: فكل دعاة جهنم بهذا سحرة.

قال: أجل.. وليت الرقاة من قومك ينبتبهون لصد أباطيلهم، فهي أشد فتكا في الخلق من السحرة المشعوذين.

قلت: ولكنهم لن يبطلوا سحرهم إلا بتعلم السحر.

قال: فليتعلموه.. فذلك خير لهم من السحر الذي يمارسونه.

قلت: أهم يمارسون سحرا؟

قال: هم بتخليطهم على من يأتيهم وكذبهم عليه وتفريقهم بين المرء وزوجه بسببه أعظم خطرا من السحرة.

السحر التأثيري:

قلت للمعلم: هذا هو سحر التخييل، فما سحر التأثير؟

قال: سحر التأثير هو أثر لسحر التخييل.

قلت: ما تقصد؟

قال: تأثير السحر لا يعدو التخييل.

قلت: أتقصد أن الساحر لا يستطيع أن يؤثر في الأشياء؟

قال: كما أن الشيطان لا يستطيع، فالساحر أكثر عجزا منه.

قلت: إن من قومي.. ومن الرقاة خصوصا من يذكرون للساحر قدرات عجيبة.

قال: فما يقولون؟

قلت: اصبر علي معلم.. فإنهم يقولون أشياء كثيرة.

قال: اذكرها.. فلا يمكن أن نسكت عن ذكر عيوب الباطل.

قلت: من السحر ما يسمونه:(سحر المرض)، وقد ذكروا بأن الغرض منه إصابة الشخص بالآلام والأسقام، فتراه طريح الفراش عليل البدن، وقد تكون العلة في موضع واحد، وقد تنتقل من موضع إلى موضع، وكل ذلك بناء على ما يمليه ويفعله الساحر.

قال: أللساحر كل هذه القدرة؟

قلت: لقد قال بعض المشايخ في هذا:(وأما سحر المرض، فقد قيل إن أغلب الأمراض المستعصية هي بسبب الجن الذين يسخرهم الساحر فيلابسون الإنسان، ويحدث ذلك تعطيل بعض الأعضاء عن منافعها فينهك البدن، ويعظم الضرر، ولا يوجد في الطب له علاج سوى

الأدوية المهدئة، والأولى استعمال الرقى النافعة المؤثرة، فلها تأثير كبير في تخفيف ذلك المرض كالسرطان والجلطة والشلل ونحوها)[1]

قال: وما ذكروا من أعراض هذا النوع من السحر؟

قلت: أعراض كثيرة جدا، فمنها مثلا ما يسمى:(سحر التشنجات العصبية)، ويقسمونه إلى قسمين:

قسم التشنجات العصبية قصيرة الأمد: وفيه يتعرض المسحور لتشنجات عصبية من فترة لأخرى دون أن تحدد بزمان أو مكان، وتستمر تلك التشنجات لفترات قصيرة الأمد نسبيا، وقد ترتبط تلك التشنجات أحيانا مع المؤثرات الاجتماعية للمريض، وتعتمد تلك التشنجات في قوتها على قوة السحر والساحر.

وقسم التشنجات العصبية طويلة الأمد: وفيه يتعرض المسحور لتشنجات عصبية من فترة لأخرى دون أن تحدد بزمان أو مكان، وتستمر تلك التشنجات لفترات طويلة نسبيا، وقد ترتبط تلك التشنجات أحيانا مع المؤثرات الخارجية للمريض، وتعتمد تلك التشنجات في قوتها على قوة السحر والساحر.

قال: فأعصاب الخلق بيد الساحر إذن؟

قلت: ليس أعصابهم فقط، بل أعضاؤهم أيضا.. فقد ذكروا ما يسمى بسحر الأمراض العضوية، ويقسمونه أقساما كذلك.

منها سحر الأمراض العضوية بتأثير كلي: وفيه يتعرض المسحور لأمراض وآلام تصيب جميع أنحاء الجسد، ويشعر المسحور من خلال هذا النوع بالتعب والإرهاق والخمول وعدم القدرة على القيام بأية أعمال.

ومنها سحر الأمراض العضوية بتأثير جزئي: وفيه يتعرض المسحور لمرض يتركز في جهة محددة من الجسم، وله أعراض معينة، وعند قيام المريض بالفحص الطبي يتبين سلامة كافة الفحوصات الطبية، وسلامة الجسم من أية أمراض عضوية.

ومنها سحر الأمراض العضوية المتنقلة: وفيه يتعرض المسحور لأمراض وآلام متنقلة في جميع أنحاء الجسم، فتارة يشعر بألم في الرأس وتارة أخرى يشعر بألم في المفاصل وهكذا، وكل ذلك يحصل دون تحديد أية أمراض عضوية محددة.

قال: فالساحر هو الذي لديه خزائن الآلام إذن؟

---

(١) الصواعق المرسلة في التصدي للمشعوذين والسحرة – ١٥٨، ١٥٩، والكلام للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين.

قلت: لا.. بل لديه خزائن الحواس والمدارك أيضا، فقد ذكروا ما يسمى بسحر تعطل الحواس، ويقسمونه كذلك أقساما:

منها سحر تعطل حواس دائم: يتعرض المسحور من خلال هذا النوع لتعطل الحواس الخاصة بالسمع والإبصار والشم تعطلا دائما، فلا تعود تلك الحواس للمسحور إلا بعد إبطال السحر وشفاء المريض بإذن الله تعالى.

ومنها سحر تعطل حواس مؤقت: يتعرض المسحور من خلال هذا النوع لتعطل الحواس الخاصة بالسمع والإبصار والشم تعطلا مؤقتا، ويتقلب الحال من وقت إلى وقت ومن زمن إلى زمن.

ومنها سحر الشلل: ويقسمونه أقساما:

منها سحر شلل كلي: يتعرض المسحور من خلال هذا النوع لشلل كلي في جميع أنحاء الجسم، فلا يستطيع الحراك مطلقا، ولا تعود له عافيته إلا بعد إبطال السحر بإذن الله تعالى.

ومنها سحر شلل جزئي: ويتعرض المسحور من خلال هذا النوع لشلل جزئي يختص بمنطقة معينة كاليد أو القدم أو الرأس ونحوه، ويبقى العضو معطلا فترة من الزمن ثم يعود إلى سابق عهده، وتنتهي المعاناة بإذن الله تعالى عند انتهاء وإبطال السحر.

ومنها سحر شلل متنقل: يتعرض المسحور من خلال هذا النوع لشلل جزئي متنقل، فتارة يصيب الشلل منطقة اليد، وتارة أخرى منطقة القدم وهكذا، وكل ذلك دون تحديد أسباب طبية معينة، ولا ينقطع هذا الأمر إلا بعد إبطال السحر بإذن الله تعالى.

قال: فأراهم لم يتركوا علة إلا نسبوها للسحر؟

قلت: ليس ذلك فقط.. بل حتى الذرية، فإنها تحت تصرف السحرة.

قال: ولكن الله تعالى اعتبر ذلك من الهبة التي لا يجوز التأثير فيها لغير الله.

قلت: وهم يشركون السحرة في ذلك، فلا يولد الولد إلا إذا كف الساحر شره عن والديه، فقد ذكروا ما يسمى بسحر:(العقم وعدم الإنجاب) وذكروا أن هذا النوع من السحر يؤدي لإحداث عقم وعدم إنجاب لدى كل من الزوج والزوجة دون اتضاح أية أسباب طبية لمثل ذلك، وقد ذكروا في هذا الباب قدرات عظيمة للسحرة.

ومنها التحكم في عدد الحيوانات المنوية، فيستطيع الساحر التحكم بكافة الوظائف المرتبطة بالنسل والضغط عليها بحيث تؤدي إلى قلة إفراز للحيوانات المنوية عن معدلها الطبيعي بحيث تكون أقل من عشرين مليون حيوان في السنتيمتر.

ومنها قتل الحيوانات المنوية أو إضعافها: وهذا النوع يؤدي لمنع إفراز السائل اللعابي الذي تتغذى عليه الحيوانات المنوية داخل الحوصلة المنوية وبالتالي يؤدي لقتل تلك الحيوانات، أو إضعافها بحيث لا تستطيع الوصول إلى البويضة لتلقيحها، أو تصل ضعيفة لا تستطيع اختراق الغلاف المحيط بالبويضة.

ومنها قتل البويضة: وهذا النوع يؤدي لقتل البويضة عند المرأة وبالتالي لا تتم عملية التلقيح، أو حصول أي حمل يذكر.

ومنها عدم قابلية تلقيح البويضة من قبل الحيوان المنوي: وهذا النوع يؤدي لمنع وصول الحيوان المنوي إلى البويضة لتلقيحها، وفي بعض الأحيان قد تصل بعض الحيوانات المنوية، ولكنها لا تستطيع اختراق الغلاف الخارجي الخاص بالبويضة مع قوتها ونشاطها.

ومنها إجهاض الحامل بعد شهرها الثالث: وهذا النوع يؤدي لقتل الجنين بعد عدة شهور من تكونه بعد نفخ الروح فيه، مما يتسبب في إجهاض المرأة، ويتبع السحرة أساليب شيطانية خبيثة للوصول إلى هذا الهدف ومنها تسليط الشياطين على الحامل وضربها في نومها وإسقاط الحمل أو إرعابها ومن ثم إسقاط الحمل ونحو ذلك من طرق خبيثة.

قال: فقد جعلوا السحرة آلهة مع الله يتصرفون في خلق الله.

قلت: هم يستدلون لهذا بحديث صحيح.

قال: لا أعلم أن هناك حديثا صحيحا ينص على مثل هذه الخرافات.

قلت: هم يستدلون بما روي عن أسماء ــ رضي الله عنها ــ أنها حملت بعبد الله بن الزبير ﷺ بمكة. قالت: فخرجت، وأنا متم – أي مقاربة للولادة –، فأتيت المدينة، فنزلت بقباء، فولدته بقباء، ثم أتيت رسول الله ﷺ، فوضعه في حجره، فدعا بتمرة، فمضغها، ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، قالت: ثم حنكه بالتمرة، ثم دعا له وبرك عليه، وكان أول مولود ولد في الإسلام — للمهاجرين بالمدينة –، قالت: ففرحوا به فرحا شديدا، وذلك أنهم قيل لهم:(إن اليهود قد سحرتكم، فلا يولد لكم)[1]

قال: فما وجه الاستدلال بالحديث؟

قلت: ما ورد فيه من إخبار اليهود بأنهم قد سحروهم.

قال: فقد أصبحت أخبار اليهود إذن من مصادر الشريعة.. لماذا لم يستدلوا عن عجز السحر عن هذا بولادة عبد الله.. ألم يقرؤوا ما ورد في وفاة سليمان عليه السلام، فقد قال تعالى:﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا

(١) البخاري ومسلم.

عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾(سبأ:١٤)

قلت: بلى.. فقد بين الله تعالى للجن بما حدث لسليمان عليه السلام عجزهم عن إدراك علم الغيب.

قال: وكذلك بين لليهود بولادة عبد الله عجزهم عن التحكم في مخلوقات الله.

قلت: وهم لا يكتفون بهذا.. بل يجعلون للسحرة القدرة على بث الخمول والكسل في المجتمع بالسحر الخاص بهذه الناحية.

قال: وإلى ما يقسمونه؟

قلت: إلى قسمين:

قسم يسمونه سحر خمول دائم: يتعرض المسحور من خلال هذا النوع لخمول دائم ينتاب جميع أنحاء الجسم، فيشعر المريض دائما بالفتور والخمول وعدم القدرة على العمل أو ممارسة أي نشاط يذكر.

ومنها سحر خمول مؤقت: ويتعرض المسحور من خلال هذا النوع لخمول مؤقت ينتابه بعض الفترات ويتراوح ذلك بحسب قوة السحر وتأثيره، فيشعر المريض أحيانا بالفتور والخمول وعدم القدرة على العمل أو ممارسة أي نشاط يذكر، وتارة أخرى يكون نشيطا قويا يعيش كأي إنسان طبيعي آخر.

قال: فقد عرف الرقاة إذن علل تخلف الأمة.. فلماذا يجهد مفكروكم عقولهم في البحث عنها.

قلت: لا.. هم لم يتكلموا عن هذه المسألة، و لم يبحثوا فيها..

قال: لا.. بل بحثوا فيها.. فسحرة قومك استأجرهم بعض اليهود.. أو بعض جن اليهود ليسحروا الأمة جميعا بالخمول.. فلذلك كل ما تراه من خمول هو بسبب هذا السحر.. ولن تستطيعو النهوض إلا بعد البحث عن المكان الذي وضعوا فيه سحرهم لتعود الأمة إلى عصر الخلافة الراشدة.

قلت: فالحل بسيط إذن..

قال: بل الحل معقد جدا.. فمكان العمل الذي عملوه لن تصلوا إليه أبدا إلا إذا وصلتم إلى ما وصل إليه اليهود من تكنولوجيا متطورة.. فقد استعمل اليهود ما وصلوا إليه من تطور لإخفاء العمل الذي عملوه.

قلت: يا معلم.. أراك تنكر كل ما ذكرته.. فإلى ما تستند في إنكارك؟

قال: إلى قوله تعالى:﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾(الإسراء:٣٦)

قلت: فما في هذه الآية من الاستدلال؟

قال: لقد نهانا الله تعالى أن نتكلم فيما ليس لنا به علم.. وهذا مما ليس لنا به علم.

قلت: كيف ذلك؟

قال: متى تكلم العلماء عن أنواع الجراثيم؟

قلت: بعد أن اكتشفوها.

قال: بم اكتشفوها؟

قلت: بالأجهزة المكبرة.

قال: فإذا وصلتم إلى أجهزة تكشف السحر.. ففصلوا وقسموا كما تشاءون.

قلت: وقبل ذلك.. هل نترك السحرة يعيثون في الأرض فسادا؟

قال: لن يطيقوا أن يفعلوا شيئا إلا إذا أعطيتموهم أنتم جواز السفر إلى ذواتكم.

قلت: فما ترى من الأضرار التي يمكن للسحرة فعلها؟

قال: شيء واحد.. لا علاقة له بأجسادكم[1]، فلا تخافوا عليها.

قلت: وما هو؟

قال: لقد ذكر الله تعالى ضرر السحرة حاصرا له في ضرر واحد.

قلت: وما هو؟

قال: التفريق بين المرء وزوجه، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾(البقرة: من الآية١٠٢)

قلت: وما وجه الاستدلال في الآية.. ألا يمكن أن يكون ما ذكر هو بعض آثار السحر وتأثيراته؟

قال: لا.. النص لا يحتمل ذلك.. فالله تعالى جعل قوله:﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ تعريفا للسحر بذكر آثاره.. ولا يمكن للتعريف إلا أن يكون جامعا للمعرف.

قلت: أريد مثالا على ذلك؟

---

(١) إلا إذا احتوى السحر على مواد ضارة.

قال: أرأيت لو أن شخصا عرف الطب بأنه العلم الذي يداوي الزكام، أيكون هذا التعرف صحيحا؟

قلت: لا شك في كونه غير صحيح.

قال: لم؟

قلت: لأنه قصر الطب على وظيفة بسيطة من وظائفه.

قال: ولو عرفه بأنه:(ما يداوي العلل المختلفة)

قلت: حينها سيكون تعريفا صحيحا مقبولا؟

قال: فكيف يتهم القرآن الكريم إذن بالقصور في تعريف السحر.

قلت: فالسحر إذن يقتصر على قدرة واحدة هي التفريق بين الأزواج.

قال: نعم.. وهو ما نص عليه القرآن الكريم.. وهو تفريق يعتمد على التخييل الذي هو وسيلة الساحر الوحيدة.

قلت: كيف يكون التخييل؟

قال: الساحر المتقن لسحره قد ينجح في التأثير في مخيلة الزوج مثلا، فيرى زوجته في صورة بشعة تتقزز منها نفسه، فيبغضها أو يطلقها.

قلت: إذن علاقته مع الأزواج فقط.

قال: لا.. بل مع كل المتحابين.

قلت: هذا معروف ومشتهر، ويسمونه:(العطف والصرف)، فيجعلون الإنسان ينعطف على زوجته أو امرأة أخرى حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء، والصرف بالعكس من ذلك[1].

وفي النصوص ما يشير إليه، فقد قال ﷺ:(إن الرقى والتمائم والتولة شرك)، والتولة[2]: ما يحبب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره، وجعله من الشرك لاعتقادهم أن ذلك يؤثر ويفعل خلاف ما قدره الله تعالى.

وقد يسمون العطف:(سحر المحبة)، وهو عمل وتأثير يسعى الساحر من خلاله للجمع بين المتباغضين والمتنافرين، أو الجمع بين الأشخاص عامة لأسباب معينة بناء على توصية من قام بعمل السحر.

---

(١) مرجع المعالجين من القرآن الكريم والحديث الشريف – ص ٣٢٧ – ٣٢٨.

(٢) بكسر التاء وفتح الواو، انظر: النهاية في غريب الحديث – ١ / ٢٠٠.

وقد ذكر بعض العلماء من آثار هذا النوع من السحر قصة عجيبة يتداولها العامة لست أدري مدى صدقها.

قال: وما قال؟

قلت: ذكر أن امرأة رأت من زوجها شيئاً من الإعراض وعدم المودة التي تريدها منه، فهو يعطيها حقها ويعاملها كسائر النساء، لكنها تريد منه أكثر من ذلك من المحبة والبقاء عندها والملازمة لها، فدخلت عليها عجوز تعمل السحر، فأخبرتها بخبر زوجها، فأعطتها العجوز دواء في صرة، وأمرتها أن تجعله في طعامه، ولكن المرأة تورعت فجعلت الدواء في رغيف وأطعمته داجناً عندهم، فبعد أن أكله ذلك الداجن علق بها، فصار يتبعها ولا يفارقها ولا يستقر حتى يلصق رأسه ببطنها أو يجعله في حجرها وصار يلاحقها أينما ذهبت، فعجب زوجها من أمرها وأمره، ثم إنها أخبرت زوجها بأنها صرفت هذا الدواء عنه، ولو أعطته الدواء لفعل كما فعل الداجن، فلما أخبرته بادر بطلاقها، وقال: أخشى في المرة الثانية أن تجعليه في طعامي[1].

قال: ما لعلمائكم وهذه الأمور؟!.. وأي فرق بين العامة والعلماء إذا خاض العلماء في هذا؟!

قلت: أتنكر هذا؟

قال: يجب أن أنكره.. لقد ذكر الله تعالى أن هؤلاء السحرة يفرقون بين المرء وزوجه، ولم يقل يحببون بين المرء وزوجه.. وما كان لي أن أغادر ما نص عليه القرآن الكريم لأي لغو يرويه عامي أو ينقله عالم.

قلت: والتولة؟

قال: لقد ذكر ﷺ أنها من الشرك، ولم يذكر أنها من السحر.. ولم يذكر لها ﷺ أي أثر.

قلت: لقد ذكروا لهذا النوع من السحر آثارا وأعراضا من خلالها يقوم الرقاة برقاهم؟

قال: ما هي؟

قلت: هذه سبعة أعراض ذكرها بعضهم:

١. تغير الأحوال بشكل فجائي من كراهية وبغض إلى ود وحب.

٢. عدم حصول أية مشكلات اجتماعية مع توفر كافة الأسباب الصغيرة والكبيرة لمثل تلك المشكلات.

---

(١) الصواعق المرسلة في التصدي للمشعوذين والسحرة- ص ١٤٢،١٤١.

٣. القدرة الكبيرة على التكيف الاجتماعي والعاطفي مع الآخرين ممن عطفوا على المريض بواسطة السحر.

٤. المحبة المطلقة للأقوال والأفعال الصادرة عن هؤلاء الأشخاص.

٥. حسن الظن والثقة المطلقة بهؤلاء الأشخاص.

٦. رؤية هؤلاء الأشخاص بأشكال حسنة جميلة محببة للنفس.

٧. المحبة المطلقة لأماكن تواجد هؤلاء الأشخاص.

قال: أرى رقاتكم هؤلاء يحرمون المحبة بين الناس بنشر مثل هذه الخرافات.. ألم يسمعوا قول ابن مسعود ﷺ عن عمر ﷺ:(إذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر، إن إسلامه كان نصرا، وإن إمارته كانت فتحا، وأيم الله ما أعلم على الأرض شيئا إلا وقد وجد فقد عمر حتى العضاه، وأيم الله إني لأحسب بين عينيه ملكا يسدده ويرشده، وأيم الله لو أعلم أن كلبا يحب عمر لأحببته)[1]

وقد عبر عن هذا الوفاء في رواية أخرى، فعنه أنه مر على رجلين في المسجد، وقد اختلفا في آية من القرآن، فقال أحدهما: أقرأنيها عمر، وقال الآخر: أقرأنيها فلان، فقال ابن مسعود: أقرأهم كما أقرأها عمر، ثم هملت عيناه حتى بل الحصى، وهو قائم، ثم قال: إن عمر كان حائطا كثيفا يدخله المسلمون، ولا يخرجون منه، فمات عمر فانثلم الحائط، وهم يخرجون ولا يدخلون، ولو أن كلبا أحب عمر لأحببته، وما أحببت بحبي أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح بعد رسول الله ﷺ حبي لهؤلاء الثلاثة[2].

قلت: لعلهم لو سمعوه لذهبوا به إلى الرقاة ليزيل عنه هذا السحر الذي وضعه له عمر ﷺ.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة:٦/٣٥٥، مجمع الزوائد: ٩/٧٨، فضائل الصحابة لابن حنبل:١/٢٤٧.

(٢) مسند الشاشي:٢/٢٧٥.

علاج السحر

ذهبنا للقاعة الثانية، وهي القاعة المتخصصة في علاج من أصيب بالسحر، وقد فوجئت بأني لم أجد فيها إلا أفرادا محدودين بخلاف القاعة السابقة، فسألت المعلم عن سر ذلك، فقال: إن أكثر من جاءوا هذا المستشفى لعلاج السحر تبين لهم في قاعة التشخيص أنهم كانوا متوهمين، فلذلك رجعوا من حيث أتوا، مكتفين بذلك.

قلت: ولكني رأيت الخارجين مستبشرين.

قال: وما لهم لا يستبشرون.. لقد كان ما أوهموا به من سحر يقيد أرجلهم عن كل حركة، فلما علموا عجز السحر انطلقوا ونشطوا.. وكأنما نشطوا من عقال.

قلت: وهؤلاء الحاضرون في هذه القاعة؟

قال: هؤلاء شكوا في إمكانية أن يكون ما أصابهم نوع من السحر.

قلت: شكوا فقط.. ولم يتيقنوا.

قال: ليس في هذا الباب شيء يسمى اليقين.. إلا إذا أخبرك معصوم بهذا.. ألم تقرأ ما ورد من أن بعض اليهود سحروا رسول الله ﷺ، فلم يعرف حقيقة ما أصابه إلا بإخبار الملائكة ــ عليهم السلام ــ؟

قلت: بلى.. فقد ثبت من حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ أنها قالت: سحر رسول الله ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله. حتى إذا كان ذات يوم – أو ذات ليلة – وهو عندي، لكنه دعا ودعا ثم قال:(يا عائشة، أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب — أي مسحور –، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة، وجف طلع نخلة ذكر. قال: وأين هو؟ قال في بئر ذروان فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه. فجاء فقال: يا عائشة، كأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين، قلت: يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: قد عافاني الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شرا. فأمر بها فدفنت[1].

---

(١) البخاري ومسلم.

ولكن ــ يا معلم ــ لقد سمعت بعض الناس ينكرون هذا الحديث[1]، ورأيت بعضهم يبالغ في الإنكار عليهم إلى درجة تبديعهم.

قال: كلا الفريقين جانبا الصواب.

قلت: كيف ذلك؟

قال: الحديث صحيح من حيث النقل، ولا يصح أن نتسرع في رد المنقول، ولكن من رفضه خاف أن يروى مثل هذا للعامة، وهم يرون في السحر ما يرون فيه من القدرات، فيؤثر ذلك في اعتقادهم.

قلت: فكيف تنظر أنت للحديث؟

قال: لا ينبغي لمثل هذا الأحاديث أن تتزل إلى العامة، ألم يقل ﷺ:(كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع)[2]، بل ورد في روية أخرى:(كفى بالمرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع)[3]

قلت: فكيف تمكن اليهود من سحر النبي ﷺ، وقد حفظه الله وعصمه من الناس؟

قال: كما تمكنوا من وضع السم له في الطعام، فالسحر أقل من السم بكثير، وما حصل للنبي ﷺ من تأثير السحر لم يكن يعدوا بعض الخيالات المرتبطة بالدنيا مما لا علاقة له بالرسالة ولا بحياته[4].

قلت: ولكن مع ذلك لماذا مكنوا من ذلك؟

قال: ليقضي ﷺ بنفسه على أسطوة السحر المرعبة كما قضى على أسطورة التبني.

قلت: كيف هذا؟

---

(١) ومنهم سيد قطب ﷺ، فقد قال في تفسير سورة الفلق بعد إيراده لهذا الحديث:« ولكن هذه الروايات تخالف أصل العصمة النبوية في الفعل والتبليغ، ولا تستقيم مع الاعتقاد بأن كل فعل من أفعاله ﷺ وكل قول من أقواله سنة وشريعة، كما أنها تصطدم بنفي القرآن عن الرسول ﷺ أنه مسحور، وتكذيب المشركين فيما كانوا يدعونه من هذا الإفك. ومن ثم تستبعد هذه الروايات.. وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة. والمرجع هو القرآن. والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد. وهذه الروايات ليست من المتواتر. فضلا على أن نزول هاتين السورتين في مكة هو الراجح. مما يوهن أساس الروايات الأخرى » الظلال: ٦/٤٠٠٨.

(٢) مسلم.

(٣) مسلم.

(٤) نقل ابن حجر عن بعضهم أن المراد بالحديث أنه كان ﷺ يخيل إليه أنه وطئ زوجاته ولم يكن وطأهن، وهذا كثير ما يقع تخيله للإنسان في المنام فلا يبعد أن يخيل إليه في اليقظة. انظر: فتح الباري – ١٠ / ٢٢٧.

قال: لقد كان التبني شائعا إلى درجة أن الناس بقي في نفوسهم شيء من الزواج بزوجة المتبنى حتى لو ذكرت لهم إباحته، فلذلك انتدب ﷺ ليقضي على هذا النوع من الورع الذي لا مبرر له.

قلت: أكذلك الأمر بالنسبة للسحر؟

قال: أجل.. فالسحر في كل الشعوب من الأمور الشائعة.. والتي لها آثار النفسية والاجتماعية الخطيرة، فلذلك انتدب ﷺ ليرد بسلوكه على هذا.

قلت: فكيف يرد عليه؟

قال: لقد أنزل الله برحمته المعوذتين، وقد ذكر أن هذا هو سبب نزلهما، فكانا بذلك رحمة تكفيان الأمة عن كل تعويذة، وعن اللجوء لأي راق.

قلت: كيف هذا؟.. أيمكن أن نكتفي بالمعوذتين من دون الرجوع لأي راق لفك السحر؟

قال: أجل.. ألم يرو في الحديث عن أبي سعيد ﷺ:(أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما)[1]

قلت: ولكن العلماء يبالغون كثيرا في وجوب البحث عن السحر لفكه، وقد قال ابن القيم في هذا:(استخراج السحر وتبطيله هو أبلغ علاج كما صح عنه ﷺ أنه سأل ربه سبحانه وتعالى في ذلك فدله عليه فاستخرجه من بئر فكان في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر، فلما استخرجه ذهب ما به حتى كأنما نشط من عقال.. فهذا من أبلغ ما يعالج به المطبوب " المسحور " وهذا بمنزلة إزالة المادة الخبيثة من الجسد)[2]، وقال ابن باز:(ومن علاج السحر أيضا – وهو من أنفع علاجه – بذل الجهد في معرفة موضع السحر من أرض أو جبل أو غير ذلك فإذا عرف واستخرج وأتلف بطل السحر)[3]

قال: لا.. هذا ليس صحيحا.. ولا يصح الاستدلال بمثل هذا.. فبدل أن نكلف العامة بالبحث عن موضع السحر، وببذل الجهد في ذلك نكلفهم بالالتجاء إلى الله، وهو يكفيهم كل سوء رأوه أو لم يروه.. ثم من قال للعامة بأنهم مسحورون حتى يبذلوا جهودهم في البحث عن موضع السحر.

قلت: الأعراض التي يراها الرقاة.

---

(١) الترمذي والنسائي وابن ماجة، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) زاد المعاد: ٣ / ١٠٤.

(٣) فتوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز – برقم (٨٠١٦) – الصادرة بتاريخ ٢٢ / ١ / ١٤٠٥ هـ.

قال: لو طبقنا الأعراض التي ذكروها على جميع الناس لوجدنا الخلق جميعا مسحورون ابتداءا من الصحابة ﷺ إلى كل الأجيال التي تلتهم.. ولو راعينا ما ذكروا لأغلقنا جميع المستشفيات أو لحولناها إلى مراكز رقية، وحولنا مراكز البحوث إلى مراكز بحوث عن مواضع السحر.

قلت: وقد ذكروا من أساليب العلاج السدر، فقد ورد في كتب وهب بن منبه أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر، فيدقه بين حجرين، ثم يضربه بالماء، ويقرأ آية الكرسي والقواقل[1]، ثم يحسو منه ثلاث حسيات، ثم يغتسل به، فإنه يذهب عنه كل ما به، وقد ذكروا أنه جيد للرجل إذا حبس عن أهله)[2]

قال: ومن وهب بن المنبه؟

قلت: رجل من اليهود أسلم، فكان من التابعين.

قال: وهل أسلم لتعلموه، أم ليعلمكم؟

قلت: لا أخفي عليك ـــ يا معلم ـــ لقد تعلمنا عنه كثيرا.

قال: فارموا بكل ما تعلمتموه منه عرض البحر.. فقد أتاكم بها ﷺ نقية صافية، فأبيتم إلا تدنيسها برجس اليهود والنصارى.

قلت: ولكن قومي تلقوا قوله هذا بالقبول، وهم يفتون الناس بهذا.. ولهذا أصبح السدر عندنا من السلع الغالية.. وقد ذكر بعض كبار المفتين عندنا وصفة يبيعها الرقاة بوزنها ذهبا[3].

قال: وما للمفتين وهذا؟!.. إن دورهم هو تبيين أحكام الله التي نص عليها رسول الله ﷺ لا التي نص عليها وهب بن منبه.

قلت: ولكنها مجربة، وقد قال بعض علمائنا المعتبرين عن تلك الوصفة:(وكذا رقيت على بعض الأقارب أو الأحباب الذين حبسوا عن نسائهم، بما ذكره ابن كثير من ورقات السدر، وقراءة الآيات التي ذكرها، فوقع الشفاء بإذن الله)[4]

---

(١) القواقل: هي السور التي تبدأ بـــ (قل) وهي: الجن، الكافرون، والإخلاص، الفلق، والناس.

(٢) فتح الباري: ١٠ / ٢٣٣.

(٣) انظر: مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز: ٣ / ٢٧٩ – ٢٨٠.

(٤) الصواعق المرسلة في التصدي للمشعوذين والسحرة: ٦٠٦.

قال: عجبا لكم ولعلمائكم.. لا تعد لرواية مثل هذه الأمور.. فإني أشعر بالأسى عندما أسمع هذا.. إن العالم في الأمة خليفة لرسول الله ﷺ، فلا ينبغي أن يجاوز ما كان ﷺ يفعله.. فهل رأيت ﷺ فعل هذا؟

قلت: لا..

قال: فاكتفوا بما فعله.. ولا تبتدعوا، فكل بدعة ضلالة.

قلت: ولكن الرقية مما يجوز فيه الاجتهاد.

قال: ومن قال ذلك؟.. ومن قال بأن هناك رقية للسحر أصلا، ألم يحصر ﷺ الرقى في العين وذوات السموم؟

قلت: بلى.. ولكن العلماء يقيسون.

قال: القياس في الشهادة، لا في الغيب.

قلت:..

قال: سنذهب إلى قاعات الرقى، وسنرى الأحكام المرتبطة بها، فلا تعجل.

***

عند خروجنا من القاعة لاقاني رجل عليه سيما الصلاح وفي يده تمرات، فقال لي: خذ هذه التمرات، وتصبح بها فقد قال ﷺ:(مَنْ تَصَبَّحَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً لَمْ يَضُرَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ)[1]

قلت: أجل.. هذا صحيح، ولكن هناك من رد هذا من قومي، وشكك في الحديث[2].

قال: وما لقومك ولهذا.. أيريدون الاستدراك بعقولهم القاصرة على رسول الله ﷺ.. أين التسليم لما قال؟.. أين الرضا بما قال؟

قلت: والعقل؟

---

(١) البخاري.

(٢) ومن هؤلاء أحمد أمين، وقد رد عليه مصطفى السباعي في كتابه "السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي" (ص٢١٣) فقال:« لاشك في أن إقدام مؤلف كتاب "فجر الإسلام" على القطع بتكذيب هذا الحديث جرأة بالغة منه لا يمكن أن تقبل في المحيط العلمي بأي حال ما دام سنده صحيحاً بلا نزاع، وما دام متنه صحيحاً، لا يضره بعد ذلك أن الطب لم يكتشف حتى الآن خواص العجوة. ويقيني أنه لو كان في الحجاز معاهد طبية راقية، أو لو كان تمر العالية موجوداً عند الغربيين لاستطاع التحليل الطبي الحديث أن يكتشف فيه خواص كثيرة، ولعله يستطيع أن يكتشف هذه الخاصية العجيبة إن لم يكن اليوم ففي المستقبل إن شاء الله »

قال: العقل معقول.. أرأيت لو أن العلم تطور، وكشف لنا أسرار الصحة المودعة في هذا الحديث، فما يقول هؤلاء؟

قلت: سيسلمون.

قال: سيسلمون للعلم، لا لرسول الله.. ولكنهم قبل تسليمهم سيحرمون أنفسهم، وسيحرمون خلقا كثيرا مما ينفعهم بحجة أن عقولهم القاصرة لم تصل إلى تلك المدراك التي كان يتكلم منها رسول الله ﷺ.

اقترب منا رجل، وكأنه يتنصت لما نقول، فقال: العلم الآن بدأ يدرك صحة ما ورد في هذا الحديث الذي أنكره الأغبياء المعترضون.

قلت: فما قال؟ وما الذي اكتشف[1]؟

قال: أما بخصوص التسمم، فإن للسم الداخلي إنزيم في الكبد مسؤول عنه، فالكبد يقوم بعملية مضادات السموم، فإن بقي في الجسم سموم داخلية يرتفع الإنزيم، فإن نقصت انخفض، وكتجربة بسيطة لذلك على شخص ارتفع هذا الإنزيم في كبده، ولمدة شهر يتناول خلالها سبع تمرات عجوة، نجد أن الإنزيم بدأ ينخفض، ويدخل في الوضع الطبيعي.

قلت: ولكن الرسول ﷺ أخبر بأن في التمر وقاية.

قال: أجل.. فلو تتبعت الحالة لمدة سنة يتناول خلالها المريض أو السليم ما نص عليه رسول الله ﷺ فإنك تجد الإنزيم يبقى في وضعه الطبيعي.

قلت: ولكن هل أجريت بحوث علمية في هذا؟

قال: كثيرة.. ومن جهات مختلفة، منها الجمعية البريطانية المختصة بالاستجلاء البصري أو الاستجلاء السمعي فقد بحثوا في هذا الحديث بحثا مستفيضا، إلى جانب الدراسات التي تمت في جامعة الملك عبد العزيز، والقاهرة وغيرها، وقد اتفقت كلها على هذا..

ومن الأمثلة على ذلك أنهم جربوا هذا على المشتغلين في البطاريات، والذين يحدث لهم فشل كلوي نتيجة الكادميام، فالكادميام مشكلة كبيرة.. كبيرة جدا.

قلت: الكادميام.. مالكادميام؟

---

(١) انظر: الطب الحديث واستخدام الغذاء، د. عبد الباسط محمد السيد: المركز القومي للبحوث، حلقة في قناة الجزيرة،تاريخ الحلقة:٢٠٠٢/١٢/٠٤.

قال: إحدى العناصر الثقيلة التي يؤدي تسممها إلى الفشل الكلوي، ويؤدي إلى مشاكل كبيرة جداً.

قلت: فهل أفادت هؤلاء هذه التمرات؟

قال: أجل.. فقد وجدوا أن من تناول سبع تمرات عجوة يجد مضادات السموم في كبده سليمة.

قلت: فلم لم تنشروا بحوثا ترد على أولئك المخرفين؟

قال: نشرت بحوث كثيرة في هذا، بل إن هناك ١٢٠ بحث نشرت في هذا، بل إن هناك يهوديا اسمه (جولدمان) نشر بحثا عن هذا الحديث.

قلت: لقد تمنا بالحديث عن السم عن الحديث عن السحر..

قال: وهذا مما أثبت العلم تأثيره فيه أيضا.

قلت: أيمكن للأجهزة الحديثة أن تشخص السحر؟

قال: ليس تماما.. ولكن مع ذلك فإن الأجهزة المتطورة التي توصل إليها المهتمون بالروحانيات والتلباثي أثبتت أن أكل سبع تمرات عجوة تضع طيفا حول الإنسان لونه أزرق، ويستمر اللون الأزرق لمدة ١٢ ساعة.. ولا شك في أن لهذا الحصن المحيط بالإنسان تأثيرا في منع السحر.

٣ ـــ الاستعاذة من العين

قصدنا القاعة الثالثة من قاعات حصن الاستعاذة، فرأيت لافتة مكتوبا عليها قوله ﷺ:(استعيذوا بالله من العين، فإن العين حق)[1]

قلت للمعلم: أهذه هي القاعة التي تعالج فيها العين؟

قال: أجل.. فقد ذكر هذا الحديث المرض وعلاجه.. وفيه ما يغني عن كل تلك الأسفار التي اشتغلتم بها، وشغلتم الناس.

قلت: هذا صحيح.. فإن قومي يبالغون في أمر العين كثيرا.. بل لو تتبعت كلامهم لتصورت أن كل ما يحدث في الكون من حوادث ليس إلا أثرا من آثار بعض العيون السامة.

قال: فالنبي ﷺ ـــ لذلك ـــ أثبت تأثير العين، ولكنه لم يكتف بذلك، بل أعطى العلاج الشرعي الذي يكف شرها.

الاستعاذة:

قلت: تقصد الاستعاذة.

قال: أجل.. فهي وحدها الكافية الشافية، ولهذا كان ﷺ يعوّذ الحسن والحسين ـــ رضي الله عنهما ـــ بقوله:(أعيذكما بكلمات اللّه التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة)، ويقول:(هكذا كان إبراهيم يعوذ إسحاق وإسماعيل ـــ عليهما السلام ـــ)[2]

قلت: ولكن العين خطيرة، إنها تدخل الرجل القبر، والجمل القدر[3]؟

قال: وهل يمكن للعين، أي عين أن تقتحم أسوار قوله **تعالى**:﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾(الفلق:٥).. الحق أقول لك:(إن العين أضعفا شأنا، وصاحبها أهون أمرا من أن نلتفت إليه أو يستعبدنا).. ولهذا لم يأت في آية واحدة من القرآن الكريم:(إن العين لكم عدو مبين)، بل عدونا الوحيد المبين هو الشيطان الرجيم بوساوسه، لا بصرعه، قال **تعالى**:﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(فاطر:٦)

ثم سكت هنيهة، وصاح، وكأنه يخاطب اللاشيء:(ارجع أيها الخائف من العين إلى ربك، واسأله مزيد نعمه، ولا تخف أن يسلبها منك أي عائن، بل خف معاصيك وانحرافك وجحودك ولجوءك لغير حصون الله.. أما إذا أبيت إلا أن تخاف هؤلاء، فاسمع لما يقول الله **تعالى** فيمن

---

(١) ابن ماجه كتاب الطب باب العين، رقم (٣٥٠٨).

(٢) البخاري وأهل السنن.

(٣) روي في هذا:« العين تدخل الرجل القبر وتدخل الجمل القدر » ابن عدي وأبو نعيم في الحلية.

استجار من الرمضاء بالنار، قال **تعالى**:﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾(الجـــن:٦).. فلن يزيدك هؤلاء إلا رهقا وخوفا، ولن تشعر بلذة أي نعمة وعيون الناس ترمقك لتسلبها منك)

الاغتسال:

قلت: ولكن ورد في السنن ما يدل على الاسترقاء من العين بالاغتسال وغيره، فقد ورد في الحديث قوله ﷺ:(العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا)[1]

قال: هذا صحيح.. ولكن الرقية ــ كما سنرى رخصة ــ والكمال في الاكتفاء بالاستعاذة التي كان يفعلها ﷺ، ويخبر أن الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ كانوا يفعلونها، ألم تسمع قوله ﷺ في السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم (هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون)[2]

قلت: ولكن النبي ﷺ قال:(لا رقية إلا من عين أو حمة أو دم لا يرقأ)[3]

قال: هذا صحيح، ولكنه لا ينافي كونها رخصة، لأن النبي ﷺ وصفهم بكونهم لا يكتوون مع ورود النصوص بإباحة الكي.

قلت: فلم كان الأمر كذلك؟

قال: لقد وصف رسول الله ﷺ السبعين ألفا بكونهم (على ربهم يتوكلون) والمتوكل هو الواثق في الله الراضي بتحصين الله المكتفي به، أما القاصر عن هذه الرتبة، فإنه يحتاج إلى أسلحة أخرى رخص فيها ﷺ كالاغتسال ونحوه..

قلت: ولكن ــ يا معلم ــ ألم يبلغك حديث سهل ابن حنيف ﷺ، فقد روي أن أباه حدّثه: أن رسول اللّه ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة، حتى إذا كانوا بشعب الخرار من (الجحفة) اغتسل سهل بن الأحنف، وكان رجلاً أبيض حسن الجسم والجلد، فنظر إليه عامر بن ربيعة أخو بني عدي بن كعب وهو يغتسل، فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة، فلبط سهل، فأتى رسول اللّه ﷺ، فقيل له: يا رسول اللّه هل لك في سهل؟ واللّه ما يرفع رأسه ولا يفيق، قال:(هل تتهمون فيه من أحد؟)، قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة، فدعا رسول اللّه ﷺ عامرا

---

(١) مسلم.

(٢) البخاري ومسلم.

(٣) أبو داود.

فتغيظ عليه، وقال:(علام يقتل أحدكم أخاه؟ هلا إذا رأيت ما يعجبك برّكت؟)، ثم قال:(اغتسل له)، فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبته وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح، ثم صبَّ ذلك الماء عليه، فصبه رجل على رأسه وظهره من خلفه، ثم يكفأ القدح وراءه ففعل ذلك فراح سهل مع الناس ليس به بأس[1].

قال: هذه حادثة خاصة[2].. ولا يمكن القياس عليها[3]، ولا اعتبارها من الكمال.

---

(١) أحمد ورواه ابن ماجة بنحوه.

(٢) نرى أن هذا النوع من العلاج خاص بمن حصل منه ما حصل من عامر بن ربيعة، حيث أنه لم يكتف بإذيته بعينه بل صرح بذلك، حيث قال:« ما رأيتُ كاليوم ولا جلْدَ مُخَبَّأَة » بدون أن يبرك.

أما من لم يتلفظ بمثل هذا، واتهم بمجرد تهمة، فإنه من الحرج العظيم تكليفه بالاغتسال، ففي ذلك ما قد يؤثر في العلاقات الاجتماعية التي جاء الشرع بطلب تماسكها.

(٣) بنى المتأخرون على هذا، لتصورهم جواز القياس في مثل هذه المسائل، فأضافوا أمورا كثيرة كلها من البدع المحدثة، وخطرها ليس في كونها بدعة فقط، مع خطورة البدع، بل في تأثيرها الخطير علىالعلاقات الاجتماعية بين المسلمين، والوساوس الكثيرة التي تبثها في صفوفهم.

فمما أضيف في عصرنا من أساليب استخدام آثار المريض الداخلية أو الخارجية ووضعها بالماء ورشه بعد ذلك على المعين، وقد أفتى بجواز ذلك الشيخ محمد بن صالح العثيمين، حيث يقول:« وهناك طريقة أخرى – لعلاج العين – ولا مانع منها أيضا، وهي أن يؤخذ شيء من شعاره أي ما يلي جسمه من الثياب كالثوب، والطاقية والسروال وغيرها، أو التراب إذا مشى عليه وهو رطب، ويصب على ذلك ماء يرش به المصاب، أو يشربه. وهو مجرب » انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد: ١ / ٩٤.

والأخطر من ذلك قوله في موضع آخر:« وقد جرت العادة عندنا أنهم يأخذون من العائن ما يباشر جسمه من اللباس مثل الطاقية وما أشبه ذلك ويربصونها بالماء ثم يسقونها المصاب ورأينا ذلك يفيده حسبما تواتر عندنا من النقول »٣ [انظر: فتاوى الشيخ محمد بن صالح العثيمين – ١ / ١٩٦.]، فأي طبيب يسمح بمثل هذا السلوك، وأي طبع سليم يسمح لنفسه أن يتناول مثل هذا الشراب.

ومن الأساليب المعاصرة التي وجدت من يفتي بجوازها، بل يحث عليها استخدام أثر العائن على أي صفة كانت كالماء والقهوة والنوى.

فقد سئل الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين عن أخذ بعض الأثر المتبقي من بعض الناس الذين يشك بأنهم أصابوا شخص ما بالعين، كأخذ المتبقي في الكأس من ماء أو شراب، أو فضلات الأكل، وهل هذا صحيح معتمد؟

فأجاب:« نعم كل ذلك صحيح ونافع بالتجربة، وكذا غسل ثوبه الذي يلاصق بدنه أو يعرق فيه، أو غسل رجليه أو يديه لعسوم « وإذا استغسلتم فاغسلوا » فهو يعم غسل البدن كله، أو غسل بعض البدن، وحيث جرب أن أخذ شيء من أثره يفيد، فإن ذلك جائز كغسل نعله الذي يلبسه، أو جوربه الذي يباشر جلده، لأمره في الحديث بغسل داخله إزاره، أي الذي يلي جسده، وكذا ما مست يداه من عصى أو قفاز، وكذا فضل وضوئه الذي اغترف منه، أو ما لفظه من النوى، أو تعرق من عظم أو نحو ذلك، وهذا بحسب التجربة، وقد يصيب بإذن الله، وقد يستعصي ذلك بحسب قوة نفس العائن وضعفها »

قلت: كيف هذا؟

قال: أرأيت لو أن شخصا مثل سهل مر في شارع، فأصابته عيون الشارع جميعا، أو ظهر على هذه الشاشات التي تعتكفون عليها، فأصبته عيون الملايين، كيف يتعامل مع عيونهم؟

قلت: في ذلك الحين يكفيه أن يستعيذ.

قال: فكيف تأمره بالاستعاذة إذا صوبت إليه سهام الملايين، ولا تأمره بها إذا أصابه سهم واحد؟

قلت: السهم الواحد يمكن استغساله بخلاف السهام الكثيرة.

قال: وهل الاستعاذة تكفي من غير حاجة إلى الاغتسال؟

قلت: ورد النص بالاغتسال.

قال: وورد النص بغيره، بل ورد ما يدل على أن الكمال في غيره ألم تقرأ رقية جبريل لرسول الله ﷺ؟

قلت: بلى.. فعندما اشتكى رسول الله ﷺ، أتاه جبريل عليه السلام، فقال:(باسم اللّه أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من كل حاسد وعين واللّه يشفيك)[1]

قال: فهذه الاستعاذة كافية شافية، وهي لا تحتاج إلى ما يفعله رقاتكم مما يسمونه رقية التشخص.

قلت: كيف هذا؟

قال: لقد دعا جبريل لرسول الله ﷺ دعاء شاملا، فقال:(من كل شيء يؤذيك)، وهذا يكفي.. فلا يضرك أن تعلم المصدر الذي يؤذيك أو لا تعلمه.

قلت: اضرب لي مثالا يوضح لي هذا.

ومن الأساليب المعاصرة التي وجدت من يفتي بجوازها، بل يحث عليها استخدام آثار عتبات الأبواب أو أقفالها ونحوه ووضعها بالماء والاستحمام بها لإزالة أثر العين، فقد سئل الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين عن جواز استخدام آثار عتبات الأبواب والأقفال وذلك عن طريق مسح المكان ووضع ذلك في الماء واغتسال المعين منه؟

فأجاب:« قد عرف بالتجربة أن غسل كل ما مسه العائن ثم شرب المعين من غسالته أو صبه عليه يكون سببا في الشفاء من تلك العين بإذن الله تعالى، وحيث أن العائن يمس قفل الباب أو مفتح السيارة وقد يطأ حافيا على عتبة الباب أو يمس العصا أو المظلة أو الفنجان للقهوة أو الشاي، أو يأكل من التمر ويلفظ النوى بعد أن يمصه بفمه، فإن غسل هذه كلها مما جرب وحصل معه زوال أثر العين بإذن الله قياسا على أمره بالاغتسال كما في الحديث الصحيح » انظر: المنهل المعين في إثبات حقيقة الحسد والعين – ص ٢٣٧)

(١) أحمد.

قال: أرأيت لو اشتريت ما تسمونه بالمبيد، وكان في هذا المبيد قدرات هائلة بحيث تقتل جميع أنواع الحشرات، ثم جهلت أنت بعض هذه الأنواع.. أفترى المبيد فاتكا بها، أم أنه لا يفتك بها حتى تعرف ذلك النوع؟

قلت: لا يحتاج المبيد مني إلى معرفة ذلك.

قال: فهكذا فعل جبريل عليه السلام مع رسول الله ﷺ.

قلت: ولكنه جبريل.. وما أدراك ما جبريل؟

قال: فإن لم تقتدوا بجبريل عليه السلام، فبمن تقتدون؟.. أبإبليس؟

ستر المحاسن:

قلت: من الأمور التي نصوا عليها من باب الوقاية من شر العين، ستر محاسن من يخاف عليه من العين.

قال: فبم استدلوا على ذلك؟

قلت: هذا أمر يكاد يكون متفقا عليه، فقد روي أنَّ عثمان رضي الله عنه رأى صبياً مليحاً، فقال:(دَسِّمُوا نُونَتَه[1]، لئلا تُصيبه العَيْن)[2]

وقد قال الشاعر:

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الْكَمَالِ إِلَى عَيبٍ يُوَقِّيـــهِ مِـــنَ الْعَيْنِ

ونتيجة لهذا، نص كل من تكلم في هذا الباب على هذا النوع من الوقاية، وقد قال محمد بن مفلح:(وليحترز الحسن من العين والحسد بتوحيش حسنه)[3]

وقد اعتبر بعضهم هذا مما شرعه الله من أسباب الوقاية مستدلا عليه بقوله **تعالى**:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾(النساء – الآية ٧١) قائلا:(وهو يعم الحذر من كل ما فيه ضرر على النفس أو المال)[4]

قال: إن هذا الكلام يحمل أنفاسا من شؤم التطير، وخطره عظيم، وما ورد عن عثمان رضي الله عنه إما أن يكون غير صحيح، أو أنه مجرد اجتهاد منه، لأن الأدلة الشرعية تأمر بإظهار نعمة الله لا

---

(١) أي: سَوِّدُوا نونته، والنونة: النُّقرة التي تكون في ذقن الصبيِّ الصغير.

(٢) البغويُّ في كتاب ((شرح السُّـنَّة))، وقال الخطَّابي في ((غريب الحديث)) له عن عثمان: إنه رأى صبياً تأخذه العَيْن، فقال: دسِّموا نونته.

(٣) الآداب الشرعية – ٣ / ٦٠

(٤) انظر: المنهل المعين في إثبات حقيقة الحسد والعين – ٢١٨، ٢١٩.

سترها، وقد قال ﷺ:(من كان له شعر فليكرمه)[1]، وقد قال ﷺ:(إن الله تعالى جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده ويبغض البؤس والتباؤس)[2]

قلت: ولكن النبي ﷺ قال:(استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود)[3]

قال: إن هذا الحديث لا يدل على هذا المعنى، بل هو من جنس قوله **تعالى** على لسان يعقوب عليه السلام:﴿ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(يوسف:٥)

فالخوف الذي خافه يعقوب عليه السلام هنا ليس خوفا من العين، وإنما الخوف من كيد إخوته له، ولذلك أمر النبي ﷺ بالكتمان عن الحسدة حتى لا يسعوا في خلاف مقصود المحسود.

قلت: وما تقول فيما قال المفسرون من قوله **تعالى**:﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(يوسف:٦٧)، فقد أطبق المفسرون على اعتبار نهيه إياهم عن الدخول من باب واحد من باب الخوف من العين.

قال: لا ينافي ذلك ما ذكرنا، لأنه لا يحصل بدخولهم من أبواب متفرقة أي مضرة، فهم لم يكتموا أي نعمة.

زيادة على أن مراد يعقوب عليه السلام هو الاحتياط الأمني لهم، ذلك أن دخول هذه المجموعة إلى مصر والسير في شوارعها، قد يثير الحسد والبغضاء في بعض النفوس الضعيفة فيسعون ضدّهم عند السلطان ويظهرونهم كمجموعة أجنبية تحاول العبث بأمن البلد ونظامه، فحاول يعقوب عليه السلام أن يجنبهم بنصيحته عن هذه المشاكل[4].

قلت: وما الخطر في هذا النوع من الوقاية؟

قال: خطره أنه جر سلوكيات كثيرة منحرفة في المجتمع، تقرب من التطير المنهي عنه، فلذلك كان الأولى منعه، والاكتفاء بما ورد في النصوص الصحيحة من التعويذات.

---

(١) أبو داود.

(٢) البيهقي عن أبي سعيد.

(٣) العقيلي، وابن عدي، والطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية، والخرائطي في إعتلال القلوب وابن عساكر، قال المناوي في فيض القدير (٤٩٣/١): الحديث ضعيف ومنقطع، ولما ساق الحافظ العراقي الخبر المشروح جزم بضعفه واقتصر عليه.

(٤) انظر: الأمثل، وهو قول للجبائي، مع العلم أن الشيرازي لم ينف ما ذكره المفسرون من العين.

فالنبي ﷺ لم يدسم نونة الحسن والحسين ــ رضي الله عنهما ــ مع جمالهما وكمالهما وكونهما من آل بيت النبوة، وإنما كان يعوذهما بقوله:(أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة) ويقول:(هكذا كان إبراهيم يعوذ اسحق واسماعيل عليهما السلام)[1]

وكان رسولُ الله ﷺ إذا أوى إلى فراشِهِ نَفَثَ فى كَفَّيْهِ:﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ والْمُعَوِّذَتَيْن. ثم يمسحُ بهما وجهه، وما بلغت يدُه من جسده.

الإحسان إلى العائن:

قلت له: مما ذكروه من أساليب الوقاية من العين(الإحسان إلى من عرفت أصابته بالعين كإحسان الغني إلى الفقير المستشرف لما في يد الغني)[2] كأسلوب من أساليب الوقاية.

قال لي: بأي نص استدلوا؟

قلت: لا أعلم أنهم ذكروا نصا.

فقال: فهذا كلام بلا علم، بل بما يناقض العلم، فمن أي الأبواب يدخل هذا الإحسان؟، هل هو من الصدقات؟ أو من الهبات؟

قلت مازحا: لعله يخرجه من الزكاة ليضعه في نصيب المؤلفة قلوبهم.

ضحك، وقال: وأخير تحول الحاسد إلى المؤلفة قلوبهم.

معاقبة العائن:

قلت له: ما تقول فيما ذكره العلماء من معاقبة العائن، كقول ابن القيم:(وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء أن من عرف بذلك حبسه الإمام وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت وهذا هو الصواب قطعا)[3]

ومثله قول العيني ناقلا عن القاضي عياض ناقلا عن بعض العلماء:(ينبغي إذا عرف واحد بالإصابة بالعين أن يجتنب وأن يحترز منه وينبغي للإمام منعه من مداخلة الناس، ويلزمه بلزوم

---

(١) البخاري.

(٢) قاله الدكتور عبدالله الطيار والشيخ سامي المبارك بتقريض الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، انظر: فتح الحق المبين في علاج الصرع والسحر والعين – ص ١٩٢.

(٣) الطب النبوي، ص ١٦٨.

بيته، وإن كان فقيرا لزمه ما يكفيه فضرره أكثر من آكل الثوم والبصل الذي منعه النبي ﷺ من دخول المسجد لئلا يؤذي الناس ومن ضرر المجذوم الذي منعه عمرﷺ)[1]

قال: كيف يقولون هذا، وهم يعلمون أن العقوبات في الشرع مقدرة، وأنها مع ذلك تدرأ بأبسط الشبهات، فكيف يسمح لموسوس مغرور منبهر بكمالاته أن يحبس الناس مدى الحياة لكونهم أعجبوا بطلعته البهية، أو جماله الرائع؟

ثم ما هذا القياس الذي قاسوه، وهل حبس رسول الله ﷺ آكل الثوم والبصل؟

ثم كيف يقاس الثوم والبصل والجذام[2] وهما من الشهادة على العين، وهي غيب؟

ثم لماذا لم يحكموا بفقأ عينه، فهي المعاقبة، لا هو، ولعل ذلك أرحم له من الحبس مدى الحياة؟

أوراد غريبة:

قلت: فقد ذكروا صيغا وأورادا مجربة في دفع شر العين.

قال: فاعرض علي ما ذكروا.

قلت: من الأمثلة القديمة على ذلك ما ذكره ابن القيم في الكتاب الذي خصصه لهدي النبي ﷺ، حيث قال:(من الرُّقَى التى تردُّ العَيْن ما ذُكر عن أبى عبد الله السَّاجى، أنه كان فى بعض أسفاره للحج أو الغزو على ناقة فارِهَةٍ، وكان فى الرفقة رجل عائن، قلَّما نظر إلى شىء إلا

---

(١) عمدة القاري بشرح صحيح البخاري: ١٧ / ٤٠٥.

(٢) أثبت الطب الحديث أن مرض الجذام من أخطر الأمراض الجلدية التي تنتقل بالعدوى من خلال ميكروب الجذام الذي أمكن مشاهدته والتعرف عليه أخيرا منذ أكثر من مائة عام، ومع ذلك لم يستطع العلم الحديث السيطرة عليه حتى الآن.

ومرض الجذام يصيب أطراف الأعصاب، مثل أطراف أعصاب الذراعين، ويجعل المريض يفقد الإحساس، فلا يحس بالألم والحرارة والبرودة، بل ويمكن أن تدخل الشوكة في قدمه دون أن يشعر، فضلا عن إصابة المريض بضمور في عضلات اليدين والساقين وقروح في الجلد، خاصة في القدمين واليدين وتتآكل عظامهما، وتفقد بعض أجزاء منهما كالأصابع، ويمكن أن يصيب القرنية فيؤثر على الإبصار.

كما أن مرض الجذام يصيب الخصيتين.. وهذا يعني أن مريض الجذام يفقد القدرة الجنسية، وبالتالي لا تكون له ذرية.

وهو نوعان:

النوع العقدي: وهو الذي يصيب ذوى المناعة الضعيفة، ويظهر على هيئة عقيدات مختلفة الحجم تصيب الجسم، وخاصة الوجه فتكسبه شكلا خاصا يشبه وجه الأسد.. كما يسبب هذا النوع سقوط شعر الحاجبين وقد يصيب الغشاء المخاطي للأنف، ويسبب نزيفا منه.

النوع البقعي الخدرى: وهو يصيب الجلد على هيئة بقع باهتة مختلفة الأشكال والأحجام.. وتتميز هذه البقع بفقدان الحساسية والعرق ونقص في كمية صبغة خلايا الجلد، وهذا النوع يصيب المرضى ذوي المناعة الجيدة نسبيا. انظر: الإعجاز العلمى في الإسلام والسنة النبوية " محمد كامل عبد الصمد.

أتلفه، قيل لأبي عبد الله: احفَظْ ناقَتكَ مِنَ العائِن، فقال: ليس له إلى ناقتي سبيل، فأُخْبِرَ العائِنُ بقوله، فتَحيَّنَ غَيبة أبي عبد الله، فجاء إلى رَحْله، فنَظر إلى الناقة، فاضطربتْ وسقطت، فجاء أبو عبد الله، فأُخْبِرَ أنَّ العائِنَ قد عانها، وهي كما ترى، فقال: دُلُّوني عليه. فدُلَّ، فوقف عليه، وقال: بسمِ اللَّه، حَبْسٌ حابسٌ، وحَجَرٌ يابسٌ، وشِهابٌ قابسٌ، ردَّت عين العائن عليه، وعلى أحبِّ الناس إليه، ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُور ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾(الملك: ٣-٤) فخرجتْ حَدَقَتا العائنِ، وقامت الناقةُ لا بأسَ بها)[1]

قال: ما هذا؟ لا يصح أن يذكر هذا في (زاد المعاد) لعله مما دلس على ابن القيم.

قلت: فما تنكر منه؟

قال: لا شيء في هذا النص معروف، بل كله منكر، فهذه صيغ غريبة، تحمل عقائد غريبة وسلوكا غريبا لا علاقة له بعقائد الإسلام ولا سلوكه.

فما كل تلك الثقة بتلك الألفاظ المسجوعة التي لا تختلف عن ألفاظ مسيملة؟

أو ليس في ذكرها بتلك الثقة دعوة للاستعاضة عن استعاذت القرآن والسنة، فقد ذكرها، وكأنها الطلسم الذي ينفي كل سحر، ويحل كل تعويذة؟

ثم لماذا ترد العين على أحب الناس إليه، وما ذنب المسكين حتى يتحمل جريرة العائن؟

ثم لماذا تحور معاني القرآن الكريم لغير ما أنزلت له؟

ثم لماذا كانت الناقة أهم عنده من أخيه، فقد أقام ناقته بتعويذته، وأخرج حدقتي عين أخيه؟

ثم ما معنى (حَبْسٌ حابسٌ، وحَجَرٌ يابسٌ، وشِهابٌ قابسٌ)؟

وأسئلة غيرها كثير لا نوجهها إلى ابن القيم رحمه الله، وإنما نوجهها لمن ينشر مثل هذه الشعوذات لينسخ بها المعوذات التي وردت بها النصوص.

قلت: والخطر الأكبر فيما ذكره ابن القيم لا يقتصر على إقراره مثل هذا، بل في إتاحة الفرص لمن يضع مثل هذا الدجل.

قال: أهناك غير هذا؟

قلت: كثير جدا.. وسأقتصر على مثال يكفي وحده لبيان مدى الدجل الذي تحمله الرقية المعاصرة، فقد ذكر بعضهم كيفيات مختلفة لعلاج الحسد، كوصفات تتعلق بالأمراض المختلفة.

فمنها كيفية علاج الحسد في الصحة والجمال، وهذه الكيفية ننقلها بحروفها فيما يلي:(يستمر علاج الحسد في الصحه والجمال إلى ثلاثة أيام وهي على النحو التالي: في اليوم الأول:

---

(١) زاد المعاد: ١٧٤/٤.

الاغتسال بماء الوضوء غسلا شرعيا بعد صلاة الفجر وقبل بزوغ الشمس، وبعد الاغتسال، قراءة مجموعة المعوذات، وبعد صلاة الضحى قراءة سورة " يس "، وبعد صلاة الظهر قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة العصر قراءة سورة " يوسف " وبعد صلاة المغرب قراءة مجموعة التسابيح، وبعد صلاة العشاء قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة قيام الليل قراءة مجموعة الاستغفار

وفي اليوم الثاني: الاغتسال بماء الوضوء غسلا شرعيا بعد صلاة الفجر وقبل بزوغ الشمس، وبعد الاغتسال قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة الضحى قراءة الأذكار الصباحية، وبعد صلاة الظهر قراءة مجموعة المعوذات، وبعد صلاة العصر قراءة سورة " الكهف "، وبعد صلاة المغرب قراءة مجموعة التسابيح، وبعد صلاة العشاء قراءة الرقى الشرعية.

وفي اليوم الثالث: الاغتسال بماء الوضوء بعد صلاة الفجر وقبل بزوغ الشمس غسلا شرعيا، وبعد الاغتسال قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة الضحى قراءة سورة " المزمل "، وبعد صلاة الظهر قراءة مجموعة المعوذات، وبعد صلاة العصر قراءة سورة " المدثر "، وبعد صلاة المغرب قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة العشاء قراءة مجموعة المعوذات، وبعد صلاة قيام الليل قراءة مجموعة الاستغفار)

وهذه كيفية أخرى خاصة بعلاج الحسد في المال والبنين:(يستمر علاج حسد المال والبنين ثلاثة أيام وهي على النحو التالي: في اليوم الأول: وبعد صلاة الفجر قراءة سورة " الرحمن "، وبعد صلاة الضحى قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة الظهر قراءة مجموعة المعوذات، وبعد صلاة العصر قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة المغرب قراءة سورة " الواقعة "، وبعد صلاة العشاء قراءة مجموعة التسابيح، وبعد صلاة قيام الليل قراءة مجموعة الاستغفار ويختم بسورة "النجم ".

وفي اليوم الثاني: وبعد صلاة الفجر قراءة سورة " الرحمن "، وبعد صلاة الضحى قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة الظهر قراءة سورة " البقرة "، وبعد صلاة العصر قراءة مجموعة المعوذات، وبعد صلاة المغرب قراءة سورة " الملك "، وبعد صلاة العشاء قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة قيام الليل قراءة مجموعة الاستغفار والدعاء الذي يريده.

وفي اليوم الثالث: ينظف أرضيات البيت بماء الوضوء بعد صلاة الفجر وقبل بزوغ الشمس، وبعد غسله قراءة سورة " الصافات "، وبعد صلاة الضحى قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة الظهر قراءة سورة " الحديد "، وبعد صلاة العصر قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة المغرب قراءة

مجموعة التسابيح، وبعد صلاة العشاء قراءة سورة " الواقعة " وبعد صلاة قيام الليل قراءة مجموعة الاستغفار ثم يختم بالدعاء الذي يريده)

وهذه كيفية ثالثة خاصة بعلاج الحسد في المنصب والجاه:(يستمر علاج الحسد في المنصب والجاه الى ثلاثة ايام وهي على النحو التالي:

في اليوم الأول: الاغتسال بماء الوضوء غسلا شرعيا بعد صلاة الفجر وقبل بزوغ الشمس وقراءة مجموعة المعوذات بعد الاغتسال، وبعد صلاة الضحى قراءة مجموعة التسابيح، وبعد صلاة الظهر قراءة مجموعة الاستغفار، وبعد صلاة العصر قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة المغرب قراءة الأذكار المسائية، وبعد صلاة العشاء قراءة سورة " يس "، وبعد صلاة قيام الليل قراءة مجموعة الاستغفار.

وفي اليوم الثاني: الاغتسال بماء الوضوء بعد صلاة الفجر وقبل بزوغ الشمس، وبعد صلاة الضحى قراءة الرقى الشرعية والأذكار الصباحية، وبعد صلاة الظهر قراءة سورة " الصافات "، وبعد صلاة العصر قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة المغرب قراءة الأذكار المسائية، وبعد صلاة العشاء قراءة مجموعة التسابيح، وبعد صلاة قيام الليل قراءة مجموعة الاستغفار ثم يختم بالدعاء الذي يريده.

وفي اليوم الثالث: الاغتسال بماء الوضوء بعد صلاة الفجر وقبل بزوغ الشمس ثم قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة الضحى قراءة مجموعة المعوذات، وبعد صلاة الظهر قراءة سورة " الجن "، وبعد صلاة العصر قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة المغرب قراءة الأذكار المسائية، وبعد صلاة العشاء قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة قيام الليل قراءة مجموعة الاستغفار ثم يختم بالدعاء الذي يريده)

قال: بأي سند نقل هذا المبتدع كل هذه الكيفيات؟

قلت: لا سند لهذا..

قال: فهي شريعة جديدة وضعوها.. فحذر قومك منها.. وحذرهم من هؤلاء الذين يريدون أن ينسخوا شريعة العقل والحكمة بشريعة الشعوذة والخرافة.

التبريك:

قلت: ألا يمكن أن يقي العائن شر عينه عن الناس؟

قال: بلى، فقد ورد في النصوص ما يدل على إمكانية دفع العائن شر عينه عن الناس.

قلت: فماذا ورد من ذلك؟

قال: أن يقول:(اللَّهُمَّ بَارِكْ عليه)، وقد قال ﷺ لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حُنيف:(ألا برَّكْتَ) أي: قلتَ: اللَّهُمَّ بارِكْ عليه.

ومثله كل الصيغ القريبة من هذا، كقول (ما شاء الله لا قُوَّة إلا بالله) فقد روى هشام بن عروة، عن أبيه، أنه كان إذا رأى شيئاً يُعجِبُه، أو دخل حائطاً مِن حِيطانه، قال:(ما شاء الله، لا قُوَّة إلا بالله)

قلت: وما علاقة هذه الألفاظ بالوقاية من العين؟

قال: هذا يقودنا إلى سبب العين.

قلت: فما سببها؟

قال: العين القاصرة الحاسدة التي لا ترى فضل الله عليها، فدلها رسول الله ﷺ على النظر إلى قدرة الله الذي لا يعجزه شيء، فتكسر بقوة الإيمان رماح الحسد.

قلت: لا أقصد هذا.

قال: فما تقصد؟

قلت: لقد خاطبنا المؤمنين.. وبينت وجه الصواب في كيفية التعامل مع العين، فكيف نخاطب من ينكرها، ونبين له صدق اعتباره ﷺ العين حقا.

قال: هذا متكلم يبحث عن الشبهات ليرد عليها.. وسيجيبك.

قلت: إنها صدفة غريبة أن يحضر معنا.

قال: ليس هناك مكان للصدفة.. ألم تسمع قوله **تعالى**:﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(القمر:٤٩)؟

تدخل الرجل الذي أشار إليه من غير أن أسأله، فقال: لقد كشفت الدراسات الحديثة[1] أن للإنسان قدرات فوق القدرات التي نراها.. وهي ليست حكراً على أحد أو خاصية يتمتع بها أناس متميزون عن غيرهم، بل هي موجودة في معظم البشر، وأقل البشر، شريطة أن يدرك قدراته ويعرف الطرق لاستخدامها.

قلت: ما تقصد؟

قال: أنا لا أخاطبك أنت.. بل أخاطب الذين ينكرون العين.. والقوى الخارقة.

قلت: أنت تذكر أخبار الدراسات الحديثة.. فعلام استندت هذه الدراسات؟

---

(١) انظر: كتاب: The Field: The Quest for Secret Force of the Universe نقلا عن: فراس نور الحق محرر موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

قال: من الأمثلة الكثيرة التي رأتها القدرة على احتراق المادة بالنفس والتي امتلكها الشاب ماثيومانينغ من قرية لينتون قرب مدينة كامبردج، فقد كان باستطاعته طي الملاعق والسكاكين، وتغيير شكلها بمجرد النظر، وكان ينظر إلى عقارب الساعة فيوقفها عن الحركة، بل يستطيع إيقاف التيار الكهربائي..و ثبتت لديه القدرة على التأثير في سريان الدم في الأوعية والشرايين وكذلك التأثير على مرض السرطان.

ويعرف عن نابليون بونابرت أنه كان ذا نظرة حسد ثاقبة، فقد عرف عنه أنه إذا ثبت نظره على خصمه سبب له متاعب كبيرة، وإذا نظر بنظرته الحاسدة إلى شيء ما حطم ذلك الشيء.

قلت: فكيف تعرفت الدراسات الحديثة على مدى صدق هذا؟

قال: بوسائلها المعروفة.. وسأذكر لك نموذجا عن هذا بأكثر هذه الحالات غرابة، وأكثرها مصداقية، وذات توثيق علمي، وهي التجربة التي أجريت على نيليا ميخايلوفا التي كان باستطاعتها أنها بمجرد النظر من علي بعد ستة أقدام أن تفصل بياض البيضة عن صفارها مستخدمة في ذلك مقدرتها الخاصة جداً في تحريك الأجسام المادية عن بعد، ودون أن تقربها.

وقد أجريت هذه التجربة وسط حشد من العلماء بجامعة لينجراد، وباستخدام آلات التصوير لتسجيل الحدث لحظة بلحظة، وباستعمال العديد من الأجهزة التي تقيس الضغط و النبض وأنواع الإشعاعات التي تسود المخ أثناء التجربة، وقد نجحت السيدة نيليا في فصل صفار البيضة عن بياضها خلال نصف ساعة، وقد كشفت الملاحظة و أجهزة القياس على جسد السيدة نيليا عن نشاط غير منتظم في القلب مع زيادة النبض.. وارتفاع شديد في نسبة السكر.. وفقدت رطلين من وزنها.. وخرجت من التجربة تعاني من الضعف بشكل عام.. وأصيبت بما يشبه فقدان البصر المؤقت.. وتعاني من آلام شديدة في الأطراف.. وظلت لعدة أيام بعد التجربة غير قادرة على النوم.. وفقدت قدرتها على التذوق.

وقد كان اكتشاف حالة السيدة نيليا بفضل العالم البيولوجي إدوارد فاموف، الأستاذ بجامعة موسكو، والذي أعد دراسات على قدراتها، وذلك باستخدام عيدان الثقاب التي تستطيع نيليا تحريكها بتمرير يدها عليها، وهي مبعثرة على طاولة، ثم باستخدام لوح زجاجي بين يديها و بين عيدان الثقاب.

قلت: فكيف فسرت هذه الدراسات هذه الأمور الخارقة؟

قال: لقد ذكرت الكاتبة والباحثة الإنجليزية والصحفية التي جمعت أخطر دراسات في مجال الطاقة (لين ماكتاجارات) في كتابها:(البحث عن سر قوة الكون) ما يبين تصورهم لسر هذا،

فقد ذكرت أن الكون مزود بطاقة ومتصل ببعضه البعض، ويؤثر كل جزء فيه بالآخر، ويبنى على ما توصلت إليه دراسات الـ (Quan— رضي الله عنه —um Physics) التي خرجت بعد نيوتن، ونظريات ألبرت آينشتاين في الطاقة والزمان.

فإحدى هذه الدراسات، على سبيل المثال، درست الذرة، وما داخلها (نواة والكترون)، ويسمى هذا العلم الفيزياء الذرية، ثم درسوا النواة في الداخل والإلكترون، ويسمى هذا العلم الفيزياء النووية، ثم درسوا جزيئات النواة ويسمى هذا العلم فيزياء الأشياء أو الجزيئات (Par— رضي الله عنه —icle Physics).

ومعلوم أن الإلكترون يلف حول النواة بعكس مدار الساعة ولما نظروا في دوران وحركة الجزيئات الصغيرة في النواة توصلوا إلى حقيقة مذهلة حيث أنها تتحرك يميناً أو شمالاً أو بدوران بحسب فكرة الباحث حيثما توقع تسير.

ولذلك توصلوا إلى أن الفكرة تؤثر في حركة الجزيئيات الداخلية في النواة، وبالتالي فإن الفكرة بقوتها قد تؤثر في النواة، وإذا كانت أقوى أثرت بالذرة، وإذا كانت أقوى أثرت بالبيئة المليئة بالذرات، كما يحصل للنفس الحاسدة أو التخاطر أو الكشف أو السحر أو الإلهام أو غيرها من أمور.

٤ ــ ملاجئ إلهية

قصدنا القاعة الرابعة من قاعات حصن الاستعاذة، فرأيت لافتة مكتوبا عليها قوله تعالى:﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾(الانفطار:١٠)

قلت للمعلم: ما هذه القاعة؟

قال: هذه القاعة تملأ صدرك بالثقة في الملاجئ التي وضعها الله لحمايتك.

قلت: ولكن الآية تتحدث عن الملائكة ــ عليهم السلام ــ

قال: لقد شرفكم الله ــ معشر بني آدم ــ بأن وكل الملائكة بحفظكم، فقال تعالى:﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾(الأنعام:٦١)، وقال ﷻ:﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾(الانفطار:١٠).. وهل يمكن لأي ظلمة أن تمحو نور الملائكة؟

قلت: أجل.. فقد وردت الآثار عن السلف الصالح ﷺ تفسر الوظائف التي وكل بها هؤلاء الملائكة ــ عليهم السلام ــ فعن علي ــ رضي الله عنه ــ قال:(ليس من عبد إلا ومعه ملائكة يحفظونه من أن يقع عليه حائط، أو يتردى في بئر، أو يأكله سبع، أو غرق أو حرق، فإذا جاء القدر، خلوا بينه وبين القدر)

وقال ــ رضي الله عنه ــ:(لكل عبد حفظة يحفظونه، لا يخر عليه حائط أو يتردى في بئر أو تصيبه دابة، حتى إذا جاء القدر الذي قدر له، خلت عنه الحفظة فأصابه ما شاء الله أن يصيبه)[1]

ومن مظاهر الحفظ ما عبر عنه ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ بقوله:(إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى ييسر له فينظر الله إليه، فيقول للملائكة اصرفوه عنه فإنه إن يسرته له أدخلته النار، فيصرفه الله عنه فيظل يتطير بقوله سبني فلان وأهانني فلان، وما هو إلا فضل الله عز جل)

قال: وقد نص القرآن الكريم على تعدد هؤلاء الملائكة الحفظة وتعاقبهم على الإنسان، فقال ﷻ:﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾(الرعد: من الآية١١) أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل، وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر.

---

(١) أبو داود في القدر.

قلت: فالإنسان بهذا الاعتبار محاط في كل وقت بأربعة ملائكة، اثنان عن اليمين والشمال، يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، وأحد من ورائه وآخر من قدامه.

قال: بل روي أكثر من هذا العدد بكثير، فعن أبي أمامة ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ:(وكل بالمؤمن ثلثمائة وستون ملكا، يدفعون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك، للبصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل من الذباب في اليوم الصائف، وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل، كلهم باسط يديه فاغر فاه، وما لو وكل العبد فيه إلى نفسه طرفة عين، لاختطفته الشياطين)[1]

وقد روي من شدة حرص الملائكة ــ عليهم السلام ــ على من يوكلان به إلى درجات أنهم لا ينصرفون عنه إلا بعد الاطمئنان إلى تسليمه لمن يعقبهم من الملائكة ــ عليهم السلام ــ، قال أبو أمامة ــ رضي الله عنه ــ:(ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه، حتى يسلمه للذي قدر له)

قلت: فصحبة الإنسان للملائكة ــ عليهم السلام ــ دائمة؟

قال: أجل.. فقد قال ﷺ:(إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرموهم)[2]

قلت: ولكن كيف تقول هذا ــ يا معلم ــ والإنسان قد تعتريه العوارض، وتترل به الآفات، أترى الملائكة ــ عليهم الصلاة والسلام ــ تقصر في وظائفها؟

قال: لا.. معاذ الله.. إن هذا الحفظ مرتبط بأمر الله، كما قال ﷻ:﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾(الرعد: من الآية١١)، قال ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ في تفسيرها:(ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر اللّه خلوا عنه)، وقال مجاهد:(ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال له الملك: وراءك، إلا شيء أذن اللّه فيه فيصيبه)

قلت: فهل لسلوك الإنسان وعمله تأثير في هذا؟

قال: أجل.. لقد ورد في النصوص ما يدل على أن لأعمال الإنسان دورا في هذا الحفظ، كما قال ﷺ لابن عباس ــ رضي الله عنه ــ:(يا غلام احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده

---

(١) ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان، والطبراني والصابوني في المائتين.

(٢) الترمذي، وقال: غريب.

تجاهك وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا على ذلك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك قضى القضاء وجفت الأقلام وطويت الصحف)[1]

ولهذا ورد بعد قوله ﷻ:﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾(الرعد: من الآية١١) قوله ﷻ:﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾(الرعد: من الآية١١)

ويروى في هذا أن الله ﷻ أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك:(إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة اللّه فيتحولون منها إلى معصية اللّه إلا حوّل اللّه عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون)

***

رأيت أبوابا كثيرة داخل هذه القاعة، فسألت المعلم عنها، فقال: هذه أبواب الملاجئ التي نصبها الله لعباده ليؤووا إليها فيقيهم من كل بلاء.

قلت: فهل سنزورها جميعا؟

قال: لا.. سنكتفي بزيارة ثلاثة منها.

قلت: فما أولها؟

قال: القرآن الكريم، فهو الكتاب الذي يضعك في محلك من هذا الوجود، وينفي عنك الوساوس التي تنفخها الشياطين.. وهو أكبر الملاجئ وأعظمها.

قلت: والثاني؟

قال: دعاء الله تعالى والاستعاذة به والاطراح بين يديه، وهو لجوء محض، وافتقار خالص.

قلت: والثالث؟

قال: هو الرقى الشرعية التي سنها لنا النبي ﷺ، وهي نوع من العلاج الخاص الممزوج بالوساطة والأسباب.

---

(١) سبق تخريجه.

القرآن الكريم

دخلنا القاعة الأولى، وقد كتب على بابها قوله تعالى:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(الاسراء: من الآية٨٢)

قلت: هل يبحث الأطباء في هذا القسم عن الآيات التي يمكن الاستشفاء بها للحالات المختلفة؟

قال: ما تقصد بذلك؟

قلت: لقد ذكر الله تعالى أن منه ما هو شفاء.. ومن تدل على البعضية.

قال: ولم لم تقل بأنها لبيان الجنس لا للتبعيض، كما قال تعالى:﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾(الفتح: من الآية٢٩)، وكُلُّهُمْ مِن الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟

قلت: لقد رأيت قومي يستعملون بعض الآيات في التداوي، ويخبرون بأنهم وجدوا لها تأثيرات معينة.

قال: فكيف تتعاملون مع الآيات التي اكتشفوها؟

قلت: نعتبرها من المجربات الناجحة، فنستعملها كما استعملوها.

قال: وتقعون في تحريف لكلام الله بسبب ذلك.

قلت: كيف؟

قال: تنحرفون بالقرآن الكريم عن هدفه.. فتصبح آيات القرآن الكريم طلاسم وتعاويذ.

قلت: وهل القول بكون القرآن الكريم جميعا شفاء يقي من هذا؟

قال: أجل.. لأنك تتعامل معه كليا، لا جزئيا.. وتتعامل مع معانيه وألفاظه، وهو ما يحفظك من مخاطر سوء التعامل معه[1].

---

(١) والقرآن الكريم ــ من جهة أخرى ــ علاج خاص سواء كان ذلك للأمراض النفسية والفكرية أم للأمراض البدنية.

فمن مرض قلبه بالشهوات عولج بمواعظ القرآن الكريم وتخويفاته، ومن غلبه الخوف عولج بما ورد في القرآن الكريم من آيات الرجاء والرحمة.. وهكذا يعالج كل شخص بما يتناسب مع دائه.

ومثل ذلك الأمراض الجسدية، فهناك آيات خاصة أخبرت النصوص بتأثيرها، فهي شفاء، مع أن شفاء في القرآن الكريم في أصله شامل لآياته جميعا.

وسيتعمق هذا المفهوم من خلال ما سنطرحه هنا من سر تأثير القرآن الكريم العلاجي.

قلت: ولكن النبي ﷺ قال لأولئك النفر عن الفاتحة:(وما أدراك أنها رقية)، وما وري عن عائشة رضي الله عنها، أنَّ النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها، فالنبي ﷺ خصص سورا معينة للاستعاذة والدعاء.

قال: صدقت.. وقد ذكرت أن النبي ﷺ هو الذي فعل هذا، وقاله.. فإن جاءنا الخبر عنه قبلناه.. أما إن جاءنا عن غيره.. فلا نقبله إلا إذا استدل له بما عرفنا من مصدر الشريعة.

ثم.. ألم تسمع قوله تعالى وهو يقرر كون القرآن الكريم علاجا شاملا لكل الأحوال:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(يونس:٥٧)، وقالتعالى:﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾(فصلت: من الآية٤٤)

قلت: بلى.. وقد وعيت ما قلت.

رأيت رجلين في القاعة التي تعالج بالقرآن الكريم واقفين أمام ملأ من الناس، فسألت المعلم عنهما، فقال: هذان الرجلان يمثلان النوعان الأساسيان للعلاج بالقرآن الكريم، أما أحدهما، فيمثل جانب معانيه، وتأثيراتها التي نعرفها بالحس، وأما الآخر، فيمثل جانب ألفاظه ومعانيه، وتأثيراتها التي تأتينا من الغيب.

تعميق حقائق الإيمان:

قصدنا الرجل الأول، وقد كان على ما يبدو عالما جليلا، قد تشرب معاني القرآن الكريم وانصبغ بها، فسمعناه يقول: إن الأدوية القرآنية التي جعلها الله شفاء لأمراض الصدور.. لا يؤتي أكلها، ولا ينجع التداوي بها إلا لمن تشرب معاني القرآن الكريم وفهمها حق فهمها.

ألم تسمعوا الله تعالى، وهو يقول:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾(الاسراء:٨٢)، فقد اعتبر القرآن الكريم شفاء للمؤمنين، ولكنه في نفس الوقت لا يزيد الظالمين إلا خسارا.

ألم تسمعوا قوله تعالى:﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾(فصلت:٤٤)، فقد أخبر تعالى أنه هدى وشفاء للمؤمنين، وأنه ليس سوى بلاء على غيرهم.

ولهذا.. فإن الذي لا يعير القرآن الكريم اهتمامه، ولا يتأدب معه فستنقلب وبالا عليه، فهو شفاء لمن عرف كيف يستخدمه، ووبال على من استعمله في غير ما أنزل له.

قال أحدهم: إنه في ذلك يشبه كل دواء استعمل في غير محله، فإن ضرره أكثر من نفعه.

قال: أجل.. ولهذا، فإن تأمل الآيات التي ورد الاستشفاء بها تدل على هذا المعنى.. وقد أحضرت معي أخي في الله ابن قيم الجوزية.. وهو من هو.. وسيذكر لكم من الأمثلة القرآنية ما تمتلئون به قناعة بما ذكرت.

تقدم ابن القيم، ببيانه الرائع وروحانيته العميقة، فقال: من المعلوم أنّ بعض الكلام له خواصُّ ومنافعُ مُجرَّبة، فما الظنُّ بكلامِ ربّ العالمين، الذى فَضْلُهُ على كل كلامٍ كفضلِ الله على خلقه الذى هو الشفاءُ التام، والعِصْمةُ النافعة، والنورُ الهادي، والرحمة العامة، الذى لو أُنزِلَ على جبل لَتَصَدَّعَ من عظمته وجلالته..

قالوا: فاذكر لنا يا ابن القيم من الأمثلة ما يحقق هذا ويؤكده.

قال: سأذكر لكم السورة التي لم يُنزل في القرآن، ولا في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزَّبور مِثلُها.. السورة المتضمنة لجميع معاني كتب الله، المشتملة على ذكر أُصول أسماء الرب تعالى ومجامعها.

قالوا: تقصد فاتحة الكتاب؟

قال: أجل.. فقد ذكر الله تعالى فيها أصول أسمائه من: الله، والرَّب، والرحمن، وذكر فيها إثبات المعاد، وذكرِ التوحيدين: توحيدِ الربوبية، وتوحيدِ الإلهية، وذكر الافتقار إلى الربِّ سُبحانه في طلب الإعانة وطلب الهداية، وتخصيصه سبحانه بذلك، وذكر أفضل الدعاء على الإطلاق وأنفعِهِ وأفرَضِه، وما العبادُ أحوج شيء إليه، وهو الهدايةُ إلى صِراطه المستقيم، المتضمن كمالَ معرفته وتوحيده وعبادته بفعل ما أمرَ به، واجتناب ما نَهَى عنه، والاستقامة عليه إلى الممات.. وذِكر أصنافِ الخلائق وانقسامهم إلى مُنْعِمٍ عليه بمعرفة الحق، والعمل به، ومحبته، وإيثاره، ومغضوب عليه بعدُوله عن الحق بعد معرفته له، وضال بعدم معرفته له. وهؤلاء أقسامُ الخليقة.. مع تضمنها لإثبات القَدَر، والشرع، والأسماء، والصفات، والمعاد، والنبوات، وتزكيةِ النفوس، وإصلاح القلوب، وذكر عدل الله وإحسانه، والرَّدِّ على جميع أهل البدع والباطل..وحقيقٌ بسورةٍ هذا بعضُ شأنها، أن يُستشفى بها من الأدواء، ويُرقَى بها اللَّديغُ.

قالوا: فما موضع الشفاء منها؟

قال: كلها.. فيكفي ما فيها مِن إخلاص العبودية والثناء على الله، وتفويض الأمر كُلِّه إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النِّعَم كُلِّها، وهى الهدايَة التى تجلبُ النِّعَم، وتدفَعُ النِّقَم، من أعظم الأدوية الشافية الكافية.

قالوا: فهل ثبت حصول الشفاء للمستشفين بها؟

قال: أجل.. لا شك في ذلك.. وقد مرَّ بى وقت بمكة سَقِمْتُ فيه، وفَقَدْتُ الطبيبَ والدواء، فكنت أتعالج بها، آخذ شربةً من ماء زمزم، وأقرؤها عليها مراراً، ثم أشربه، فوجدتُ بذلك البرءَ التام، ثم صِرتُ أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع، فأنتفع بها غايةَ الانتفاع.

قالوا: لقد علمنا سر الفاتحة، وسر الاستشفاء بها.. فاذكر لنا سورة أخرى.

قال: من السور التي ورد الاستشفاء بها سورة الإخلاص، وسر الاستشفاء بها أنها تحوي كمال التوحيد العِلمى الاعتقادى، وإثبات الأحَدِيَّة لله، المستلزمة نفىَ كُلِّ شركة عنه، وإثباتِ الصَّمديَّةِ المستلزمةِ لإثبات كُلِّ كمال له مع كونِ الخلائق تَصمُدُ إليه فى حوائجها، أى: تقصِدُه الخليقةُ، وتتوجه إليه، عُلويُّها وسُفليُّها، ونفى الوالد والولد، والكُفْء عنه المتضمن لنفى الأصل، والفرع والنظير، والمماثل مما اختصَّت به وصارت تعدِلُ ثُلُثَ القرآن، ففى اسمه ((الصمد)) إثباتُ كل الكمال، وفى نفى الكُفْء التنزيهُ عن الشبيه والمثال. وفى ((الأحد)) نفىُ كُلِّ شريك لذى الجلال، وهذه الأُصول الثلاثة هى مجامعُ التوحيد)

قلت: ولكن الكثير يستمعون هاتين السورتين آلاف المرات، ولا يستفيدون منهما شيئا؟

قال: الاستفادة من هذا الجانب في العلاج تستدعي استعدادا من المعالج، وتهيئة نفسية معينة، فهناك من ينبغي أن يدخل إلى مستشفى القرآن الكريم قبل أن يتناول من صيدليته[1].

التأثير الغيبي للقرآن الكريم:

تركنا الرجل الأول، وانتقلنا إلى الثاني، وهو المكلف ببيان التأثير الغيبي للعلاج بالقرآن الكريم، فسمعته يقول: لقد وضع الله تعالى في كلامه من الخواص ما يداوي العلل.

وقد ورد في النصوص ما يبين قدرات القرآن الكريم العلاجية، لا مع الأمراض النفسية وحدها، بل مع الأمراض الجسدية أيضا، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ أتوا على حي من أحياء العرب، فلم يقروهم فبينما هم كذلك إذ لدغ سيد أولئك، فقالوا:(هل معكم من دواء أو راقٍ؟ فقالوا إنكم لم تقرونا ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً فجعلوا لهم

---

(١) انظر تفاصيل كيفية استعمال الدواء القرآني في رسالة:« رقية السلام »

قطيعاً من الشاء فجعل يقرأ بأم القرآن ويجمع بزاقه ويتفل، فبرأ، فأتوا بالشاء فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ فسألوه فضحك وقال:(وما أدراك أنها رقية خذوها واضربوا لي بسهم)[1]

وعن عائشة رضي الله عنها، أنَّ النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها[2].

وعنها ـــ رضي الله عنها ـــ أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما ﴿ قل هو الله أحد﴾ و﴿ قل أعوذ برب الفلق﴾ ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات[3].

قلت: فهل كان لهذه القراءات تأثيرها العلاجي؟

قال: لا شك في ذلك.. وتأثيرها لا يزال يشهده الكثير.. بل قد وفقني الله تعالى، فأجريت[4] بحثاً قيماً حول تأثير القرآن الكريم في هذه الناحية، حيث أخذت ثلاث مجموعات من الناس، وهم من الأميركان الذين لا يتكلمون اللغة العربية ولا يفهموها، ووصلتهم بالمقاييس الطبية الدقيقة كقياس ضغط الدم، ونبضات القلب، وتخطيط الدماغ، وتخطيط العضلات، وقياس درجة التعرق، وقرأت على المجموعة الأولى آيات من القرآن الكريم، وقرأت على المجموعة الثانية كلاما عاديا باللغة العربية، والمجموعة الثالثة للسيطرة.

فوجدت أن المتغيرات الفسلجية[5] عند المجموعة الأولى التي قرأت القرآن الكريم عليها، وارتفاع ضغط الدم، وتقلص العضلات، وانتصاب الشعر، والتعرق، هذه المؤشرات –وظائف الأعضاء الفسلجية– تحسنت كثيراً للذين سمعوا القرآن الكريم، سماعا مجردا مع عدم فهم معناه، مقارنة بالمجموعات الأخرى.

وللتأكد من صحة هذا، نقلت المجموعات، فحصل للمجموعات الأخرى عندما سمعت القرآن الكريم نفس الاستجابة والتغيرات الإيجابية.

قال له بعض الحاضرين: ولكن نرى أن هناك من يستخدم الآيات القرآنية في هذا المجال، فيسيء الاستخدام.

---

(١) البخاري.

(٢) البخاري.

(٣) النسائي.

(٤) هو الدكتور أحمد القاوي في الولايات المتحدة الأميركية، ندوة للدكتور محمد جميل الحبال على قناة الجزيرة في برنامج الشريعة والحياة تاريخ الحلقة الاثنين ١٤٢٢/٢/١٢هـ الموافق ٢٠٠١/٥/٦م

(٥) أي وظائف الأعضاء.

قال: فماذا يفعلون؟

قال الرجل: أكثرهم لا يقرأ القرآن الكريم لكونه كلام الله يداوي بألفاظه ومعانيه، ولكن لجر من يتوهم أنه سبب العلة، وهو الجني ـــ في أكثر الأحيان ـــ المستولي على ضحيته الإنسية إلى مسرحية تطول أو تقصر بحسب وقت الراقي المشعوذ.

قال: دعك من أولئك.. فقد شغلهم الجن عن الله، وعن أنفسهم، وعن الرسالة التي كلفهم الله بأدائها.

قلت: ولكن ألا يحتمل أن يكون ما ذكروه صحيحا.. فقد يكون الإنسان مصابا بنوع من المس أو السحر أو العين أو غيرها من أعداء الغيب.

قال: ذلك ممكن.

قال: وهذا ما يدعوهم إلى بذل الجهد في التعرف على الحالات المختلفة لعلاجها.

قال: وهذا ما أخطأوا فيه..

قلت: فما وجه الخطأ؟

قال: المعالجات القرآنية عامة، فلا نحتاج ـــ لكف شر السحر أو العين أو إذية الشياطين ـــ أن نشخص الداء كما تشخص الأدواء الحسية.

قال أحدهم: أليس التشخيص مقدما على العلاج؟

قال: أجل.. ولكن هذه الأدواء من الغيب الذي لا نعلمه، وليس لدينا وسائل العلم به، زيادة على أن هذه الأدوية الشرعية شاملة، وتقضي على مثل هذه الأدواء عرفناها أو لم نعرفها.

فسورة الفلق مثلا تجمع أنواع الاستعاذات من العين والسحر وغيرها، وهي في ذلك تشبه دواء يقضي على مجموعة كبيرة من الأمراض، فإذا ما جهل متناوله مرضا من الأمراض، أو لم يعلم كونه مصابا به، ثم تناول ذلك الدواء شفي منه بغض النظر عن علمه به أو جهله.

ولهذا من الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها هؤلاء الرقاة المشعوذون ـــ الذين ابتليت الأمة والدين بهم ـــ هو احتكارهم لتشخيص هذه الأنواع من الأدواء، وكأن لديهم أجهزة خاصة تكشف هذه الأنواع من العلل.

قلت: ولكن العامة لا يقبلون منهم غير هذا.. بل إن العامي لا يثق بشفاء القرآن الكريم، ولو قرأته عليه بالقراءات العشر، إلا إذا أخبرته بأنه معان أو مسحور أو تنهشه أحياء الغيب التي لا يراها.

قال: ولكن هذا العامي لا يجسر عن سؤال الطبيب عن علته ليعرف كيف يتأقلم معها، بل يكتفي بتناول الدواء، ولكنه مع الراقي الذي عوده أن يطلعه على أعداء الغيب لا يسمح له، بل لا تعظم قيمة الراقي في عينه إلا إذا شخص له ذلك.

قلت: ولكن الراقي يتأيد بما يقول العلماء، وقد سمعت أحدهم يقول جوابا لمن سأله عن تشخيص المرض من قبل الراقي:(معلوم أن الراقي الذي تتكرر عليه الأحوال ويراجعه المصابون بالمس والسحر والعين ويعالج كل مرض بما يناسبه أنه مع كثرة الممارسة يعرف أنواع الأمراض النفسية أو أكثرها وذلك بالعلامات التي تتجلى مع التجارب، فيعرف المباشرة بتغير عينيه أو صفرة أو حمرة في جسده أو نحو ذلك، ولا تحصل هذه المعرفة لكل القراء وقد يدعي المعرفة ولا يوافق ذلك ما يقوله، لأنه يبني على الظن الغالب لا على اليقين)[1]

قال: لا ينبغي للعلماء أن يقولوا مثل هذا.. إنهم يفتحون بهذا أبوابا يصعب غلقها.

قال آخر: وقد سمعت بعضهم يحث المريض ــ لا إلى اللجوء إلى الله، ليرفع عنه بلاءه ــ وإنما للبحث عن الوسيط الخبير الذي له الحق وحده أن يقرع باب الله، ويعطي صكوك الشفاء للمبتلين، فقد قال:(قد تكون الأعراض مشتركة نتيجة لمعاناة المريض من جراء إصابته بأمراض الصرع والسحر والعين والحسد، بسبب عامل مشترك واحد نتيجة اقتران الأرواح الخبيثة، وهذا بالتالي يحتاج للمعالِج الحاذق المتمرس ليقف على حقيقة المعاناة، ومن ثم يحدد الداء، ويصف الدواء النافع بإذن الله تعالى)

قال: فأين يجد هذا الحاذق المتمرس؟

قال الرجل: لعله يقصد نفسه، فقد ذكر بعد هذا الكلام أنواع الأعراض وصنفها كما تصنف أعراض الأمراض الحسية، وبجرأة دونها جرأة الأطباء الخبراء.

فقد ذكر ــ مثلا ــ من أعراض الاقتران الكلي حال إجراء الرقية:(الإغماء وتشنج الأعصاب، والصراخ الشديد والبكاء، وشخوص البصر، وطرف العينان يمنة أو يسرة، وانتفاخ الأوداج والصدر واحمرار العينين بشكل غير طبيعي، والقوة والقدرة غير الطبيعية وحركة غير طبيعية وغالبا ما تكون في منطقة البطن وانتفاخ غير طبيعي في منطقة البطن، وضيقة شديدة في منطقة الصدر، والقيء والاستفراغ، والاهتزاز والرجفة الشديدتان، وتغير الصوت كليا في بعض الحالات، وإصدار أصوات غريبة)

---

(١) الفتاوى الذهبية في الرقية الشرعية — ص ٢٠، ٢١، والمفتي هو الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين.

ومن الطرق الفعالة ــ التي ذكرها ــ للكشف عن صرع الأرواح الخبيثة (المتابعة الخاصة بحركة العين)

وهو ورع فلذلك قال:(ولا يجوز النظر في أعين النساء مطلقا، لكافة الأدلة الثابتة من الكتاب والسنة)

ولكنه مع ذلك يعطي البديل الذي يعبر عنه بقوله:(ولا بأس بمتابعة ذلك عن طريق أحد المحارم أو المرافقين للمريضة، وتدوين الملاحظات التي تعين المعالِج في قيامه بعمله دون الوقوع في الحرج والمخالفة الشرعية)

ثم يذكر الأعراض التي تدل عليها العين من شؤون الجن، فيذكر الأعراض التالية:(ارتعاش.. عدم القدرة على التركيز.. تغير في حجم بؤبؤ العين.. الاتجاه المعاكس في حركة العينين.. إغلاق العينين بسرعة وبصورة متكررة.. الصراخ أو البكاء.. التنميل في بعض الأطراف)

قال آخر: وهم يذكرون في أمثال هذه الأعراض أعراضا قد لا يخلو منها أحد من الناس، فمن أعراض المس مثلا في حالة اليقظة:

١. الحزن والاكتئاب مع الإحساس بالاختناق وضيق في التنفس.

٢. الانطواء والانعزال مع كراهية وبغض أخلص وأحب وأقرب الناس إليه.

٣. الصدود عن المذاكرة أو الدراسة أو العمل أو البيت أو الزوجة.

٤. الصدود عن العبادات وعلى الأخص الصلاة وتلاوة القرآن أو الاستماع إليه.

٥. الارتياح والتلذذ بقذارة الثوب والبدن والمكان.

٦. الشرود والذهول والنسيان واليأس وسرعة الغضب وسرعة الخطأ والقنوط والإحباط، والتلفظ بألفاظ نابية.

٧. الضحك والبكاء لغير سبب أو لسبب تافه.

٨. الصرع والتشنج خاصة في حالة الغضب أو الحزن الشديد.

٩. الصداع الدائم دون تحديد سبب طبي لذلك.

١٠. الكسل والخمول، وعدم الرغبة والدافع لأي عمل.

١١. الهلع والفزع والخوف الشديد.

١٢. الوسوسة والشك والريبة.

١٣. النزيف المستمر عند النساء دون تحديد أسباب طبية.

١٤. الإمساك المزمن دون تحديد أسباب طبية.

١٥. آلام متنقلة في أعضاء الجسم دون تحديد أسباب طبية.

١٦. الإيحاءات الكفرية والشركية وزرع الشك في العقيدة والمنهج.

١٧. الانكباب على المعاصي بشتى السبل والوسائل.

١٨. الشراهة في الأكل والطعام والشراب.

١٩. الكراهية الشديدة للمعالِجين وسماع أخبارهم أو ارتياد أماكنهم.

٢٠. ألم في الظهر والركبتين وملاحظة كدمات بلون أسود مائل للزرقة أو الخضرة، خاصة في الذراعين والفخذين ؛ دون تحديد أسباب طبية.

٢١. الإحساس بالمتابعة والملاحقة من قبل أشخاص، أو الشعور بوجود نفس بمحاذاة الشخص وهو على فراشه استعدادا للنوم.

٢٢. الإحساس بمن يقوم بسحب أو جذب غطاء النوم دون رؤية أحد.

٢٣. سماع أصوات أو رؤية أشباح، تلمح من أمام الشخص بسرعة فائقة، أو رؤية أنوار وخيالات ونحوه.

قال: فمن أي المصادر يقتبسون هذه المعاني؟

قال أحدهم: هم يسمون هذا النوع من الرقى (رقى شرعية)

قال: ولكن الشرعية في المصطلح الشرعي تستدعي الرجوع للمصادر الأصلية أو المصادر التبعية، ففي أي مصدر من هذه المصادر توجد هذه الأعراض، وتحدد نوع المس؟

قال آخر: بل إن قراءة بسيطة لما ذكروه من الأعراض، تدل على مدى الضياع الذي يعيشه هؤلاء، ويريدون من الأمة أن تعيش معهم فيه، فمن أعراض المس السابقة (الصدود عن المذاكرة أو الدراسة أو العمل أو البيت أو الزوجة).. ولهذا إذا أتاهم من يشكو من هذه الأعراض لا يوجهونه إلى الاجتهاد، ويحضونه على حسن الخلق مع أهله، وإنما يجتهدون في حرق الشياطين التي تسكنه أو دعوتها إلى الإسلام، أما هو فبريء لا حساب عليه، وكيف يحاسب على عمل الجني الذي يستوطنه.

قال آخر: والأخطر من ذلك ما ذكروه من عرض (الصدود عن العبادات وعلى الأخص الصلاة وتلاوة القرآن) وهم يتفقون في هذا العرض، وهم بهذا يبرئون أبا جهل وغيره من المشركين، فلعل بغضهم للقرآن الكريم والصلاة، لم يكن عمدا، بل كان نوعا من المس، ولو أن رسول الله ﷺ اكتفى برقيتهم وأحرق شياطينهم لأسلموا وأحبوا القرآن الكريم، وتهجدوا مع رسول الله ﷺ، وهاجروا معه.

الاستعاذات الشرعية

دخلنا القاعة الثانية، وقد كتب على بابها قوله تعالى:﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(غافر: من الآية٥٦)

قلت: أهذه قاعة الاستعاذة من الشياطين؟

قال: هذه القاعة تعلم فيها الاستعاذة بجميع أنواعها.. والشياطين من أنواع المستعاذ منهم.

قلت: ولكن القرآن الكريم ذكر الاستعاذة من الشياطين في مواضع منه، فالله تعالى يقول:﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(لأعراف:٢٠٠)، وهو يقول:﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(النحل:٩٨)، وهو يقول:﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(فصلت:٣٦)

قال: لقد ذكر الله تعالى أن الشيطان من أخطر أعداء الإنسان، فلذلك وردت هذه النصوص في التشديد بالأمر بالاستعاذة منه.. ولكنها لا تعني الحصر.. فقد ورد في النصوص الكثير من الاستعاذات، ألم تسمع قول موسى عليه السلام:﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(البقرة: من الآية٦٧)،وقول نوح عليه السلام:﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(هود:٤٧)، وقول مريم ـــ عليها السلام ـــ:﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً﴾(مريم:١٨).. ألم تسمع المعوذتين؟

قلت: بلى..

قال: ومثله النصوص الكثيرة.. وهي تملأ الصدر انشراحا، والقلب راحة.

قلت: ألهذه الاستعاذات تأثير نفسي على قائلها؟

قال: أجل.. زيادة على التأثير الغيبي.. فالكثير قد يحزن، ويمتلئ قلبه كآبة لأجل أمور بسيطة، كرؤيا يؤرقه تذكرها، ولهذا كان ﷺ يعلم أصحابه كيف يتحصنون بحصن الله من الرؤى التي يتخوفونها، قال ﷺ:(الرؤيا من الله والحلم من الشيطان فإذا رأى أحدكم شيئا يكرهه فلينفث حين يستيقظ ثلاث مرات ويتعوذ من شرها فإنها لا تضره)[1] قال أبو سلمة أحد رواة الحديث يبين أثر هذا الحديث في نفسه:(وإن كنت لأرى الرؤيا أثقل علي من الجبل فما هو إلا أن سمعت هذا الحديث فما أباليها)

---

(١) ابن ماجة.

وورد في حديث آخر، قوله ﷺ:(إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها، وليحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان، فليستعذ من شرها، ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره)[1]

قلت: فلم نهاه عن ذكرها؟

قال: لما يحدثه ذكرها في نفسه من خوف، فيكفي التجاؤه إلى الله في حمايته من شرها، بخلاف التحديث بالرؤيا الصالحة فإن لها من التأثير المعنوي ما يدعو إلى روايتها.

بينما نحن كذلك إذ رأيت أقواما مجتمعين، كل منهم يلقن أخاه شيئا، فسألت المعلم عنهم، فقال: هؤلاء يذكر بعضهم لبعض أنواع الملاجئ التي تعلموها من رسول الله ﷺ، ورأوا تأثيرها في حياتهم.

اقتربت من بعضهم، فسمعته يقول لأخيه: لقد حرصت على كثرة الاستعاذة بـــ :(أعوذُ بكلماتِ الله التامَّاتِ مِن شرِّ ما خَلق) فوجدتها ـــ مع قلة ألفاظها ـــ واقية من كل سوء.

قال صاحبه: أما أنا.. فإني ـــ كما تعلم ـــ امرؤ لا تمتلئ نفسي بغير التفاصيل.. ليزيل كل ما أذكره وهما من الأوهام وسببا من أسباب الخوف.

قلت: فما تقول؟

قال: أقول إذا امتلأت نفسي بالمخاوف من الشياطين والعيون:(أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّةِ، مِن كُلِّ شيطانٍ وهامَّةٍ، ومِن كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ)

وأقول إذا امتلأت بغيرها:(أعوذُ بكلماتِ الله التَّامَّاتِ التي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌ ولا فاجرٌ، مِن شَرِّ ما خلق وذرَأ وبرَأ، ومِن شَرِّ ما ينزلُ من السماءَ، ومِن شَرِّ ما يَعرُجُ فيها، ومِن شَرِّ ما ذرأ في الأرض، ومِن شَرِّ ما يخرُج مِنها، ومِن شَرِّ فِتَنِ الليلِ والنهار، ومِن شَرِّ طَوَارق الليلِ، إلا طارقاً يَطرُق بخير يا رحمن ش

وقد أقول (اللَّهُمَّ إني أعوذُ بوجْهكَ الكريم، وكلماتِك التامَّاتِ من شرِّ ما أنت آخِذٌ بناصيته، اللَّهُمَّ أنتَ تكشِفُ المأثَمَ والمَغْرَمَ، اللَّهُمَّ إنه لا يُهْزَمُ جُنْدُكَ، ولا يُخلَفُ وعدُك، سبحانَك وبحمدِك)

اقتربت من آخر، فسمعته يلقن صاحبه:(أَعُوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّةِ مِن غضبه وعِقَابه، ومِن شرِّ عباده، ومِن هَمَزات الشياطينِ وأن يَحضُرونِ)

---

(١) البخاري ومسلم.

فإذا انتهى لقنه صاحبه:(أَعُوذُ بوجه الله العظيمِ الذي لا شيء أعظمُ منه، وبكلماتِه التامَّات التي لا يُجاوزُهن بَرٌ ولا فاجرٌ، وأسماء الله الحُسْنَى، ما علمتُ منها وما لم أعلم، مِن شَرِّ ما خلق وذرَأ وبرأ، ومن شَرِّ كُلِّ ذي شرٍّ لا أُطيق شرَّه، ومِن شَرِّ كُلِّ ذي شَرٍّ أنتَ آخِذٌ بناصيته، إنَّ ربِّي على صِراط مستقيم)

اقتربت من آخر، فسمعته يقول:(اللَّهُمَّ أنت ربِّي لا إله إلا أنتَ، عليك توكلتُ، وأنتَ ربُّ العرشِ العظيم، ما شاء اللهُ كان، وما لم يشأْ لم يكن، لا حَوْلَ ولا قُوَّة إلا بالله، أعلم أنَّ اللهَ على كُلِّ شيء قديرٌ، وأنَّ الله قد أحاط بكل شيء علماً، وأحصَى كُلَّ شيء عدداً، اللَّهُمَّ إني أعوذُ بكَ مِن شَرِّ نفسي، وشَرِّ الشيطانِ وشِرْكه، ومِن شَرِّ كُلِّ دابةٍ أنتَ آخذٌ بناصيتها، إنَّ ربِّي على صِراط مستقيم)

وسمعت صاحبه يقرأ بعدها: (تحصَّنتُ بالله الَّذى لا إله إلا هُوَ، إلهي وإله كُلِّ شىء، واعتصمتُ بربي وربِّ كُلِّ شيء، وتوكلتُ على الحيِّ الذى لا يموتُ، واستَدْفَعتُ الشرَّ بلاحَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله، حسبيَ اللهُ ونعْمَ الوكيلُ، حسبيَ الربُّ مِن العباد، حسبيَ الخَالِقُ من المخلوق، حسبيَ الرازقُ مِنَ المرزوق، حسبيَ الذى هو حسبي، حسبيَ الذى بيده ملكوتُ كُلِّ شيء، وهو يُجيرُ ولا يُجَارُ عليه، حسبيَ اللهُ وكَفَى، سَمِعَ اللهُ لمنْ دعا، ليس وراء اللهِ مرمَى، حسبيَ اللهُ لا إله إلا هُوَ، عليه توكلتُ، وهُوَ ربُّ العرشِ العظيم)

تركناهم يلقن بعضهم بعضا، وانصرفت إلى محل آخر، فوجدت شيخا وقورا قد اجتمع عليه نفر من الناس يسألونه، فلما اقتربنا منه سمعته يقول: كما همتم بتلقيح أنفسنا خوفا من كل داء طارق، أو عدو مهاجم، فينبغي تلقيحها كذلك، بل من باب أولى، بهذه الاستعاذات، فأعداؤها متيقنون، وهم أكثر خطرا من كل طاعون أو وباء.

قال أحدهم: إن قومنا قد وضعوا لنا موقيت نلقح فيها أنفسنا من طوارق الجراثيم والفيروسات والأوبئة.

قال: وقد رتب لنا رسول الله ﷺ من المواقيت ما نلقح به أنفسنا من كل طوارق السوء.. لأن الأعداء يتربصون بالإنسان في كل وقت، ولذلك وجب أخذ الحذر، وعدم إتاحة الفرصة.

قالوا: فما نحفظ به أنفسنا من طوارق النوم، فلا نرى إلا أنه فرصة للشياطين والهوام وجميع أنواع الشرور؟

قال: لقد كان ﷺ إذا أراد النوم يجمع كفَّيْهِ، ثم ينفُث فيهما، ويقرأ فيهما سورة الإخلاص والفلق والناس، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأُ بهما على رأسه، ووجهه، وما أقبلَ مِنْ جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

وكأنه ﷺ يمسح بترياق هذه السور جميع الآفات التي قد تخترق حصن الإنسان، أو يجعل منها تعويذة لمنع الشياطين من التسرب لأي محل من هذا الجسم.

وكان ﷺ يقول إذا أوى إلى فراشه:(اللّهم رب السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وَرَب العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كلِّ شَيءٍ، فَالِقَ الحَبَ وَالنَّوى، منزلَ التَّوْرَاةِ وَالإنجِيلِ، وَالفُرْقَانِ، أَعُوذُ بكَ مِن شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنتَ آخِذ بنَاصِيتِهِ، أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيسَ قَبْلَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الآخِرُ، فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شيءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ، فَلَيْسَ دُونَكَ شَيءٌ، اقضِ عَنَّا الدَّينَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الفقْرِ)

قالوا: فما نقول إذا خرجنا من بيوتنا.. فإنا نخشى على أنفسنا طوارق السوء؟

قال: كَانَ ﷺ إذَا خَرجَ مِن بَيتِهِ قال:(بسم اللَّه، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، اللَّهُمَّ إني أَعُوذُ بكَ أَنْ أَضِلَّ أوْ أُضَلَّ، أَو أزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ)

وروي من تأثير هذه الاستعاذات قوله ﷺ:(مَنْ قَالَ إذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ: بسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللَّهِ، يُقَالُ لَهُ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ)

قالوا: فما نقول إذا دخلنا الخلاء، فهو محل للشياطين والقاذورات؟

قال: كان ﷺ إذا دخل الخلاء، قال:(اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بكَ مِنَ الخُبُثِ والخَبَائِثِ).. وكان يقول:(لا يَعْجزْ أحَدُكُم إذَا دَخَلَ مَرْفِقَهُ أنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بكَ مِنَ الرِّجْسِ النَّجسِ، الخَبيث المُخْبثِ، الشَّيْطَانِ الرَّجيم).. بل كان ﷺ يعلمنا التعويذة التي نستتر بها عن أعين الجن، فيقول:(سَتْرُ مَا بَيْنَ الجِنِّ وَعَوْرَاتِ بَنى آدَمَ إذَا دَخَلَ أحَدُكُمُ الكَنيفَ أنْ يَقُولَ: بسْمِ اللَّهِ)

قال أحدهم: فكيف نستعيذ من الشر الذي قد يكون مخبأ بين ثنايا الجديد؟

قال: لقد كان ﷺ يعلمنا الاستعاذة من شر كل جديد نستفيده، قال ﷺ: (إذَا أَفَادَ أحَدُكُم امْرَأَةً، أو خَادِماً، أو دابَّةً، فَلْيَأْخُذْ بناصِيَتِها، وَلْيَدْعُ الله بالبَرَكَةِ، وَيُسَمِّى الله عَزَّ وَجَلَّ، وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إنِّى أسْأَلُكَ خَيْرَها، وخَيْرَ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ ما جُبِلَتْ عَلَيْهِ)

قال آخر: فما نقول إذ فزعنا؟

قال: كان ﷺ يُعَلِّمُ أصحابَه عند الفزع أن يقولوا:(أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَامَّة مِنْ غَضَبِهِ وَمِنْ شَرِّ عباده، ومن شرِّ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِين، وأنْ يَحْضُرُون)

قال آخر: فما نقول إذا عزمنا على السفر، فالسفر والتنقل محل للأخطار، حتى أن المسافر في العصر الحديث يحتاج إلى أخذ بعض التلقيحات لتجنب آثار الأوبئة؟

قال: لقد روي عنه ﷺ الكثير من الاستعاذات التي تحصن المؤمن من مخاطر سفره، والأرض التي يريد أن ينزل فيها.

ومما يروى في ذلك أنه ﷺ كان يقول في سفره:(أَنْتَ الصَّاحبُ فى السَّفَر، وَالخَلِيفَةُ فِي الأهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِي أعُوذُ بكَ مِنَ الضِّبْنَةِ فى السَّفَرِ والكآبَةِ فى المُنْقَلَبِ، اللَّهُمَّ اقْبِضْ لَنَا الأرْضَ، وَهَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ)

وكان يقول:(اللَّهُمَّ إِني أعُوذُ بكَ مِن وَعْثَاء السَّفَرِ، وَكآبَةِ المُنْقَلَبِ، وَمنَ الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ، ومِنْ دَعْوَةِ المَظْلُوم، ومِنْ سُوءِ المَنْظَرَ في الأهْلِ والمَال)

وعلمنا أن نقول إذا نزلنا محلا:(أَعُوذُ بكَلماتِ الله التَّامَّات مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ)

وأخبر عن تأثير ذلك، فقال:(مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثم قَالَ: أعُوذُ بكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شيء حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزله ذلكَ)

وكان ﷺ إذا أشرف على قرية يُريد دخولَها يقولُ:(اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وما أظْلَلْنَ، وَرَبَّ الأرضين السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِين وما أَضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَما ذَرَيْنَ، أَسْأَلُكَ خَيْرَ هذِه القَرْيَةِ وَخَيْرَ أهْلِهَا، وأَعُوذُ بكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا)، وكان يقول:(اللَّهُمَّ إنِّي أسأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هذِهِ القَرْيَة وَخَيْرِ مَا جَمَعْتَ فِيهَا، وَأَعُوذُ بكَ مِنْ شَرِّهَا وَشرِّ مَا جَمَعْتَ فِيهَا، اللَّهُمّ ارزُقْنَا جَنَاهَا، وَأَعِذْنَا مِنْ وَبَاهَا، وَحَبِّبْنَا إِلَى أَهْلِهَا، وَحَبِّب صَالِحِي أَهْلِهَا إلَيْنَا)

وكان ﷺ إذا أدرَكَهُ الليل في سفره، قال:(يا أرضُ رَبِّى وَرَبُّكِ الله، أَعُوذُ بالله مِنْ شَرِّكِ وَشَرِّ مَا فِيكِ، وشَرِّ ما خُلِقَ فِيكِ، وَشَرِّ ما دَبَّ عَلَيْكِ، أعوذُ بالله مِنْ شَرِّ كُلِّ أسَدٍ وأَسْود، وَحَيّةٍ وَعَقْرَب، ومِنْ شَرِّ سَاكِنِ البَلَد، ومِنْ شَرِّ وَالد، ومَا وَلَدَ)

قال آخر: أما أنا فمقيم لا أكاد أبرح داري.. وإنما مطيتي الصباح والمساء، فما أقول فيهما؟

قال: لقد رويت الاستعاذات الكثيرة في الصباح والمساء، باعتبارهما بداية اليوم ونهايته، وكأن المؤمن بتلك الاستعاذات يحمي نفسه فترة يومه، كما تحمي التلقيحات المختلفة الإنسان فترات مؤقتة.

ويشير إلى هذه الحقيقة قوله ﷺ في هذه الاستعاذة:(اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لاَ إله إلاَّ أنْتَ، عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَأنْتَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ

باللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ، أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بكُلِّ شيءٍ عِلْماً، اللَّهُمَّ إني أَعُوذُ بكَ مِنْ شَرِّ نفسي، وَشَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بنَاصِيَتِهَا، إنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ):(من قالها في أول النهار لم تصبه مصيبة حتى يمسي، ومن قالها آخر النهار لم تصيبه مصيبة حتى يصبح)

وقد كان ﷺ يلقن الصحابة ﷺ بهذه الاستعاذات، وقد قِيلَ لأبي الدرداء: قدِ احترق بيتُك فقالَ: ما احترقَ، و لم يكن اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ لِيفعل، لِكَلِمَاتٍ سمعتهُنَّ مِنْ رسولِ اللَّهِ ﷺ، وذكر الاستعاذة السابقة.

قالوا: فعلمنا من هذه الاستعاذات ما نسأل الله أن يوفقنا للمحافظة عليه.

قال: من الاستعاذات التي تقال في الصباح والمساء:(أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَلاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هذَا اليَوْمِ، وَخَيْرَ مَا بَعْدَهُ، وَأَعُوذُ بكَ مِنْ شرِّ هذَا اليَوْمِ، وَشرِّ مَا بَعْدَهُ، رَبِّ أَعُوذُ بكَ مِنَ الكَسَلِ، وَسُوءِ الكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، وعَذَابِ القَبْرِ)[1]

ومنها (اللَّهُمَّ إني أَسْأَلُكَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَة، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العَفْوَ وَالعَافِيَة فى ديني وَدُنْيَاي وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يميني وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بعَظَمَتِكَ أنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي)[2]

قال آخر: إني لا أرب لي في دنياكم التي تتنافسون عليها.. وإنما كل حاجتي منها ركيعات وسجيدات أتقرب بها إلى ربي..

قال: فقد كان ﷺ لا يترك الاستعاذة حتى وهو في مناجاة ربه وعبادته، فمن صيغ دعاء الاستفتاح:(اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ للَّهِ كَثِيراً، الْحَمْدُ للَّهِ كَثِيراً، الْحَمْدُ للَّهِ كَثِيراً، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، سُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، سُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَجيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ)

وكانَ ﷺ يدعو في صلاته قائلا:(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعوذُ بكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَأَعُوذُ بكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بكَ مِنَ المَأْثَمِ وَالمَغْرَمِ)

---

(١) مسلم، وآخر الحديث:« وإذَا أمْسَى قَالَ: أمْسَيْنَا وَأَمْسَى المُلْكُ لِلَّهِ.. »

(٢) صححه الحاكم

فإذا انصرف من الصلاة قال:(اللَّهُمَّ أصْلِحْ لِي دِينِي الَّذي جَعَلْتَهُ عِصْمَةَ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيايَ التِي جَعَلْتَ فِيهَا مَعَاشِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ برِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بعَفْوَكَ من نقْمَتِكَ، وأَعُوذُ بكَ مِنْكَ، لاَ مَانعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ)[1]

وفي الحج وفي الموقف، كان ﷺ يقول:(اللَّهُمَ لَكَ الحَمْدُ كالَّذِى نَقُولُ، وخَيْراً مِمَّا نقُولُ، اللَّهُمَّ لَكَ صَلاتى وَنُسُكى، ومَحْيَاىَ، ومَمَاتِى، وَإليكَ مَآبى، ولَكَ ربِّى تُراثى، اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَوَسْوَسَةِ الصَّدْرِ، وَشَتاتِ الأمْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بكَ مِنْ شَرِّ مَا تَجِئ به الرِّيحُ)[2]

وكان ﷺ إذا دخل المسجدَ يقول:(أَعُوذُ باللَّهِ العَظِيم، وبوَجْهِهِ الكَرِيم، وَسُلْطَانِهِ القَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجيم)، وأخبر ﷺ عن تأثير هذه الاستعاذة فقال:(فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ قال الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّى سَائِرَ اليَوْمِ)[3]

وكان ﷺ يستعيذ باللّه من الشيطان الرجيم فى أول قراءته، فيقول:(أَعُوذُ بالله مِنَ الشَّيطَانِ الرَجيم)، ورُبَّما كان يقول:(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجيم من هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ، ونَفثِهِ)

وكان يخبر أن سيد الاستغفار أن يقول المستغفر:(اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّى، لاَ إِلَهَ إلاَّ أَنْتَ خَلَقْتَني وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أعُوذُ بكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بنعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُنُوبَ إلاَّ أَنْتَ، مَنْ قالَهَا حِينَ يُصْبحُ موقِناً بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ، دَخَلَ الجَنَّةَ، ومَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِى مُوقِناً بِهَا، فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ، دَخَلَ الجَنَّةَ)

---

(١) أبو حاتم في صحيحه.

(٢) الترمذى.

(٣) أبو داود

الرقى الشرعية

انتقلنا إلى القاعة الثالثة، وهي القاعة المختصة بالرقى الشرعية، وقد كتب على بابها قوله ﷺ:(لا رُقيةَ إلا من عَيْنٍ، أو حُمَةٍ)[1]

فسألت المعلم عن سر وضع هذا النص هنا، فقال: لقد رأى أهل هذا المستشفى مبالغة قومك في شأن الرقى وتعميمها، وعدم التفريق بينها وبين الاستعاذات الشرعية، فلذلك جعلوا هذا الحديث شعارا لهذا الملجأ من الملاجئ الإلهية.

قلت: لكن هذا الحديث يحصر الرقى في أشياء محدودة جدا.. وقد ورد في النصوص ما يشير إلى أن الرقى غير محصورة في هذين الجانبين.

أشار إلى رجل في القاعة يقلب دفاتر بين يديه، فقلت: من هذا؟

قال: هذا رجل من المتكلمين آتاه الله فهما، وهو يشرح هذا النص ويرد على ما يجادل فيه.. فإن كان لك شيء من الجدل فاقترب منه واطرح عليه ما تشاء.

اقتربت منه، فواجهني بقوله: مثل ماذا؟

قلت: ما تقصد؟

قال: إن سيما وجهك تخبرني بأنك ترى عدم انحصار الرقية فيما أخبر به ﷺ من العين والحمة.

قلت: أجل.

قال: مثل ماذا !؟

قلت: مثل ما روي عن سهل بن حُنَيفٍ ﷺ، قال: مررْنا بَسيْلٍ، فدخلتُ، فاغتسلتُ فيه، فخرجتُ محموماً، فنُمِيَ ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال:(مُرُوا أبا ثابتٍ يَتَعَوَّذُ)، قال: فقلتُ: يا سيدى ؛ والرُّقَى صالحة؟ فقال:(لا رُقيةَ إلا فى نَفْسٍ، أو حُمَةٍ، أو لَدْغَةٍ)[2].. فقد ذكر ﷺ شيئا آخر غير ما ذكر الحديث السابق.

قال: ولكنه ذكرها بصيغة الحصر.. ثم إنه ﷺ أمر في الأصل بالاستعاذة، و لم يكن حديثه عن الرقية إلا إجابة عن سؤال سألوه عنه ولا علاقة له بما حصل لسهل..

---

(١) أبو داود

(٢) أبو داود.

قاطعنا آخر، وقال: أنا لغوي من الله علي بعلم غريب النصوص، وسأشرح لكم من ألفاظه ما يبين توافق الحديثين، أما العين فمعروفة، ويقابلها في الحديث الثاني النَّفْس: وهي العَيْن، يقال: أصابت فلاناً نفسٌ، أى: عَيْن. والنافِس: العائن.

أما الحُمَةُ، فهي ذوات السُّموم كلها، كما قال ثعلب وغيره: هي سم العقرب وقال القزاز: قيل هي شوكة العقرب وكذا قال بن سيده أنها الابرة التي تضرب بها العقرب والزنبور، وقال الخطابي: الحمة كل هامة ذات سم من حية أو عقرب.

ولهذا فلا تعارض بين هذا الحديث والحديث السابق، لأن الحمة أعم من اللدغة، فبالتالي دخلت اللدغة فيها، والمقصود منها الأمراض التي يرجع سببها للسموم.

وإلى هذا أشار ابن حجر، فقد قال بعد إيراد الحديثين:(فغاير بينهما فيحتمل أن يخرج على أن الحمة خاصة بالعقرب فيكون ذكر اللدغة بعدها من العام بعد الخاص)

قلت: ولكن ابن القيم وغيره أجابوا على هذا التعارض بأنه ﷺ لم يُرِدْ به نفىَ جواز الرُّقية فى غيرها، بل المرادُ به:(لا رُقية أولى وأنفعُ منها فى العَيْن والحُمَة)

قال: هذا تأويل للحديث، والأصل الأخذ بما جاء في ظاهر النص، خاصة مع يسر الجمع بينهما.

قلت: ولكن ورد في حديث ثالث، قوله ﷺ:(لا رُقْيَةَ إلا مِن عَيْنٍ، أو حُمَةٍ، أو دَمٍ لا يَرْقأُ)[1]، فقد أضاف في هذا الحديث الدم الذي لا يرقأ، وهو الدم الذي لا ينقطع.

قال: هذا يستدعي البحث عن سر عدم انقطاع الدم، ولعل له علاقة بالسموم، فيجمع بذلك بين هذا الحديث وما سبقه من الأحاديث.

قلت: وقد ورد في حديث رابع عن أنس ﷺ قال:(رخَّص رسولُ اللهِ ﷺ فى الرُّقية من العَيْن والحُمَةِ والنَّمْلَةِ)[2].. فقد أضاف في هذا الحديث النملة، وقرنها بالعين.

قال اللغوي: النَّمْلَة: قُروح تخرج فى الجنبين، وهو داء معروف[3]،ولعل له علاقة بذوات السموم، فيجتمع مع ما سبق.

---

(١) أبو داود.

(٢) مسلم.

(٣) سُمِّى نملةً، لأن صاحِبَه يُحس فى مكانه كأنَّ نملة تَدِبُّ عليه وَتعضُّه، وأصنافها ثلاثة، قال ابن قتيبة وغيرُه: كان المجوسُ يزعمون أنَّ ولد الرجل من أُخته إذا خُطَّ على النَّملَةِ، شُفِىَ صاحبها، ومنه قول الشاعر:

وَلاَ عَيْبَ فِينَا غَيْرَ عُرْفٍ لِمَعْشَرٍ　　كِرامٍ وَأَنَّا لاَ نَخُطُّ عَلَى النَّمْلِ

قلت: وقد ورد في حديث خامس عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ:(رخَّص رسولُ اللهِ ﷺ فى الرُّقْيَة من الحيَّةِ والعقرب)[1]

قال: الحية والعقرب تدخل في ذوات السموم.

قلت:.. !؟

قال: أليس لديك غيرها؟

قلت: هذا ما أحفظه منها.

قال: فهذه الأحاديث جميعا تدل على انحصار الرقية في محال معينة لا تتجاوزها.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد وردت هذه النصوص بصيغ الحصر، ومع أنها وردت بصيغ مختلفة إلا أن التقارب بينها يسير، فهي عموما تدل على العين، وهي محل اتفاق بين النصوص جميعا، والأمراض الناشئة بسبب السموم.

قلت: لقد وضحت لي هذا.

قال: زيادة على هذا، فقد عبر الصحابة ﷺ عن وقوع الرقية في عهد النبي ﷺ بصيغة الترخيص، والرخصة ــ كما تدل عليها نصوص الشريعة مقدرة بقدرها ــ فقد قال تعالى:﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾(البقرة: من الآية١٧٣)

زيادة على ذلك، فإن هذا يدل على أن الأصل في الرقية النهي، وهو ما ثبت في أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ:(اعرضوا علي رقاكم)، أي لأنظر مدى شرعيتها.

قلت: فما السر الذي تراه لهذا الترخيص؟

قال: السر في هذا هو أن الرسول ﷺ وجد الرقية منتشرة في المجتمعات الجاهلية، ووجدها مختلطة بين استعمال أدوية طبيعية، وأخرى مما يمكن تسميته روحانية.

وروى الخَلاَّل: أنَّ الشِّفَاء بنتَ عبد الله كانت تَرقى فى الجاهلية من النَّمْلَة، فلمَّا هاجرت إلى النبيِّ ﷺوكانت قد بايعته بمكة، قالت: يا رسول الله ؛ إنِّى كنت أرقى فى الجاهلية من النَّمْلَة، وإنى أُريدُ أن أعْرِضَهَا عليكَ، فعرضت عليه فقالت: بسم الله ضَلَّت حتى تعود مِن أفواهها، ولا تَضُرُّ أحداً، اللَّهُمَّ اكشف البأسَ ربَّ الناسِ، قال: ترقى بِهَا عَلَى عُودٍ سبعَ مَرات، وتقصِدُ مَكَاناً نظيفاً، وَتَدْلُكُهُ على حجر بخَلِّ خَمرٍ حاذق، وتَطْلِيه على النَّمْلَةِ. وفى الحديث: دليلٌ على جواز تعليم النساءِ الكتابة.

وفى ((سنن أبى داود)) عن الشِّفَاء بنت عبد الله، قالت: دخل علىَّ رسول الله ﷺ وأنا عِند حَفْصَة، فقال: ((ألا تُعَلِّمينَ هذه رُقية النَّمْلةِ كما عَلَّمْتِيها الكتابةَ)).

(١) ابن ماجه.

و لم يكن ﷺ ليحرمها باعتبارها من التجارب التي ربما أثبتت بعض فاعليتها، فلذلك رغب في تركها أولا سدا لذريعة الشرك، فلما انتفت قيدها بالقيود الشرعية، وهي حصرها في أحوال معينة وبأساليب خاصة لا تتجاوزها.

ويدل لهذا، ما روي عن ابن شهاب الزُّهْري، قال: لَدَغَ بعض أصحاب رسول الله ﷺ حَيَّةٌ، فقال النبي ﷺ:(هَلْ مِن رَاق؟) فقالوا: يا رسول الله ؛ إن آل حزم كانوا يَرْقُون رُقيةَ الحَيَّةِ، فلما نَهَيْتَ عن الرُّقَى تركوهاً، فقال:(ادْعُو عُمارة بن حزم) فدعوه، فعرضَ عليه رُقاه، فقال:(لا بأسَ بها) فأذن له فيها فرقاه.

قلت: أهي بذلك تشبه ما يجرب من الأدوية مما يسمى بالطب البديل حيث أن هناك طرقا كثيرة قد يتوهم تلبسها بالشعوذة مع تأكد صلاحيتها في شفاء العلل؟

قال: أجل.. هذا صحيح.. وهو مثال جيد.

قلت: ورقية المس؟

قال: بدعة.. فلم يرد نص واحد بجواز الرقية فيها، فلم يرد في جميع الأحاديث أن النبي ﷺ أتي بمصروع فرقاه، وأخرج الجن منه كما يفعل الرقاة الآن.

قلت: فما تقول في النصوص الكثيرة التي وردت فيها الاستعاذات والأدعية المختلفة، وهي في النصوص الصحيحة الصريحة؟

قال: إن اصطلاح الرقية في الشرع خاص بنواح محددة، وهي ما نصت عليه النصوص من مجالات وكيفيات، أما ما عداها فهو من الاستعاذات والأدعية، وليس من الرقية، ويدل لذلك ما ورد في حديث أبي سعيد ﷺ قال:(كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذات فأخذ بها وترك ما سواها)[1]

قلت: فما فائدة التفريق بين الرقية والاستعاذات والأدعية؟

قال: الرقية رخصة، والأدعية مسنونة مستحبة، والقول بهذا ينفي التعارض الذي يبدو في حال ما لو سوينا بينهما.

ذلك أن الكثير من النصوص تذكر أنواع الاستعاذات والأدعية التي يدعو بها المريض ربه، وهي ترغب في ذلك، وتستحبه بدليل ما فيها من المعاني.

---

(١) الترمذي وحسنه والنسائي

بينما لا نجد في الرقية أي نص يدل على الاستحباب، بل قد ورد استحباب ترك الرقية في محال معينة، وقد قال ﷺ في السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب:((هُمُ الَّذِينَ لاَ يَرْقُونَ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

فلم يذكر ﷺ تركهم الاستعاذة، وإنما ذكر تركهم للرقى، ولهذا فمن اكتفى بالاستعاذة من العين، واكتفى من ذوات السموم باستعمال العلاج واللجوء إلى الله كان ذلك كافيا له.

قلت: ولكن العلماء أجابوا على ما يبدو من تعارض بين النهي عن الرقية أو بيان كون الكمال في تركها، وبين ثبوت النصوص الكثيرة الدالة على طرق الدعاء للمريض بإجابات كثيرة كما قال النووي:(فقد يظن مخالفاً لهذه الأحاديث ولا مخالفة بل المدح في ترك الرقى المراد بها الرقى التي هي من كلام الكفار والرقى المجهولة والتي بغير العربية وما لا يعرف معناها فهذه مذمومة لاحتمال أن معناها كفر أو قريب منه أو مكروه، وأما الرقي بآيات القرآن وبالأذكار المعروفة فلا نهي فيه بل هو سنة، ومنهم من قال في الجمع بين الحديثين أن المدح في ترك الرقى للأفضلية وبيان التوكل والذي فعل الرقى وأذن فيها لبيان الجواز مع أن تركها أفضل)

قال: وأفضل من ذلك لو حصروا الرقية فيما حصر من النصوص، وفرقوا بين الاستعاذة والرقية.

قلت: فما كيفية الرقية، وما مدى حرية الاجتهاد فيها؟

قال: من خلال استقراء النصوص نرى طرقا معينة في الرقى المرتبطة بالعين أو المرتبطة بعلاج ذوات السموم، وهي طرق منها ما هو منبن على الأعراف الجاهلية، وأقره رسول الله ﷺ، ومنها ما شرع أساسا.. وبذلك فإن كيفيات الرقى توقيفية، لا تختلف عن سائر التوقيفات بدليل الحديث المعروف:(اعرضوا علي رقاكم)

قلت له: ولكن الرقاة يستدلون عادة بهذا الحديث على ما يفعلونه ويخترعونه.

قال: فما وجه استدلالهم؟

قلت: وجهه أن النبي ﷺ أقر بعض الرقى.

قال: وهل نسوا أن النبي ﷺ أمر بعرضها عليه ليقرها، فلمن يعرضوها حتى تعتبر رقية؟

قلت: يعرضوها على قواعد الدين وأصوله، أو يقيسوها على ما ورد في النصوص من الرقى.

قال: لو كان الأمر خاضعا للقياس لبين العلة، وتركهم يقيسون دون أن يطلب منهم عرض آحاد القضايا عليه.

ولكن الرقية شيء مختلف.. إنها دواء، هي مثل أي اختراع لدواء، فإنه يحتاج إلى عرضه على هيئات مختصة لترى مدى فاعليته، وبما أن تأثير الرقية غيبي، فيحتاج فيها إلى معصوم له علاقة بهذا العالم، وليس ذلك إلا رسول الله ﷺ.

قلت: فأورد لي كيفية الرقية من خلال النصوص.

قال: بما أن مجالات الرقية محددة بما سبق بيانه، فسأورد لك النصوص الدالة على تلك الكيفيات التي لا يحل تجاوزها، وأورد معها ــ من باب النصيحة للأمة ــ بعض الأخطاء في هذا المجال، ولولا أن المصيبة بها عامة، لما اشتغلت بذكرها والتنبيه عليها.

قلت: فلنبدأ بالعين.

قال: لقد رأينا أنواع الرقى والاستعاذات المرتبطة بها.

قلت: فلم تبق إلا الأمراض السمية.. فما هي؟.. وما كيفية الرقية فيها؟

قال: الأمراض السمية هي الأمراض التي وردت النصوص بجواز الرقية فيها، ولعله يدخل فيها كل الأمراض التي تسببها الجراثيم وغيرها، باعتبارها من أنواع التسممات.

قلت: فما كيفية الرقية فيها؟

قال: لقد ورد في النصوص بعض أنواع الرقى في هذا الجانب، منها الاسشفاء بالقرآن الكريم ممزوجا بالنفث على موضع الداء، وهو الرقية الأولى، وقد ورد فيها هذا النص، فعن أبى سعيد الخدرى ﷺ، قال: انْطَلَقَ نَفَرٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ فى سفرةٍ سافرُوها حتى نزلوا على حيٍّ مِن أحياء العرب، فاستَضَافوهم، فأبَوْا أن يُضَيِّفُوهُم، فلُدِغَ سَيِّدُ ذلك الحيِّ، فَسَعَوْا له بكُلِّ شيء لا يَنْفَعُهُ شيء، فقال بعضهم: لو أتيتُم هؤلاء الرَّهطَ الذين نزلوا لعلهم أن يكون عند بعضهم شيء. فأتوهم، فقالوا: يا أيُّهَا الرَّهطُ ؛ إنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وسَعينا له بكُلِّ شيء لا يَنْفَعُهُ، فَهَلْ عِنْدَ أحدٍ منكم من شيء؟ فقال بعضُهم: نعم والله إنى لأَرْقى، ولكن استَضَفْناكُمْ، فلم تَضيِّفُونَا، فما أنا بَرَاق حتى تَجْعَلُوا لنا جُعْلاً، فصالَحُوهم على قطيع من الغنم، فانطلَقَ يَتْفُل عليه، ويقرأ:﴿ الحَمْدُ لله رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، فكأنما أُنشِطَ من عِقَال، فانطَلق يمشى وما به قَلَبَةٌ، قال: فأوفَوْهُم جُعْلَهُم الذى صالحوهم عليه، فقال بعضُهم: اقتسمُوا، فقال الذى رَقَى: لا تفعلوا حتى نأتىَ رسولَ الله ﷺ، فنذكُرَ له الذى كان، فننظُرَ ما يأمرُنا، فَقَدِمُوا على رسول الله ﷺ، فذكروا له ذلك، فقال:(وما يُدْريكَ أنَّها رُقْيَةٌ؟)، ثم قال:(قد أصَبْتُم، اقسمُوا واضْربوا لى مَعَكُم سهماً)

قلت: لقد قرأ عليه القرآن الكريم، فكيف اعتبر هذا رقية؟

قال: السر في اعتبارها رقية هو جمع الراقي بين القراءة والنفث عليه.

قلت: لقد ذكر ابن القيم السر في تأثير هذا النوع من الرقية، فقال:(وقد جعل اللهُ سبحانه لكل داء دواءً، ولكل شيء ضِداً، ونفس الراقي تفعلُ في نفس المرقى، فيقعُ بين نفسيهما فعلٌ وانفعالٌ، كما يقع بين الداء والدواء، فتقوى نفسُ الراقي وقُوَّته بالرُّقية على ذلك الداء، فيدفعُه بإذن الله، ومدارُ تأثير الأدوية والأدواء على الفعل والانفعال، وهو كما يقع بين الداء والدواء الطبيعيين، يقع بين الداء والدواء الروحانيين، والروحاني، والطبيعي، وفى النَّفْث والتَّفل استعانة بتلك الرطوبة والهواء، والنفس المباشر للرُّقية، والذِكْر والدعاء، فإنَّ الرُّقية تخرُج مِن قلب الراقي وفمه، فإذا صاحبها شيء من أجزاء باطنه من الرِّيق والهواء والنَّفَس، كانت أتمَّ تأثيراً، وأقوى فعلاً ونفوذاً، ويحصُل بالازدواج بينهما كيفيةٌ مؤثرة شبيهةٌ بالكيفية الحادثة عند تركيب الأدوية.

وبالجملة.. فنفْسُ الراقي تُقابل تلك النفوس الخبيثة، وتزيدُ بكيفية نفسه، وتستعين بالرُّقية وبالنفثِ على إزالة ذلك الأثر، وكلَّما كانت كيفيةُ نَفَس الراقي أقوى، كانت الرُّقيةُ أتمَّ، واستعانتُهُ بنفْثه كاستعانة تلك النفوس الرديئة بلسعها)

وذكر حكمة أخرى، فقال:(وفى النفث سِرٌّ آخر، فإنه مما تستعين به الأرواح الطيبة والخبيثة، ولهذا تفعلُه السَّحَرةُ كما يفعلَهُ أهلُ الإيمان. قال تعالى:﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، وذلك لأن النفْس تتكيَّفُ بكيفية الغضب والمحاربة، وتُرسِلُ أنفاسَها سِهاماً لها، وتمدُّها بالنفْث والتفْل الذى معه شيء مِن الرِّيق مصاحب لكيفية مؤثرة، والسواحِرُ تستعين بالنفث استعانةً بيِّنةً، وإن لم تتصل بجسم المسحور، بل تنفثُ على العُقدة وتعقِدها، وتتكلم بالسِّحْر، فيعمل ذلك في المسحور بتوسط الأرواح السُّفلية الخبيثة، فتقابلُها الرَّوح الزكية الطيبة بكيفية الدفع والتكلم بالرُّقية، وتستعينُ بالنفث، فأيُّهُما قَوِىَ كان الحكَمُ له، ومقابلةُ الأرواح بعضها لبعض، ومحاربتُها وآلتها مِن جنس مقابلة الأجسام، ومحاربتها وآلتها سواء، بل الأصلُ فى المحاربة والتقابل للأرواح والأجسام آلتها وجندها، ولكن مَن غلب عليه الحِسُّ لا يشعرُ بتأثيرات الأرواحِ وأفعالِهَا وانفعالاتِهَا لاستيلاء سُلطان الحِسِّ عليه، وبُعْدِهِ من عالَم الأرواح، وأحكامها، وأفعالها.

والمقصود.. أنَّ الرَّوح إذا كانت قويةً وتكيَّفتْ بمعاني الفاتحة، واستعانت بالنفث والتفْل، قابلت ذلك الأثَر الذي حصل من النفوس الخبيثة، فأزالته)

قال: هذا كلام جميل.. ولكنه خطير.

قلت: لم؟.. وما هذا التناقض !؟

قال: هذا التحليل قد يقبل، ويعجب بعبقرية صاحبه، ولكن الخطر ليس فيه، وإنما في اعتبار ما ذكره علة يمكن القياس عليها، وهو ما حصل بين الرقاة، حيث أدرجوا في رقاهم أمورا كثيرة، فلم يبق للنفث عندهم قيمة، أو أن النفث صنعة قديمة.

قلت: صدقت.. فقد رأيت مهندسا غرق في بحار الرقية، فاخترع كرسيا عجيبا لها، وكتب في فضائله كتبا، وسر اختراعه يكمن في إيصال موجات القرآن الكريم إلى الدم مباشرة من غير وسيط.

قال: فمن أين تلقى هذا الكرسي العجيب؟

قلت: لقد وهب له من الغيب.

قال: أنبي هو أم ولي؟

قلت: هو لا يزعم كليهما.

قال: فهو دعي إذن.. ارموا به مع كرسيه عرض الحائط.

قلت: لقد ذكر ابن القيم طريقة قريبة من هذا النوع من الرقى، فقال:(ورأى جماعة من السَّلَف أن تُكتب له الآياتُ مِن القرآن، ثم يشربَها. قال مجاهد: لا بأس أن يكْتُبَ القرآنَ، ويغسلَه، وَيْسقِيَه المريضَ، ومثلُه عن أبي قِلاَبَةَ، ويذكر عن ابن عباس: أنه أمر أن يُكَتبَ لامرأة تَعَسَّرَ عليها وِلادُها أثرٌ من القرآن، ثم يُغسل وتُسقى. وقال أيوب: رأيتُ أبا قِلاَبَةَ كتب كتاباً من القرآن، ثم غسله بماء، وسقاه رجلاً كان به وجعٌ)

قال: مثل هذا يحتاج إلى توقيف من النصوص المعصومة، زيادة على الأخطار التي يمكن أن يحملها مثل هذا النوع من الاستشفاء لو قيل بجواز استعماله، فقد يسقى المريض سما، فمن أنواع الحبر ما يدخل في أنواع السموم.

قلت: مما ورد من الرقية بالقرآن الكريم ما وري من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: بينا رسولُ الله ﷺ يُصلِّى، إذ سجد فَلَدَغَتْه عقربٌ فى أُصبعه، فانصرفَ رسولُ الله ﷺ وقال:(لَعَنَ اللهُ العَقْرَبَ ما تَدَعُ نبيّاً ولا غَيْرَه)، قال: ثُمَّ دعا بإناء فيه ماء ومِلح، فَجَعَلَ يَضَعُ موضِعَ اللَّدغة فى الماء والمِلح، ويقرأُ:﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾، والمُعَوِّذَتَيْنً، حتى سكنت[1].

قال: لم يرد في النص الإخبار بأن هذا من الرقية، بل إنه من العلاج العادي الممزوج بقراءة القرآن الكريم.. ومثل ذلك أن يقرأ المريض في أي دواء من الأدوية ما شاء من الاستعاذات

(١) ابن أبي شَيْبَةَ والطبراني وغيرهما.

القرآنية والنبوية، فليس الملح مقصودا في هذا الباب كما يتوهم الرقاة الذين يعتبرون الملح العدو الأول لعالم الجن والشياطين.

قلت: لقد رأيت بعضهم يسقي مريضة ماء نصفه ملح، وهي تتقيأ بشدة، وهو لا يكف عن سقيها، متصورا أنه يسقي الجن الذي يستعمرها.

قال: لقد بين ابن القيم الأسرار المودعة في استعماله ﷺ الملح في هذا المجال، مستشهدا بكلام الأطباء، وهو ما يدل على أن استعمال الملح خاص بأحوال معينة لها علاقة بالطب أكثر من علاقتها بالرقية، قال عند بيانه لهَدْيه ﷺ فى علاج لدغة العقرب بالرُّقْيَة:(وأما العلاج الطبيعى فيه، فإنَّ فى المِلح نفعاً لكثير من السُّموم، ولا سِيَّما لدغة العقرب، قال صاحب (القانون):(يُضمَّد به مع بذر الكتان للسع العقرب، وذكره غيرُه أيضاً. وفى المِلح من القوة الجاذبة المحلِّلة ما يَجذِبُ السُّموم ويُحللها، ولَمَّا كان فى لسعها قوةٌ نارية تحتاج إلى تبريد وجذب وإخراج جمع بين الماء المبرد لنار اللَّسعة، والمِلح الذي فيه جذبٌ وإخراج، وهذا أتم ما يكون من العلاج وأيسره وأسهله، وفيه تنبيه على أنَّ علاج هذا الداء بالتبريد والجذب والإخراج)

قلت: فهل يمكن الاستشهاد بهذا على أن المجالات التي يمكن أن يستعمل فيها الملح تحتاج إلى بيان الأطباء، ولا يكتفي فيها بتجارب الرقاة؟

قال: أجل.. فقد يسقي بعضهم مريض الضغط ملحا كثيرا، وهو لا يبالي بالأخطار التي تنتج عن ذلك.

قلت: مما ورد في النصوص من الرقى ما ورد في هَدْيه ﷺ فى رُقْيَة القَرْحة والجُرْح، فعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى الإنسانُ أو كانت به قَرحةٌ أو جُرحٌ، قال بأصبعه: هكذا ووضع سفيانُ سبَّابَتَهُ بالأرض، ثم رفعها[1] وقال:(بسْمِ الله، تُرْبَةُ أرضِنا بريقَةِ بعضِنا، يُشْفَى سَقِيمُنا بإذنِ رَبِّنا)

قالَ: لم يصرح في هذا الحديث بلفظ الرقية، ولذلك فهو نوع من المزج بين الأدعية والأدوية الطبيعية.

قلت: فهل هذا النوع من العلاج خاص بهذه الصورة، أو بما يماثلها مما ينص الأطباء على جدوى العلاج به.

(١) أي أنه يأخذ مِن ريق نفسه على أصبعه السبابة، ثم يضعها على التراب، فيعلَق بها منه شيء، فيمسح به على الجُرح، ويقول هذا الكلام.

قال: أجل.. وقد ذكر ابن القيم الأسرار الطبية لمثل هذا العلاج، فقال:(هذا من العلاج الميسر النافع المركَّب، وهى معالجة لطيفة يُعالج بها القُروحُ والجِراحات الطرية، لا سيَّما عند عدم غيرها من الأدوية إذ كانت موجودة بكل أرض، وقد عُلِمَ أنَّ طبيعة التراب الخالص باردةٌ يابسة مجففةٌ لرطوبات القروح والجراحات التى تمنع الطبيعةُ من جودة فعلها، وسرعةِ اندمالها، لا سِيَّما فى البلاد الحارَّة، وأصحاب الأمزجة الحارَّة، فإنَّ القُروح والجِراحات يتبعُها في أكثر الأمر سوءُ مزاجٍ حار، فيجتمِعُ حرارة البلد والمزاجُ والجِراحُ، وطبيعةُ التراب الخالص باردة يابسة أشدُّ مِن برودةِ جميعِ الأدوية المفردة الباردة، فتُقَابلُ برودةُ التراب حرارةَ المرض، لا سِيَّما إن كان الترابُ قد غُسِلَ وجُفِّفَ، ويتبعها أيضاً كثرةُ الرطوبات الرديئةَ، والسيلان، والتُّراب مُجَفِفٌ لها، مُزيلٌ لشدة يبسه وتجفيفه للرطوبة الرديئة المانعة من برئها، ويحصل به مع ذلك تعديلُ مزاج العضو العليل، ومتى اعتدل مزاج العضو قويت قواه المدبرة، ودفعت عنه الألم بإذن الله)

وقد أشار ابن القيم إلى ناحية مهمة قد يغفل عنها، وهي قوله:(لا سِيَّما إن كان الترابُ قد غُسِلَ وجُفِّفَ) ذلك أن التراب قد يحمل أدواء خطيرة إن لم يكن نظيفا، ولذلك يستدعي مثل هذا العلاج احتياطا خاصا، أو إشرافا من الأطباء، ولا يسمح به لعموم الرقاة.

ومما يؤكد ما ذكرناه ما أورده ابن القيم نفسه من الخلاف في نوع التربة التي يمكن استعمالها، وهو يرجع في ذلك إلى كلام الأطباء، قال:(وهل المراد بقوله: ((تُرْبَةُ أَرضِنا)) جميع الأرض أو أرضُ المدينة خاصة؟ فيه قولان، ولا ريبَ أنَّ مِن التُربة ما تكون فيه خاصية ينفع بخاصيته من أدواءٍ كثيرة، ويشفى بها أسقاماً رديئة)

وينقل عن جالينوس قوله:(رأيتُ بالإسكندرية مَطحُولين، ومُستسقين كثيراً، يستعملون طين مصر، ويطلُون به على سُوقهم، وأفخاذهم، وسواعدهم، وظهورهم، وأضلاعهم، فينتفعون به منفعة بَيِّنة. قال: وعلى هذا النحو فقد ينفع هذا الطلاء للأورام العفنة والمترهِّلة الرخوة، قال: وإنِّي لأعرفُ قوماً ترهَّلَت أبدانُهم كُلُّها من كثرة استفراغ الدم من أسفل، انتفعوا بهذا الطين نفعاً بَيِّناً، وقوماً آخرين شَفَوْا به أوجاعاً مزمنة كانت متمكنة فى بعض الأعضاء تمكناً شديداً، فبرأت وذهبت أصلاً)

وينقل عن صاحب (الكتاب المسيحى) قوله:(قُوَّة الطين المجلوب من ((كنوس)) وهى جزيرة المصطكى قوة تجلو وتغسل، وتُنبت اللحمَ فى القروح، وتختم القُروح..)

ونرى أنه يمكن الاستعاضة عن هذا بأنواع المراهم والأدوية ممزوجة بالاستعاذات الشرعية كما بينا سابقا.

قلت: مما ورد في النصوص من الرقى ـــ وهو مما صرح فيه بلفظ الرقية ـــ وهو من الأعراف الجاهلية التي أقرها رسول الله ﷺ مرخصا فيها رقية النملة، وقد ذكرنا سابقا تخصيص رسول الله ﷺ لها، ففي حديث أنس ﷺ: أنه ﷺ رخَّص فى الرُّقْيَةِ مِنَ الحُمَةِ والعَيْنِ والنَّمْلَةِ[1].

بل ورد ما يدل على أمر رسول الله ﷺ بتعلمها، فعن الشِّفَاء بنت عبد الله، قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا عِند حَفْصَة، فقال:(ألا تُعَلِّمينَ هذه رُقية النَّمْلةِ كما عَلَّمْتِيها الكتابةَ)[2]

وقد ورد في الكيفية التي كانت الشفاء ترقي بها من النملة ما رواه الخَلاَّل: أنَّ الشِّفَاء بنتَ عبد الله كانت تَرقى فى الجاهلية من النَّمْلَة، فلمَّا هاجرت إلى النبيِّ ﷺ وكانت قد بايعته بمكة، قالت: يا رسول الله ؛ إنِّى كنت أرقى فى الجاهلية من النَّمْلَة، وإنى أُريدُ أن أعْرِضَهَا عليكَ، فعرضت عليه فقالت: بسم الله ضَلَّت حتى تعود مِن أفواهها، ولا تَضُرُّ أحداً، اَللَّهُمَّ اكشف البأسَ ربَّ الناسِ، قال: ترقى بهَا عَلَى عُودٍ سبعَ مَرات، وتقصِدُ مَكاناً نظيفاً، وتَدْلُكُهُ على حجر بِخَلِّ خَمرٍ حاذق، وتَطْلِيه على النَّمْلَةِ)

قالً: لقد أقر النبي ﷺ هذه الرقية ورخص فيها باعتبارها هي الدواء الذي كان يستعمل لهذا النوع من الأدواء، و لم يكن ﷺ ليحرم عليهم أي دواء لا يوجد له بديل طبيعي، خاصة إن لم يحمل أي مظهر من مظاهر الشرك.

---

(١) مسلم.

(٢) سنن أبي داود

الفهرس

هذه السلسلة تتوجه للمتألمين الذين مــلأت الأمــراض نفوسهم يأسا وحسرة وأسفا، لتملأهم بالأمــل في الله، وفي شفاء الله، وفي عافية الله.

وهي ترد بحدة على الأوهام التي يسربها لهم المشــعوذون والخرافيون الذين راحوا يعبثون بقدسية المصادر الإســلامية، ليرموها بالشعوذة والخرافة ..

وهي ترد بمثل تلك الحدة على ما يمارسه الطب الحديث من انتهاك لحرمة الجسد البشري بأصناف المعالجات الــتي لا تتناسب ــ في أحوال كثيرة ــ مع طبيعة جسد الإنسان.

وهي ــ بعد ذلك كله ــ مدرسة في الثقافة الصــحية تيسر على العامي البسيط معرفة المعارف الكــثيرة المرتبطــة بعلاج آلامه، من الناحية الشرعية، ومن الناحية العلمية.

وقد صيغت بشكل روائي مبسط ملــيء بالأحــداث المشوقة، لترسم البسمة بدل الأنين، والأمل بــدل اليــأس، والسلام بدل الصراع، لتحيي ســنته ﷺ في التنفــيس عــن المرضى، وملئهم بالبشارة.

وهذه أجزاؤها:

١. **رقية الروح** : وهو خاص بمــا يســمى بالطــب الروحاني.

٢. **رقية الجسد**: وهو خاص بما يسمى بالطب الوقائي.

٣. **أدوية من السماء**: وهو خاص بما يسمى بالطــب النبوي.

٤. **أدوية من الأرض**: وهو خاص بما يسمى بالطــب البديل.